الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

جامعة الجزائر معهد التاريخ

الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري

خلال القرن الثامن عشر

رسالة ماجستر في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة: الواليش فتيحة

تحت إشراف: الدكتور بلحميسي مولاي

السنة الجامعية 1993- 1994

الجمهورية الجزائرية الديموقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي

جامعة الجزائر

معهد التاريخ

الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري

خلال القرن الثامن عشر

رسالة ماجستر في التاريخ الحديث

إعداد الطالبة: الواليش فتيحة

تحت إشراف: الدكتور بلحميسي مولاي

السنة الجامعية 1993- 1994

الحياة الحضرية في بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر

الشكر

أقف أولا وقفة اعتبار وتقدير لمن ساهم في نجاحي وكان لي سندا وأنا في بداية البحث، وأخص بالذكر الأستاذ العيد مسعود مدير معهد العلوم الإجتماعية لجامعة قسنطينة وأستاذ تاريخ الجزائر في العهد العثماني، وأشكره على ما قدمه لي من تشجيعات ومساعدات مادية ومعنوية.

كما أشكر الأستاذ مولاي بلحميسي الذي أشرف على هذا البحث وقدم لي خدمات جليلة بل كم هي المعلومات التي استفدت منها سبق له أن سجلها من مكتبات مختلفة سواء بخارج الوطن أو بداخله.

وبقدر ما جمعتنا حواضر بايلك الغرب من حيث الإهتمام العلمي جمعتنا الصرامة والجدية في العمل والبحث.

وأشكر جميع الزملاء الذين ساهموا في انجاز هذا العمل بقراءاتهم ومناقشاتهم للأفكار الواردة فيه.

أخيرا أشكر عمال المكتبات والأرشيف على كل الخدمات والمساعدات التي قدموها لي خاصة عمال الأرشيف الوطني قسم الوثائق العثمانية، ومدير الأرشيف الجهوي لمدينة وهران.

تشكل الحياة الحضرية لبايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م موضوع البحث المتناول بالدراسة. يعود إختياري للمدينة كموضوع هذا البحث إلى إهتمامي بهذا المجال لتفسير الأحداث التاريخية كما أن المقصود بالحياة الحضرية هو التركيز على المدينة كمجال للبحث، والمدن التي نركز عليها هي المدن التالية: تلمسان ومازونة ومستغانم ومعسكر وندرومة.

لقد شكلت هذه المجموعة أهم حواضر بايلك الغرب الجزائري، و أنه انطلاقًا من هذه النماذج نستطيع الخروج بصورة متكاملة عن الموضوع المختار للدراسة.

كثيرا مادرست المدن لكن النظرة الوصفية هي التي كانت طاغية، كما أن المدينة كمجال للبحث لم تلق العناية الكافية من الباحثين، فبقيت جوانبها الإقتصادية و الإجتماعية و العمرانية والثقافية مهملة بينما الجانب السياسي بأحداثه الداخلية والخارجية نال أهتمام الباحثين.

إن إهتمامنا بالمدينة كموضوع للدراسة سوف لا يجعلنا نهمل العلاقات التكاملية التى ربطت المدينة بالريف أنذاك، هذا حتى لا نتناول المدينة كبيئة منفصله عن ما يحيط بها.

إن هدفنا من هذه المحاولة هو توضيح الهياكل الخاصة بالمجتمع الحضري، علما أنه في الوقت الراهن لاتوجد دراسات عميقة في هذا المجال، والمحاولات الموجودة رغم كثرتها قليلة وغير كاملة في تحليل التشكلية الإجتماعية اقتصرت بصفة عامة على الواقع الريفي، وكانت في أغلبها من طرف الجغرافيين وعلماء الإقتصاد. [1]

يسعى البحث إلى طرح موضوع المدينة في إشكالية كاملة مع القيام بتحليل إجمالي لجل العلاقات التي سيرت المدينة، محاولين الربط بين العامل الإجتماعي والنسيج العمراني وتأثير ذلك على الوظائف الإقتصادية والثقافة السائدة كما أننا سنتخذ من تطور النسيج العمراني عاملا لترتيب المراحل التاريخية، وندرس هذا النسيج بطريقة تحليلية من خلال البنية الإجتماعية التي هي القاعدة عوض أن نتخذ منها مقياساً مرحلياً.

تكمن الغاية التي نرغب فيها في جعل العلاقة بين التركيبه الإجتماعية والحياة الإقتصادية والنسيج العمراني أكثر وضوحا، بل إن التاريخ الحضري غايته تكمن هنا.

أما الفترة المخصصة للدراسة، فهي القرن الثامن عشر، ومن الممكن أن تحدد بداية الدراسة بحدث تاريخي هام يتمثل في إنتقال مقر البايلك من مازونة إلى معسكر سنة 1701[2]، كما سننطلق من عهد الباي بوشلاغم [3]، الباي السابع عشر للبايلك الغرب عرف البايلك خلال هذه الفترة أحداث تاريخية هامة، منها: فتح وهران الأول في عهد الباي بوشلاغم سنة 1708 واسترجاع وهران النهائي في عهد الباي محمد الكبير سنة 1791. وتوج القرن الثامن عشر بأحداث هامة، حيث بايليك الغرب استكمل وحدته الترابية بجلاء الاسبان عن وهران والمرسى الكبير وذلك سنة 1792، والمد التركي قد وصل أقصاه خلال هذا القرن شهدت الفترة المذكورة تحولاً في إهتمامات الدولة نحو الداخل، وذلك بالإهتمام أكثر فأكثر على المواد الداخلية للبلاد بعد أن ظل النشاط البحري يوجه السياسية الجزائرية نحو الخارج مدة طويلة.

---

(1) Lacoste (Y), Nouschi (A), Prenant (A), L'Algérie passé et présent, Paris, ed Sociales. 1960.
-Gallissot (R), Prenant (A), Valensi (L). "L'Algérie précoloniale", in "Cahiers du "C.E.R.M", sur le féodalisme. Paris; ed Sociales, 1971.
-Merad-Boudia (A), La Formation sociale Algérienne précoloniale, Alger, OPU, 1981.
-Sari Djilali, Les Villes précoloniales de L'Algérie Occidentale, Nédroma, Mazouna, Kalaâ, Alger, SNED, 1970.

(2) عرف مقر البايلك تنقلات عديدة بعد مازونة ومعسكر شكلت مدينة مستغانم مقرا للبايلك في الفترة ما بين 1732 إلى 1737 ثم عاد المقر إلى معسكر وبعد تحرير وهران الثاني أصبحت وهران عاصمة البايلك.

(3) حكم الباي بوشلاغم من سنة 1696 إلى غاية 1737.

المصادر: إن طبيعة الموضوع دعت إلى تنوع وتعدد المصادر المتمثلة في:

الأرشيف، والمخطوطات والوثائق من رسائل وتقارير، والرحالات وكتب التاريخ إضافة إلى المراجع.

المصادر: إن إطلاعنا على سجلات البايلك، وبيت المال والمحاكم الشرعية الموجودة بالأرشيف الوطني جعلنا نسجل بعض الإشارات المتفرقة، والتي تشير إلى بعض الأوقاف الموجودة بالمدن المعينة في الدراسة، كما نشير إلى أن الوثائق الموجودة بالأرشيف الوطني، والخاصة ببايلك الغرب تعتبر قليلة اذا ما قارناها بوثائق المناطق الأخرى: دار السلطان أو بايلك الشرق أي الجهات الأخرى عامة.

كما أن وجودي بمدينة اسطنبول مكننا من القيام بعملية جرد لما تحتويه بعض الدفاتر، فبعد العمل على دفاتر «خط هما يون تصنيفي» و«دفاتر جودة تصنيفي» فإن أغلبية وثائق هذه السجلات تتمحور حول المواضيع التالية: علاقة الإيالة بالباب العالي، مراسلات، وثائق خاصة بالجانب الحربي، منها دخول سفن وخروج أخرى مع الإشارة إلى أماكن الإنطلاق والتوجه والفترات الزمنية، هناك وثائق تشير إلى بعض الجوانب التجارية، وأخرى تشير إلى قوافل الحج والأماكن التي كانت تمر بها مع الإشارة إلى بعض البضائع المتبادلة.

ومن جهة أخرى توجد وثائق تغطي بداية الفترة الإستعمارية، هناك مراسلات ورسائل، شهادات كتاب زاروا القطر في هذه الفترة إضافة إلى ما سبق هناك وثائق تتعلق بالأمير عبد القادر وأحمد باي وقدوم بعض السفراء .

نشيرهنا إلى أننا لم نطلع مع الأسف على أرشيف يعتبر هاما وضروريا يوجد في كل من فرنسا وإسبانيا، بالإضافة إلى عدم العثور على مصادر نستطيع أن نثرى بها الجانب الإجتماعي والإقتصادي وندعم بها الجانب العمراني، وتتمثل هذه المصادر في سجلات الأوقات ودفاتر المحاكم الشرعية والسجلات الإدارية.لهذه الحواضر، متناوله جل جوانب الحياة بصفة مفصلة و مدققة لآن مايوجد بالأرشيف الوطني هو عبارة عن شذرات غيرمتسلسلة زمنياً.

إن الطرح الجديد لتاريخ العمران، أي دراسة الحياة الحضرية باشكالية جديدة وهو طرح موضوع المدينة في إشكالية كاملة، يتطلب أن يلتقى المؤرخ والجغرافي وعالم الإجتماع والمعماري وعالم الإقتصاد وعالم السياسة؛ الإهتمام بالمدينة يشترط الإهتمام بعلومها، إن هذا الطرح الجديد للدراسات الحضرية الذي يضع المدينة في ملتقى الطرق يسعى للتخلّي عن النظرة الإجتماعية المحضة والنظرة السياسية الشكلية ليدرس جل العلاقات التي تتحكم في المدينة، هكذا هذه الإشكالية الجديدة تؤدي إلى تعدد مصادرنا، حيث أنه لابد من البحث عن وسائل جديدة ومن جهة أخرى لا بد من قراءة تحت أضواء جديدة للمصادر الموجودة، على هذا الأساس تم اسخدام مصادر متنوعة بالعربية، وباللغة الأجنبية وكانت كالأتي.

الأرشيف: لقد استفدنا من المعلومات التي تم العثور عليها في سجلات البايلك وسجلات بيت المال وسجلات المحاكم الشرعية. أما الأرشيف الفرنسي فقد إستفدنا من روزنمات الوثائق الرسمية المتضمنة إحصاءات خاصّة بمستغانم ومعسكر بالاضافة إلى بعض التقارير والوثائق المتفرقة تناولت جوانب من الموضوع. بعد الأرشيف تاتي المصادر الأساسية لقد شكل ما ألفه الأهالي مصادر أسياسية مخطوطا كان أو مطبوعًا شعراً أو نثرًا.

المخطوطات: ونذكر منها مخطوط أبن زرفه «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» الجزء الأول والموجود بالمكتبة الوطنية. ومخطوط أبوراس الناصري» عجائب الأسفار ولطائف الأخبار» والثالث لمجهول تحت عنوان، مجموعة أوامر تركية تحت اسم كتاب قانون بالجزائر على الأسواق وغيرها وهذه المخطوطات كلها توجد بالمكتبة الوطنية، كما تم الإطلاع على مخطوط بالمتحف الجهوي لمدينة وهران وهو مخطوط المازري. تحت عنوان طلعة سعد السعود».

المصادر المطبوعة: نذكر منها مؤلف أبن سحنون «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» وابن يوسف الزياني «دليل الحيران وأنيس السهران في أخبار مدينة وهران» ومذكرات الحاج أحمد الشريف الزهار نقيب أشراف الجزائر (1754-1830) إضافة إلى ذلك ديوان ابن القاضي «الكنز المكنون في الشعر الملحون» وديوان ابن مسايب.

بعدما ألفه الأهالي سواء ما هو مخطوط أو مطبوع تم الاعتماد على ماألفه الأجانب حول المنطقه سواء ما ألف قبل القرن الثامن عشر أو أثنائه، وهؤلاء الأجانب أغلبهم غربيون منهم الرحالة و القناصل والأسرى والعسكريون، نذكر بعض المؤلفين مثل ليون الإفريقي(Léon L'africain-J)، ومارمول (Marmol C-L)، وكذلك على كل من هايدو ولوجي دي Haïdo) (Diego De تاسي (Laugier De Tassy) ودي فنتان (Desfontaine L) ، ومذكرات تدني (Thedenat) وتقرير أرامبورو (Aramburu Don Joseph) إضافة إلى فنتور دي برادي (Venture De Paradis) وشو (Shaw Th DR) وشلار (Shaler W)

أما المراجع فقد تم الإعتماد عليها وفق الخطة التالية:

اولاً : الأعمال التي أنجزت في العهد الإستعماري ونشرت كأبحاث علمية أطروحات ودراسات أو على شكل مقالات ضمن المجلات المتخصصة أنذاك. ومن بين الدراسات ما قام به بودان (Bodin) حول مدينة مستغانم ودراسة باسي (Basset) لمدينة ندرومة إضافة الى أعمال امرت مارسل (Emerit) حول القطاع الوهراني عامة ومعسكر وتلمسان خاصة ومانشره من تقارير حول هذه المدن،تقرير تاتارو (Tatareau) 1835 كما نشير إلى أعمال ولسن إسترهازي (Walsin Esterhazy) حول مخزن وهران والقطاع الوهراني تحت الحكم التركي، وأعمال تانتوان (Tinthoin, R) حول المنطة. كما نضيف رحلات روزي وكاريت (Rozet,Carette) ويضاف إلى هذه المصادر مصدر أنجز في بداية الإحتلال الفرنسي يتمثل في جدول المؤسسات الفرنسية في الجزائر حيث تم الأعتماد على السنوات التالية 1838 ـ 1839 ـ 1840 ـ 1844 ـ 1845.

ـ أما المجلات المتخصصة والتي تم الإعتماد عليها، نذكر منها المجلة الإفريقية (R.A) ونشرة الجمعية الجغرافية والأثارية لمدينة وهران (B.S.G.A.O) ومنشورات معهد الدراسات الشرقية (A, L, E, O) والجريدة الأسيوية (J, A) إضافة إلى المجلة التونسية (R.T) والكراسات التونسية (C.T) ومجلة الغرب الإسلامي والبحر الأبيض المتوسط (R.O.M.M) ودورية أنال (Annales E.S.C) هذه الأخيرة أفادتنا من حيث الموضوع والمنهج خاصة العدد الصادر سنة 1970 المتضمن لدراسات الحضرية .[4]

---

(4)- "Histoire et Urbanisme" in " Annales-E.S.C, "n Spécial, Paris, A. Colin, 1970.

كما إعتمدنا على دراسات أخرى رغم أنها لاتمس الموضوع مباشرة فاستفدنا من منهجها، وهي دراسات وأطروحات تناولت المدينة العربية الإسلامية والحياة الحضرية بصفة عامة ونشير هنا إلى أعمال لتورنو(Letourneau)، وسوفاجى (Sauvaget) وريمون (Raymond) إضافة إلى أعمال ماسنيون (Massignon) وأعمال بارك (Berque) ولويس قاردي حول المدينة الاسلامية (Gardet) إضافة إلى أعمال مارسى (Marçais) التي اهتمت بالفن والعمارة [5]، وأعمال ودراسات حول الحياة الحضرية خاصة وتاريخ المدن بصفة عامة [6]. كيفية تقديم الموضوع، تناولنا الحياة الحضرية متبعين في ذلك الخطة التالية:

بعد المقدمة وضعنا مدخلا، وهو عبارة عن لمحة تاريخية لبايلك الغرب الجزايري خلال القرن الثامن عشر تعرضنا من خلاله للوضع الداخلي للبايلك وأهم أحداث هذا العصر ثم علاقة البايلك بالايالة وفي الأخير تعرضنا إلى الأطماع الأجنبية التي عرفتها المنطقة.

الفصل الأول: يتناول الإطار العام لحواضر بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر، ومن خلال هذا الفصل، نحاول أن نتعرض للإطار الطبيعي والتاريخي لهذه الحواضر، مركزين في الشطر الأول على الأهمية الجغرافية التي تمتاز بها هذه الحواضر محاولين ربط هذا، أي الموقع بالإطار العام ألا وهو بايلك الغرب خاصة وشمال افريقيا عامة،

بعد الإطار الطبيعي نتعرّض للإطار التاريخي لهذه الحواضر مركزين على العهد العثماني عامة والقرن الثامن عشر خاصة، أما ما نحاول ابرازه بصفة جليه من خلال هذا الفصل، فيتجلى في إظهار العلاقة الموجودة بين الإطارين وذلك نتيجة ربط الدور التاريخي بالاهمية الإستراتيجية للموقع. ومدى أهميته ودور هذه العلاقة على المجالات السياسية والإقتصادية و الإجتماعية إن تحديد الأرضية المتناولة بالدراسة وتحديد إطارها التاريخي يكسب البحث صبغة أكثر وضوحًا وتجسيماً، ويمنح البحث إطارا مكنيا وزمنيا سماته وصفاته واضحة وملموسة.

---

(5) Tourneau Roger - Le, Les Villes musulmanes de l'Afrique du Nord, Alger, Maison du livre, 1957.
- Sauvaget Jean, Alep. 2 vol, Paris, Guetener, 1941.
- Raymond André, Artisans et commerçants au Caire aux XVIII siècle, 2 vol, Beyrouth, IFD, 1974.
- Raymond André, Grandes villes arabes à L'époque ottomane, Paris, Sindbad, 1985.
- Massignon Louis, opéra Minora, 3t, Paris, PUF, 1969.
- Gardet louis, la cité musulmane, vie sociale et politique, Paris, Vrin, 1961.
- Berque Jacques, L'interieur du Maghreb, XV - XIX Siècles, Paris, Gallimard, 1978.
- Marçais Géorges, L'Art musulman, Paris, PUF, 1981.

(6) Monford Louis, la Cité à travers l'histoire, Paris, Seuil, 1986.

إن إبراز الخطوط العريضة التي تشكل الإطار الطبيعي، والوقوف على أهم الأحداث التاريخية التي عرفتها هذه المدن، بل وجهت اطارها التاريخي إدراكهما يجعلنا تقف على أرضيه ونحن ندرك نقاط ضعفها وقوتها.

الغاية من هذا الفصل تكمن في أبراز ومحاولة شرح مختلف العلاقات التي نجمت عن تكامل هذين الإطارين الطبيعي والتاريخي.

الفصل الثاني: يتناول الوظائف الإقتصادية لحواضر بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، حيث يتم التركيز على الحرف والتجارة سواء الداخلية منها أو الخارجية: كما نتعرض إلى علاقة المدينة بالريف من الناحية الإقتصادية، إن البحث في هذه الأنشطة يدفعنا إلى التعرض للموارد التي كانت تعتمد عليها المدينة آنذاك ، كما تتطرق للحياة الحرفية من خلال تمركز الأنشطة وكيفية هيكلتها عبر الأحياء والوحدات ثم الورشات الحرفية وبعد هذا نتناول الحياة التجارية بمحاورها الداخلية والخارجية. وأخيراً نتعرض إلى العلاقة التكاملية التي كانت سائدة بين المدينة والريف.

الفصل الثالث: نتعرض من خلاله للتركيبة الإجتماعية لحواضر بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، من خلال هذا الفصل إذ نحاول إعطاء نظرة عامة عن الميزات والخطوط العريضة التي ميزت هذه التركيبة، ثم نشير إلى الطبقات والفئات الإجتماعية التي عرفتها حواضرنا آنذاك، كما نتناول نوعية العلاقات التي سادت مختلف الطبقات والفئات ويكون ذلك إعتماداً على تحليلنا لمختلف المهن والنشاطات التي كانت تمارسها مختلف الفئات الإجتماعية وهذا حتى لا تكون دراستنا لهذا الفصل دراسة ديموغرافية محضة، لأن الغاية من هذا الفصل هو ربط الجانب الإجتماعي بالجانب الإقتصادي، كما سنشير إلى الأقليات الأجنبية وذلك من خلال دورها في مختلف النشاطات الإقتصادية.

الفصل الرابع: نخصصه لدراسة النسيج العمراني لمختلف الحواضر المتناولة بالدراسة والحياة الثقافية لها خلال القران الثامن عشر، نحاول في هذا المجال تحليل النسيج العمراني محاولين ابراز كيف أن هذا التنظيم العمراني كان يعكس تشكيلة إجتماعية وإقتصادية معينة، كما نتعرض من خلال هذا الفصل إلى تنظيم المراكز والأحياء، ثم نتناول دور ووظيفة مختلف المؤسسات الحضرية التي عرفتها هذه الحواضر أنذاك، بعد هذا نتناول الحياةالثقافية التي عرفتها هذه المدن من خلال التعرض للمؤسسات الثقافية ودورها كما نربط هذا بما كان يوجد بالاحواز وهذا حتى نبرز دور الاشعاع الثقافي الذي كانت تقوم به هذه الحواضر، وبعد هذا نتناول كيفية تنظيم هذه المؤسسات وكيف كانت مداخيل الأحباس والأوقاف توظف لهذا الغرض.

الخاتمة:

نحاول من خلالها استخلاص الإستنتاجات العامة التي يسعى البحث لابرازها، ومنها كيف ساهمت هذه للعوامل من اقتصادية واجتماعية وثقافية في تعميق ملامح وسيمات هذا النسيج العمراني المتناول بالدراسة وكيف ساهم هذا الأخير في إبراز العلاقات الإجتماعية التي اتصفت بها التركيبة الإجتماعية التي عرفتها المدينة أنذاك، يسعى البحث إلي جعل العلاقة الموجودة بين النسيج العمراني والتشكلية الإجتماعية واضحة إضافة إلى إبراز النشاطات التي كانت تمارسها هذه التشكلية الإجتماعية سواء كانت إقتصادية أو ثقافية وأخيراً أهم عامل نحاول التركيز عليه والسعي إليه هو: العلاقات التي سادت بين مختلف الطبقات والفئات التي شكلت هذه التشكيلة الإجتماعية التي عرفتها المدينة أنذاك، حيث أن ابراز العلاقات التي سادت يجعلنا نتعرض ونحدّد بالتدقيق مختلف المجالات التي كانت تتدخل، بل تعتبر هامة في تحديد هذه العلاقات.

ولجعل من الخاتمة مجالاً لتقييم الإستنتاجات المختلفة، كما نحاول أنّ نبلور الأفكار المطروحة من خلال المحاور المختلفة وذلك سعيا للخروج بفرضيات عامة وآخرى ثانوية تدور حول الموضوع المتناول بالدراسة.

إنّ ما نتوصل اليه من إستنتاجات أكيد أنه سيفتح لنا آفاقا جديدة تبحث عن التعمق والبحث من أجل توسيع ومواصلة الدراسة. فكل ما هو استنتاجات يكون مقدمات لإنطلاقات جديدة.

I المصطلحات المستخدمة باللغة العربية

-ج- جزء

-ص- صفحة

-ط-طبعة

-م- متر

-ش، و، ن، ت- الشركة الوطنية للنشر والتوزيع

A.A.G: Annales Algériennes de Géographie.

A.A.N: Annuaire de l'Afrique du Nord

A.E.S.C: Annales économies sociétés et civilisations.

A.I.E.O: Annales de l'Institut d'Etudes Orientales.

A.M.G: Archives du Ministère de la Guerre.

A.W.O: Archives de la Wilaya d'Oran.

B.E.O: Bulletin d'Etudes Orientales.

B.N: Bibliothèque Nationale.

B.S.G.A.A: Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Alger.

B.S.G.A.O: Bulletin de la Société de Géographie et d'Archéologie d'Oran.

C.E.R.M: Centre d'Etudes et de Recherches Marxisie.

C.M.M.C:Centre de la Méditéranée Moderne et Contemporaire.

C.R.E.S.M: Centre de Recherche et d'Etudes sur les Sociétés Méditéranéennes.

C.T: Cahiers de Tunisie.

ED: Edition.

Fasc: Fascicule.

I.F.D: Institut Français de Damas.

I.H: Information Historique.

Imp: Imprimerie.

J.A: Journal Asiatique.

R.A: Revue Africaine.

R.A.S.J.E.P: Revue Algérienne des Sciences Juridiques Economiques Politiques.

R.H: Revue Historique.

R.M: Revue de la Méditérance.

R.O.M.M: Revue de L'Occident Musulman et de la Méditérranée.

R.T: Revue Tunisienne.

Soc- H: Société Historique.

T: Tome.

T.I.R.S: Traveaux de l'Institut de Recherches Sahariennes.

Trad: Tradution.

Vol: Volume.

مدخل

لمحة عامة عن بايليك الغرب

خلال القرن الثامن عشر

في هذا المدخل نتعرض للتعريف ببايلك الغرب، ونلقي نظرة على كيفية تنظيم وتسيير شؤونه الداخلية وذلك للتعريف بوضعه السياسي، ثم نتناول علاقته بالسلطة المركزية، سوف نتناول الوضع السياسي لبايلك الغرب متناولين ذلك عن طريق التعرض إلى أهم بايات القرن الثامن عشر، مع التركيز على أهم الفترات، وفي الأخير نتعرض إلى القبائل وتوزيعها عبر بايلك الغرب ونختم هذا المدخل بالتعرض إلى الأطماع الأجنبية التي تكالبت على المنطقة.

1 رقعة بايلك الغرب:

إن ما يسمى بايلك الغرب هو ما يعادل بالتقريب القطاع الوهراني حاليا.[1] كانت رقعة بايلك الغرب تمتد ما بين الحدود التالية: المملكة المغربية غربًا وبايلك التيطري ودار السلطان شرقًا والبحر الأبيض المتوسط شمالاً والصحراء جنوبًا [2]؛ وهناك من يعطي للمنطقة حدوداً أدق حيث يحدها وادي الشلف في الشرق ووادي الملوية في الغرب والبحر الأبيض المتوسط في الشمال و الصحراء في الجنوب [3].

يعود تاريخ ظهورالبايلك كتقسيم إداري وسياسي إلى النصف الأول من القرن 16 م، حيث تم تقسيم البلاد إلى أربعة 4 بيليكات تسهيلاً للحكم وقد حدث ذلك خلال حكم حسن باشا ابن خير الدين (1540 ـ 1552) هكذا سنة 1563 أصبحت مازونة عاصمة للبايلك وابن خديجة باي، لقد إختار أبن خديجة مازونه كعاصمة للبايلك نتيجة موقعها: تتوسط القبائل، مابين مستغانم وتنس، قريبة من الشلف.[4]

---

(1) Tinthoin Robert; L'Oranie Sa géographie, Son Histoire, ses Centres Vitaux, Oran, Fouqué, 1952 - P 35.

(2) Rinn Louis; "Le Royaume d'Alger" in "R.A" T.43, 1899, Voire Carte.

(3) Aramburu Don-Joseph De, Oran et L'ouest Algérien au 18 Siécle, Présentation et traduction de Korso et Epalza, Alger, B.N, 1978, P 9.

(4) Walsin Esterhazy; Domination Turque Dans L'ancienne Régence d'Alger, Paris, Gesselin, 1840, P 165.

لقد شكلت كل من المدن التالية عواصم وقواعد هامة ففي المرحلة الأولى أي قبل القرن الثامن عشر شكلت مازونه عاصمة البايلك وتلمسان قاعدته الهامة، ثم تغير الوضع السياسي في القرن الثامن عشر وأصبحت معسكر العاصمة سنة 1701، ثم وهران في الفتح الأول سنة 1708، ثم مستغانم سنة 1732 بعد ذلك عاد المقر إلى معسكر سنة 1737 وأخيراً انتقل إلى وهران بعد الفتح الثاني سنة 1792.[5]

إن عاصمة البايلك لم تكن مستقرة بمكان واحد فقد إنتقلت من مدينة إلى أخرى ففي البداية كانت مازونة مقرا وخلال تولي هذه الإيالة مصطفى بوشلاغم لجأ إلى الجمع بين إيالة مازونة في شرق المقاطعة وتلمسان بغربها؛ 1701 وأصبحت معسكر عاصمة البايلك، ثم انتقل لمحاصرة وهران وتمكن من تحريرها في عهد الداي محمد بكطاش لكن حكمه لها لم يستمر طويلا حيث استعادها الإسبان وهو ما جعله ينتقل إلى مستغانم متخذاً منها عاصمة لبايليك الغرب واستمر بها حتى وفاته.

ثم انتقل مقر الباي إلى مدينة معسكر ولعل أسباب إختيار هذه المدينة كعاصمة لمقاطعة الغرب يرجع بالدرجة الأولى إلى الأهمية الإستراتيجية لأنها تتحكم في المسالك التجارية وتحيط بها قبائل بني راشد التي تميزت بتقربها من الحكم التركي، بالإضافة إلى ذلك قربها من وهران مما يسمح لبايتها تضييق الحصار على وهران ومراقبة تحرك القوة الإسبانية بها.

وأخيرا انتقل المقر إلى وهران بعد الفتح الثاني سنة 1792 في عهد الباي محمد الكبير.

إذا بايلك الغرب هو يختلف عن كل من بايلك التيطري والشرق لعدم الإستقرار بالنسبة لعاصمته.

2 تنظيم البايليك:

لقد كان الباي صاحب السلطة السياسية الأولى على المنطقة وهو المسؤول الأول أمام الحكم المركزي، حيث أن هذا الأخير هو الذي كان يقوم بتعيين البايات وتنصيبهم وكانت سلطة البايات مطلقة ومهمتهم تتمثل في تسيير شؤون أقاليمهم و الإشراف على القوات العسكرية و عملية جمع الضرائب من الأرياف ويسهرون على الأمن ولهم الحق المطلق في إصدار العقوبات ضد الأهالي وحق مصادرتهم الممتلكات ويتولى البايات قيادة الجنود في المعارك.[6]

(5) الزياني، إبن يوسف، دليل الحيران وأنيس السهران، في اخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، ش، وط، ت، 1978، ص 190.

(6) Shaw Thomas-DR, Voyage dans la régence d'Alger, trad J-Mac Carty, Paris, Marlin, 1830, P. 103.

كان البايات مطالبين بالتوجه إلى الجزائر العاصمة مرّة كل ثلاث سنوات يسلموا عائدات بيالكهم وتقاريرعن أوضاع المناطق الخاضعة لهم وكان يتم في نفس الوقت تجديد تعينهم أو عزلهم نهائيا، وذلك وفقا لما كان يقدمونه من العائدات والرشاوي للداي وأعوانه

وعلى المستوى المحلى كانت المهام مقسمة بين ثلاثة حكام يقومون بجمع الضرائب والإشراف عليها وتعيين القياد وهؤلاء موظفون: أغا الدواير وأغا الزمالة وخليفة الشرق، ولقب بخليفة الشرق لأن سلطته كانت تمارس على المنطقة الموجودة شرق مازونة [7] وهي منطقة سهول شلف، أغني المناطق. وكان الأغوات يشرفون على باقي المناطق بمساعدة أكبر القبائل؛ وهي قبائل الدوايروالزمالة [8] والتي كانت تشكل مايسمى بالمخزن، حيث لعبت هذه المؤسسة القوية دوراً هاماً في تدعيم وتركيز أسس هذا الوجود، أي الوجودالتركى [9].

إضافة إلى ماسبق ذكره لقد كان للباي عدد من المساعدين الذين يقومون على مستوي محلى بمهام مشابهة لتلك التي يقوم بها أعوان الداي في العاصمة، كما لهم ألقاب ووظائف جد قريبة من بعهم البعض. من بين هؤلاء المساعدين نذكر الخليفة، هذا الأخير يقوم باختياره الباي ويعينه الداي [10] وللخليفة مهام كبيرة إذ غالبا ما يقوم بأعمال نيابة عن الباي عند الضرورة.

الخزندار وهو المسؤول على كل الخدمات المالية، كما كان للباي كأتبان، كاتب السر ويقال له باشى دفتر وآخر يكتب الرسائل ويسجلها كما كان للباي مسؤولان عسكريان وأربعة شواش وكان لكل مجلس عدد من العمال يساعدونه على تادية وظيفته.

ونشير إلى أنّ منصب الأغا كان يمنح للعرب ويشترى هذا المنصب بمبالغ باهظة ، كان الأغا يقوم بتلقي دعاوى العرب ثم يعرضها على الباي وللأغا إمتياز عظيم في ذلك، حيث لابد للباي من مشاورته.

ومن بين الوظائف والمهام الأساسية، نذكر على مستوى المدينة الحاكم، وعلى مستوى الأوطان والأرياف القائد، أما القبائل والعروش فقد كان يرأسها الشيوخ.

---

(7) Rinn Louis; op-cit, P 139.

(8) قبائل الدواير والزمالة هي ما يسمى آنذاك بالقبائل المخزنية وهي قبائل ذات إمتيازات، كما تقوم بمهام عسكرية مقابل ذلك فهي معفات من الضرائب خاصة الخراج وتملك قطاعات أرضية هامة.

(9) Walsin Esterhazy, Notice historique sur le Makhzen d'Oran, Oran, Perrier, 1849, P 9.

(10) Bontems Claude ; Manuel des institutions Algérienne de la domination Turque à l'independance tome I Paris, Cujas, 1976, P 59.

الحكام يمارسون في الأوساط الحضرية السلطة السياسية والإدارية، وبما أنّ المدن تشكل المراكز الهامة، فلقد كان يولى لإختيار الحاكم كل العناية، والدقة، من المهام التي كان يقوم بها: مراقبة المداخيل الضريبية الحضرية، الإشراف على شرطة المدن، ضمان النظام الإقتصادي والإداري.(11)

كما عرفت المدن بالإضافة إلى الحاكم موظفين لهم أهمية في إدارة شؤون المدينة ومنهم: قائد السوق أو ما كان يلقب بالمحتسيب بالمدن العربية المشرقية ومهمته مراقبة السوق، قائد الدار يتولى رئاسة أمناء المهن وهناك مقدم الطائفه اليهودية، كما عرفت المدينة كذلك قائد الباب وهو مكلف باستخلاص الرسوم الجمركية، أما قائد القصبة (المزوار) فهو يسهر على أمن المدينة خاصة أثناء الليل وتطبيق الأحكام الصادرة في حق المجرمين؛ قائد الزبل، مسؤول على نظافة الطرق والأسواق البراح يملن في الأسواق.عن أو امر الباي أو قائد الدار، إضافة إلى شيخ أي رئيس العبادة وهو الذي يشرف على أحباسى الحرمين إضافة إلى ذلك عرفت المدينة المسؤول على توزيع المياه، كما عرفت القضاة والعدول.(12)

أما على مستوى الأوطان، فلقد كان الباي هو الذي يعين القائد، وبصفة عامة يختار القائد من بين الأتراك أو الكراغلة، والمهام المكلف بها منها: الشؤون المالية، جمع الضرائب، يقوم القائد بنفس المهام التي يقوم بها الحاكم، فهو المسؤول على تنفيذ الحكم المركزي على مستوى الأوطان أو الأرياف، مسؤول على استقرار النظام، ومن مساعديه الشرطة والقاضي هؤلاء المسؤولون لهم مساعدون، كالخليفة والكاتب والعادل.(13)

3 العلاقة بالسلطة المركزية:

علاقة البايلك بالحكم المركزي: إن العلاقة الموجودة بين السلطة المركزية والباي تتجلي في مساعدة هذا الأخير بالجيوش أثناء الحاجة وتقديم المساعدات المادية أثناء الكوارث الطبيعية أما الباي فلقد كان يقدم للسلطة المركزية ضرائب وهدايا كانت تشكل عوائد بايلك الغرب. وتمثلت هذه العوائد في ما كان يسمى بالدنوش الأصغر والذي كان يتمثل في ضرائب وهدايا تمنح لداى كل ستة أشهر، أي في الربيع والخريف، ويقوم خليفة الباي بإيصال الدنوش الصغير إلى العاصمة.(14)

---

(11) Bontems Claude, op- cit, P 58.

(12) Boutin Chef de bataillon. Reconnaissance des Villes Forts et batteries d'Alger, Paris, Champion, 1927, P 72-73.

(13) Tourneau Roger Le, op- cit, P 34.

(14) Lapène (E); Tableau historique de L'Algérie depuis L'occupation Romaine jusqu à la Conquéte par les français en 1830,, Metz, Lamort, 1845, P 39.

أما الدنوش الكبير فلقد كان يقدم في كل ثلاث سنوات ويشمل الضرائب والهدايا؛ وبصفة أدق كان الدنوش الصغير والكبير يتألف من مايلي:

الدنوش الصغير يتشكل من اللزمة وهي عبارة عن ضريبة مالية إضافة إلى مقدار معين من الحياك والبرانيس البيضاء والزبدة وأحسن الأحصنة وأخرى عادية بالإضافة إلى العبيد[15].

أما الدنوش الكبير فلقد كان لابد للباي في كل ثلاث سنوات من دخوله الجزائر، إن لم يلحقه عذر من مرض وإلاّ بعث خليفته الأول عوضا عنه، حيث يقيم الخليفة بإيصال الدنوش الأكبر، وغالبا ما كان أشهر البايات تبعث بالخليفة، كالباي بوشلاغم مثلاً حيث كان خليفته محي الدين المسراتي هو المكلف بايصال الدنوش الأكبر [16] وربما السرفي ذلك يرجع إلى الخوف عن حياتهم أو ناتج عن الكبرياء والعظمة.

كانت عملية تسليم الدنوش الكبير تتم وفق المراسيم التالية: كان الباي يقوم بتسليم مال الدولة إلى الخزناجي، واعطاؤه العوائد يكون مصحوبا بمهرجان عظيم، حيث أنه عند اقترابه من البلاد ينزل في محل منسوب له يسمى حوش الباي، ومن هنا يتقدم إلى الجزائر فيصل قبل الفجر لمحل يسمى عين الربط وهناك يبقى إلى غاية الفجر وافتتاح الأبواب، ولهذا الحدث تخرج الخزناجية والأغوات والخواجه والديوان لملاقاته وتصحبهم نوبة الباشا تؤدي في إيقاعات و كأنما تعلن عن الحدث الهام .

عند إلتقاء الموكبين، وبعد تأدية مراسيم الإستقبال، يتوجه الموكب قاصداً الداي وأثناء الطريق يقوم الباي برمي النقود لمستقبليه الواقفين يمينا وشمالاً، ولما يصل إلى مقر الداي يؤدي له فروض الطاعة ويجلس معه ثم يتوجه إلى المحل المعد من طرف الدولة لنزول البايات، فينزل فيه ويباشر العمل وكيله المقيم بالجزائر وهو الملقب بوكيل الباي.[17]

وكان الدنوش الكبير لبايلك الغرب بعد استرجاع وهران أي في عهد الباي محمد الكبير يتم بطريقة جديرة بأن نشير إليها وذلك لعظمة هذا الحدث ولكونه يعكس ثراء بايلك الغرب و قوة وعظمة هذا الباي ويعكس لنا الإزدهار الإقتصادي الذي عرفه البايلك أنذاك.

---

(15) Lapène (E). op cit, p 39.

(16) Walsin Esterhazy: de la domination Turque. P 173.

(17) الزياني، المصدر السابق، ص 190

فخرج الباي من مقره معسكر ومعه جيش كبير من اتباعه وكبار النجوع وأغوات راكبين الخيل ذات السروج الذهبية وثيابهم فاخرة وكان الباي يوزع الهدايا فكانت الهدايا الخيل والعبيد، فمن كان يستحق اللباس يعطيهم البرانيس الزغداني والحياك الحمر المنسوجة بتلمسان أمّا من كان قريبا من المخزن فكان يعطيه الخيل والعبيد والكسوة.[18]

وكان الدنوش يتألف من 20 ألف دورو ومن المصوغ مقدار نصف ذلك وأربعة من الخيل العناق، ونحو 20 عبداً كباراً و 20 عبداً صغار من عبيد السودان، وحياك القرمز صنعة تلمسان وحياك الحرير صنعة فاس ونحو عشرين قنطاراً من الشمع ومثله من العسل ومثله من السمن والبلاغى.[19]

ولما كان الخليفة هو الذي يصحب الدنوش، فالخليفة يدفع نصف مايدفعه الباي في كل شيء المصوغ فلا يهديه الخلفاء، أما مقابلتهم للباشا وضيافتهم فتتم مثل ضيافة الباي في كل شيء.[20]

لقد كان مبلغ مجموع مايدفعه باي الغرب يقدر ب 27.300 دورو، علما أن الدورو وزنه كان 20 غرام من الفضة.[21]

4 الوضع السياسي: (أهم البايات)

بعد التعرض لعلاقة البايلك بالحكم المركزي، نحاول أن نلقي نظرة على السياسة الداخلية لبايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر، وسوف نتعرض لهذا الحدث من خلال تعرضنا لأهم بايات القرن الثامن عشرا مركزين على أهم الأحداث والإنجازات التي عرفها البايلك كما نتعرض إلى علاقة البايلك بالرعية والفئات المحلية عامة.

بعد وفاة الباي شعبان أثناء محاصرته لمدينة وهران سنة 1696 حل محله الباي يوسف المسراتي مصطفي الملقب ببوشلاغم، لقد تربى الباي بوشلاغم في قصر الداي بكطاش خوجة داي الإيالة في تلك الفترة، كان الداي بكطاش يكن محبة كبيرة لبوشلاغم لذا إختاره أن يكون بايًا لبايلك الغرب.

---

(18) الزهار أحمد الشريف، مذكرات نقيب أشراف الجزائر (1754-1830)، تحقيق احمد توفيق المدنى، الجزائر، (ش.و.ن.ت) 1974، ص 36.

(19) نفسه، ص40.

(20) نفسه، ص46.

(21) نفسه ص 58

جاء الباي بوشلاغم إلى الحكم وهو كله حزم وعزم لإخضاع كل البايلك لسلطته والانتقام من الإسبان لقتل الباي السابق عرف بايلك الغرب عهداً جديداً مع مجيىء الباي بوشلاغم سنة 1700 حيت قام سنة 1701 بنقل مقر البايلك من مازونة إلى معسكر وذلك لعدة أسباب، منها كون بوشلاغم يبحث عن مقر يتوسط البايلك، حتى لاتبقي قبائل الجنوب تعيش في تمرّد وعصيان دائم ورفض مستمر لدفع الضرائب كما قام بعدة حملات ضد هذه الأخيرة فيما بعد من أجل إخضاعها.(22)

كما يعتبر بوشلاغم أول من تولى بايًا على مازونه وتلمسان، فهو أول من جمعت له الإياله الغربية، فنقل كرسي الخلافة من مازونه إلى معسكر، وجعلها قاعدته وذلك لكونها وسط بين مازونه وتلمسان (23) إضافة لكون مدينة معسكر ذات أهمية إستراتيجية نتيجة تحكمها في المسالك التجارية، كما تحيط بها قبائل بني راشد التى تميزت بتقربها من الحكم التركي كما أن إختياره لمدينة معسكر يعود لكونها تقع قريبة من مدينة وهران، فهذا الإختيار يعود لتخطيط الباي لفتح مدينة وهران.

لقد قام الباي بوشلاغم بعدةّ أعمال هامه، منها أنه سنة 1707 رابط قرب مدينة وهران التي كانت تحت السيطرة الإسبانية وكانت قبائل بني عامر المتمركزة حول مدينة وهران حليفه الإسبان، لم تكن بني عامر القبيلة الوحيدة التي تحالفت مع الإسبان بل هناك قبائل أخرى حاربت إلى جانب الإسبان (24) لكن أمام قوات الباي عرفت بني عامر تقهقراً وهكذا تقربت هذه القبائل من الباي وطلبت منه الأمان. وفي سنة 1708 استرجع الباي مدينة وهران باسم داي الجزائر إن الفتح الأول لمدينة وهران تمّ في عهد الباي بوشلاغم؛ هكذا بعد فتح المدينة إستقرت قبائل بنى عامر بجبال تاسالة ومنحت أراضيها المحيطة بمدينة وهران كمكافأة لقبائل الدواير وقبائل عبيد المغربية على الجهود المبذولة في هذا الفتح بعد إسترجاع مدينة وهران أصبح بوشلاغم بايًا لبايلك الغرب ونقل مقره من معسكر إلى وهران.

---

(22) Kehl Camile; "Oran et l'Oranie avant l'occupation Française, in "B.S.GAO" T. 63 Oran, Fouque, 1942, P 37.

(23) الزياني ، المصدر السابق ص 192.

(24) من بين العرب الذين حاربوا إلى جانب الإسبان هناك قبيلة من زناتة فرع من مغراوة وهي قبيلة كريشتل والتي كانت تحترف الزراعة والتجارة عن:

Mecherfi Abdelkader, L'Agrement du lecteur, Notice historique sur les arabes soumis aux espagnols pendant leur occupation d'Oran; had de Marcel Bodin; in "B.S.G.A.O", T.55 1934, P 34.

يعتبر عهد الباي بوشلاغم أول فترة تاريخية يعرف فيها بايلك الغرب تحرره التام لجميع أراضيه، وذلك منذ مطلع القرن السادس عشر تاريخ احتلال وهران من طرف الإسبان هكذا تولي الباي سيادة البايلك باكمله في هذه المرحلة (1708 ـ 1732) عرفت مدينة وهران انتعاشا ديمقرغرافيا، كما عرفت التجارة قدوم تجار أجانب واقامة قنصل فرنسي، وشهدت المدينة إستيراد كمية هامة من الأسلحة الفرنسية و الإنجليزية.(25)

استمرت سلطته على البايلك الى غاية 1732، حيث أن المدة الممتدة من 1708 إلى غاية 1732 قام الباي بوشلاغم بإنجازات هامة، ومن بين هذه الإنجازات نذكر الأعمال العمرانية الهامة التى انتفعت بها أهم مدن بايلك الغرب؛ إضافة الى ذلك تميز الباي بوشلاغم بمكانة ممتازة نتيجة الأعمال التى قام بها؛ وأهمها تحرير وهران والمرسى الكبير؛ ولهذا الشأن العظيم كان خليفته محي الدين المسراتي هو الذي يقوم بايصال الدنوش إلى العاصمة، ومن بين أعمال الباي بوشلاغم العمرانية العديدة نذكر منها على سبيل المثال: برج الترك الموجود بمدينة مستغانم(26) إضافة إلى منشآت حضرية خاصة بمدينة مستغانم، كانت جلها أوقاف ذات مداخيل هامة منها المحلات التجارية والحمامات.(27)

استمر حكم بوشلاغم على البايلك بكامله إلى غاية 1732، حيث قام الإسبان بهجوم على المنطقة، ونزلوا بمنطقة كاب فلكون، ونتيجة لهذه الهجمة فرّ الباي إلى مستغانم و أصبحت مدينة وهران ثانية تحت السيطرة الإسبانية.

ومدينة مستغانم مقر البايليك، قبل وفاته قام الباي بوشلاغم بحملة ضد وهران بمساعدة 5000 جندي مبعوثين من الجزائر، كانت هذه أخر محاولة جدية موجهة ضد وهران إلي غاية سنة 1791.(28)

توفي الباي بوشلاغم سنة 1737 ودفن بمدينة مستغانم، بعد بوشلاغم جاء إبنه يوسف بن مصطفي بوشلاغم، فأعاد مقر البايلك إلى معسكر، لكن لم يتصف يوسف بقوة وفضائل أبيه لقد عرف عهده بعض الإضطرابات، حيث قام كراغلة وحضر مدينة تلمسان سنة 1738 بتمرد وطرد القائد المعين من قبل السلطة التركية.

---

(25) Kehl Camile; op- cit, P 43.

(26) الزياني نفس المصدر، ص 194.

(27) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبة 217-245، رقم السجل 328، الرقم القديم 233.

(28) Gazenave Jean;" Histoire d'oran, Par le marquis de Tabalosos" in" B.S.G.A.O" Oran, Fouqué, 1931, P 135.

لقد مكث يوسف بن مصطفي بوشلاغم في الحكم سنة واحدة و مات بالوباء بتلمسان، وأثناء عهده استمر محي الدين المسراتي خليفة مصطفي بوشلاغم خليفة في زمن يوسف بن مصطفي بوشلاغم، وكان له دور هام في إدارة شؤون البايلك أمام ضعف يوسف، ولما اطلع يوسف بن مصطفي بوشلاغم على ما كان يحاك ضده فر إلى تلمسان وتوفي هناك.[29]

هكذ عمل محي الدين المسبراتي على تعيين إبنه مصطفي الأحمر المسراتي [30] مكان يوسف بن مصطفي بوشلاغم بايًا على بايلك الغرب، واستمر مصطفي الأحمر في الحكم مدة عشر سنوات. أي إلى غاية 1748 حيث قتل من طرف عائلة زوجته، علمًا أن جلّ بايات الغرب الذين تربعوا على عرش البايلك بعد يوسف بن مصطفي بوشلاغم كانت تربطهم علاقات القربي بالباي بوشلاغم عن طريق بناته، وحفيداته، لقد دفن مصطفي الأحمر المسراتي بمدينة مستغانم بقبة بوّشلاغم، حيث كانت لهم أحباس هامه تتمثل في منازل وحدائق وحوانيت يشرف عليها إمام يدير شؤونها لصالح الحرمين الشريفين.[31]

جاء بعد مصطفي الأحمر المسراتي القائد الملقب بقائد الذهب المسراتي، ولقب بذلك لكثرة سخائه وعطائه للناس، كما يقال له باي المحال [32]، أي كان قائد على المحال لكن بعد تحالف عصمان حاكم تلمسان آنذاك مع المحال ضد القائد، وأعلن العصيان، فر إلى وهران واستقر هناك إلى أن لحقه المحال ينجعهم فراراً من عصمان، ولما حصل بينه وبينهم صلح رجعوا لمواطنهم بين مينه وشلف وأتو معهم بالقائد وولوه عليهم، كما خرجوا عن حكم عصمان ووافقهم على ذلك الداي بالجزائر، لكن بعد ذلك فر القائد إلى تونس ومكث بها إلى أن مات،

جاء بعده الباي إبراهيم محمد المجاجي، وبقي في الحكم تسعة أعوام إلى أن قتل، بعده جاء الحاج عثمان، الملقب بعصمان، حيث كان عصمان سابقا حاكما على تلمسان وقام عليه أهلها مع الباي يوسف المسراتي، وتولي في المرّة الثانية الحكم على جميع بايلك الغرب و مكر بأهل تلمسان والمحال مكراً كبيراً.

---

(29) Walsin Esterhazy, op- cit, P 174.

(30) مصطفي الأحمر المسراتي كرغليا حكم البايلك من (1738 ـ 1748)

(31) Walsin Esterhazy; op- cit, P 176.

(32) المحال قبائل عربية، كانت متمركزة خاصة حول تنس، مازونه ومستغانم .

إستمر عصمان في الحكم مدةً تسعة عشر عامًا وهو الذي بنى الجامع الأعظم سنة توليه الحكم، كما بني القبة والدار التي تقع قرب الجامع الأعظم وتعرف لدى الناس بقبة الباي إبراهيم لكونه مدفونا فيها.[33]

لقد توفي عصمان بمعسكر، سنة 1771 ودفن بها وخلفه حسن باي أي سنة 1771 واستمر في الحكم مدةً ثلاثة سنوات، وأثناء تاديته لعملية إيصال الدنوش إلى العاصمة وأمام غضبه من الإستقبال الذي حظي به وخوفا من الإنتقام فر إلى تلمسان، ثم إلى وهران ثم إلى إسطنبول.

جاء بعده سنة 1774 إبراهيم الملياني، في هذه الفترة عرف البايلك مرحلة هدوء لأن عهد الإضطرابات وضع له حداً مند أن خمد صوت المحال، لقد عرف الباي إدارة هادئه.

وكان محمد بن عثمان خليفته، قد لعب دوراً هامًا سنة 1775 في محاربة الإسبان.[34]

إتصف إبراهيم الملياني بحبه للعلم والفقهاء حيث رتب العلماء حسب رتبهم العلمية، وكان يكثر من مجالستهم والمذاكرة معهم، أما من آثاره المعمارية فلقد بني برج العسكر بمعسكر، وإستمر في الحكم مدةً عشر سنوات، ومات بمعسكر سنة 1783 ودفن بالقبة التي بناها الحاج عصمان لشيخ عبد القادر قرب الجامع الأعظم حل محله الحاج خليل التركي وإستمر محمد بن عثمان في ممارسة وظيفته كخليفة، علمًا أن بعد وفاة إبراهيم الملياني ترقب الجميع أن منصب الباي يعود بكل جدارة وإستحقاق إلى محمد بن عثمان، لكن إختيار الداي وقع على حاج خليل قام هذا الأخير بحملة ضدّ الإسبان، وعرفت ايامه مدينة تلمسان تمرد القائد الدرقاوي سيدي محمد بن علي وتنقل الباي إلى عين المكان من أجل وضع حد لهذا التمرد، أثناء تأديته لهذه المهمة توفي هناك [35] ودفن بقبه سيدي، محمد السنوسي سنة 1784، لم يكن حاج خليل يحب الأولياء، ولاغيرهم .[36]

بعد حاج خليل عين خليفته محمد بن عثمان، الذي لقب فيما بعد بالكبير بايًا لبايلك الغرب، وذلك بعد تعيينه من طرف داي العاصمة [37] سنة 1784.

---

(33) الزياني نفس المصدر ص 194.

(34) Gorguos (A) "notice sur le bey d'Oran", in "R.A", .T I 1856, P - 407.

(35) Mercier Ernest, Histoire de L'Afrique Septentrionale, 3T, Paris, Leroux, 1891,T.3, P 411.

(36) الزياني، نفس المصدر، ص 197.

(37) الباي محمد بن عثمان حكم الإيالة من (1766 ـ 1791)

رغم الصعوبات التي واجهت عهد محمد الكبير المتمثلة في المجاعات والأمراض، خاصة الطاعون سنة 1786 والكوارث الطبيعية بصفة عامة إلا أنه بذل جهوداً خلدت إسمه، بصفة عامة إتصف الباي بصفات القوة والشجاعة، قبل أن نتعرض لإنجازاته نعرّف به قليلاً.

هو محمد بن عثمان بن إبراهيم الكردي، الملقب بمحمد الكبير، بدأ قائداً على فليته [38] سنة 1765 ، ثم خليفة للباي سنة 1768 وفي سنة 1784 إرتقى بايًا بمعسكر.[39]

أثناء قيادته لقبائل فليته كشف محمد بن عثمان عن قدرة نادرة في قيادة الأمور وهكذا قام الباي إبراهيم المليانى نتيجة إدراكه لقدرات محمد الكبير فعينه خليفة له سنة 1768، حيث أشركه في كل مهامه، بل سلم له إدارة كل المنطقة الشرقية للبايلك، هذه الممارسات والمهام منحته تجربة كبيرة في تسيير قيادة إدارة البايلك.[40]

لقد شاع اسم محمد بن عثمان وهو لازال خليفة، وذلك أثناء مشاركته كقائد لقوات البايلك التي شاركت إلى جانب القوات الأخري سنة 1775 عندما هاجم الإسبان بقيادة أوريلي (Oreilly) العاصمة وسميت هذه الحادثة بيوم الحراش، وكان النجاح يرجع إلى الدور الذي قام به محمد بن عثمان لقد شهد الإسبان من خلال هذه المغامرة إنهزامًا كبيراً.

نتيجة لهذا الدور والنجاح الذي حققه محمد بن عثمان، كان الجميع يترقب بعد وفاة الباي إبراهيم المليانى أن يعين محمد بن عثمان بايًا لبايلك الغرب، لكن غالبا ماكانت هذه المناصب تمنح مقابل مبالغ مالية ولهذا عين حاج خليل .[41]

لقد قام الباي محمد الكبير بأعمال هامة مجدت إسمه ويأتي على رأسي أعماله استرجاع مدينة وهران وتحريرها، حيث قام منذ سنة 1791 بمحاصرتها وانتهي الوضع بفتحها سنة 1792، كما كان أول إتفاق حول السلام بين المملكة الإسبانية والإيالة يوم 29 أوت 1786.[42]

---

(38) فليته قبائل عربية تنقسم إلى أربعة فروع، كانت متمركزة حول مدينة زمورة، فليته بطن من بطون سويد. انظر، أبوراس الناصرى، عجايب الأسعار والطائف الأخبار، ورقة رقم 23 مخطوط بالمكتبة الوطنية.

(39) بلحميسي مولاي؛ الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني ، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1979، ص 151.

(40) Gorguos (A); op- cit, P 406.

(41) Ibid, P 407 - 408-

(42) Aguila Luis Cara- del; Les Espagnols en Afrique, Thése de 3 cycle, Bordeaux, université de Bordeaux III , 1974, P 32.

إضافة إلى ما سبق فهناك الأعمال العمرانية والمشاريع الإقتصادية، وبصفة عامة إن انجازات محمد الكبير عديدة وهامة جداً في تاريخ البايلك والايالة بصفة عامة [46]، ومثل عهد محمد الكبير ذروة لإزدهار وتقدم بايلك الغرب في العهد العثماني، والقرن الثامن عشر خاصة.أثناء تأديته لعملية ايصال الدنوش، وهو عائد من العاصمة مات محمد الكبير سنة 1799[47] وترك وراءه أخاه المعروف ببوكابوس وابنان محمد مقلش وعثمان الذي كان يشغل منصب خليفة للباي أثناء حكم أبيه، بعد وفاة محمد الكبير عين إبنه الصغير عثمان أي خليفته بايًا محلَّ أبيه.

لقد اتصف القرن الثامن عشر ببعض الميزات، منها على المستوى الإقتصادي عرف نوعًا من الإستقرار والإعتماد على الموارد الداخلية عكس القرون السابقة. هذا الإنتعاش الإقتصادي الذي عرفته البلاد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر خاصة 1748 إلى 1798 كان سببا في استقرار نظام الحكم، فلم تعرف البلاد إلاّ أربعة دايات[48] وعلى مستوي البايلك، أي بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر تميّز بأحداث تاريخية هامة يكفي أن نشير إلى فتح وهران الأول والثاني إضافة إلى الحركة الإقتصادية والعمرانية والثقافية التي عرفها البايلك خاصة في عهد الباي محمد الكبير.

كما سيطر على الحكم طيلة القرن الثامن عشر مع فترات انقطاع قصيرة عائلتان :عائلة بوشلاغم حيث مكثت هذه الأخيرة في الحكم من 1696 إلى 1760 مع توقف من 1738 إلى 1748، وعائلة محمد بن عثمان الملقب بالكبير و التي حكمت من 1779 إلى غاية 1830 مع إنقطاع قصير من 1800 إلى 1805.[49]

نجعل من عهد الباي محمد الكبير، ومن تاريخ وفاته نقطة نهاية للفترة التاريخية المخصصة بالبحث وهي تصادف بالتقريب نهاية القرن الثامن عشر، علما أن الباي محمد الكبير توفي سنة 1799م.

---

(46) سنتعرض لها في الفصول الأخرى بصفة أكثر تفصيلا وذلك من خلال تعرضنا للجوانب الإقتصادية والعمرانية والثقافية.

(47) Lapène (E): op- cit, P 6.

(48) سعيدوني نصر الدين، النظام المالي الجزائري، في أو خر العهد العثماني، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1985، ص241.

(49) Boyer Pierre; "Introduction à une histoire intérieure de la Régence d'Alger", in "R.H", n 2 Avril Juin 1966, Paris, PUF 1966, P 214.

إننا ننهي الفترة المخصصة للبحث بمرحلة تاريخية مثلت أوج إزدهار ونمو بايلك الغرب في جميع المجالات: الإقتصادي والعمراني والثقافي والسياسي. كما أن هذا الإزدهار لم يكن على مستوى بايلك الغرب فقط بل الميزة ميزت الإيالة عامة.

من خلال هذا التسلسل التاريخي للأحداث و البايات مركزين على أهم الفترات والأحداث نكون قد أفرزنا أهم المراحل التي عاشها البايلك خلال هذا القرن وذلك عن طريق إعطاء أهمية للفترات المؤثرة من خلال التركيز عليها.

بعد هذا التسلسل الزمني للأحداث وربطه بإطاره الخاص أي البايلك و العام الإيالة نتناول أهم قبائل البايلك وبعد ذلك الطرق الدينية وفي الأخير الأطماع الأجنبية سواء الإسبانية أو المغربية وهذا حتى نلم بكل العوامل سواء القريبة أو البعيدة التي كان لها دور وتأثير في حياة البايلك خلال هذه الفترة.

5 أهم قبائل البايلك:

إن القبائل التي تقاسمت أوطان بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر كانت على النحو التالي:

أ القبائل المخزنية : والتي كان أهمها الأعراش التالية:

الدواير والزمالة والغرابة و البرجية والمكاحلية.[50]

لقدكانت قبائل المخزن تتربع على المناطق الآتية:

فهي: عبارة عن خطين متوازيين الأول بمحاذاة الجبال التلية من سبخة وهران إلى الهضبة الوسطى للشلف، والثاني من سعيدة إلى سبدو إلى غاية الحدود الصحراوية، هذا التوزيع كان يسمح لها بمراقبة قبائل الرعية وبجمع الضرائب.

كانت القبائل المخزنية تحتل مرتبة إجتماعية ممتازة ، حيث أن وضعيتها كحليف للبايلك تمنحها الأمان، ومهمتها المتمثلة في جمع الضرائب تمنحها نوعا من السلطة والجاه.

---

(50) الزياني، المصدر السابق، ص 228.

شكلت القبائل المخزنية جهازاً عسكريًا أخذ تدريجيا ميزات وصفات الجهاز السياسي.[51] على المستوي الداخلى للقبائل المخزنية، فإن التخفيف من الضرائب، منها الاعفاء من ضريبة الخراج كانت ميزة ينعم بها الجميع أي جميع أفراد القبيلة، أما الإمتيازات الأخرى فهي محصورة على مستوى قادة القبيلة مثل أغا الدواير وأغا الزمالة وتمثلت هذه الإمتيازات في توسيع ممتلكاتهم الفلاحية وإنتقالها إلى ممتلكات خاصة، كما منحت القبائل المخزنية نتيجة أدوارها الدفاعية أخصب الأراضي الموجودة بالقرب من الحواضر المدروسة، منها الأراضى الواسعة والخصبة الموجودة بالقرب من مازونة إضافة الى الأراضي الخصبة الموجودة بالقرب من مدينة وهران.[52]

لقد أصبح في مطلع القرن الثامن عشر عدد القبائل المخزنية يزيد عن 20 قبيلة [53]، وتأتي قبائل الزمالة والدواير على رأس المجموعة، حيث أنها كانت تمون البايلك بأحسن الفرسان من بين القبائل المخزنية .[54] لعبت القبائل المخزانية على مستوى بايلك الغرب دوراً هامًا نتيجة الظروف المميزة التي إتصف بها بايلك الغرب، منها وجود الإسبان في مدينة وهران والمرسي الكبير، والعمل على محاربة هذا الوجود، فهذا الوضع منح القبائل المخزنية الإمتيازت التى سبق أن أشرنا إليها، أي لاتدفع الخراج وتستغل مجالات فلاحية واسعة، كما كان البايلك يمنحها الاسلحة والخيل وبعض أدوات العمل، مقابل هذا تكون في خدمة البايلك بمجرد أن تتلقى أي أمر من الباي، في حالة عصيان ممكن أن تسحب منها هذه المكتسبات علما أن الأراضي التي كانت تستولي عليها هذه القبائل في منطقة بايلك الغرب هي من أهم وأحسن الأراضي، فكل المناطق الموجودة مابين واد مينه وشلف والسهول الموجودة ما بين البحر شمالا وجبال الأطلسي جنوبًا، وما بين وادي المالح غربًا إلى مينه وشلف شرقا [55] كانت بحوزة القبائل المخزنية حيث نجد إبتداء من 1750 قبائل الدواير النبيله و الأكثر قوة وتماسكا تتربع على أراضي تزيد عن 100.000 هكتار.[56]

إضافة إلى الأراضي التي كانت تابعة لها إما بصفة جماعية أو فردية كان لقادة القبائل المخزنية ممتلكات بالمدن تتمثل في منازل بصفة عامة وتوجد بأهم مدن بايلك الغرب مثل معسكر عاصمة البايلك آنذاك.[57]

---

(51) Walsin Esterhazy, Le Makhzen d'Oran, P 11.
(52) Ibid, P. 12.
(53) Emerit Marcel. l'Algérie à l'époque d'Abdel kader, Paris, Larose, 1951, P 13.
(54) Lapène (E) ; op- cit, P 43.
(55) Tinthoin Robert, Colonisation et évolution des genres de vie dans la région Ouest d'Oran, de 1850 à 1885, Oran, Fouqué, 1947, P 29.
(56) Ibid, P 32.
(57) Emerit Marcel, "Les tribus privilégieés en Algérie dans la première moitié du XIX siècle" in "Annales- E.S.C" N 1, janv Fev, 1966, P 49.

إضافة إلى ما سبق فإن أماكن تمركز القبائل المخزنية كانت هامة، بصفتها مواقع إستراتيجية، إضافة إلى أجود الأرضي، تتمركز على المحاور الكبرى للمواصلات، مثل الطريق السلطاني الذي يربط وهران بالعاصمة عن طريق هضاب شلف.(58)

لقد انفرد البايلك بميزات خاصة به تتمثل في الوجود الإسباني منذ مطلع القرن السادس عشر وهجومات سلاطين المغرب المتتاليه نتيجة الأطماع التوسعية (59)، هذه الوضعية المنفردة التي عاشها البايلك جعلت القبائل المخزنية تلعب دوراً هاماً وتحتل مكانة معتبرة.

إن الهجومات سواء المغربية أو الإسبانية جعلت قبائل الرعية تتمرد من حين إلى آخر على الباي وتلقي يد المساعدة من هذه العناصر الأجنبية نتيجة لهذا الوضع، فإن التنظيم كان عسكريا أكثر من باقي المناطق الأخرى.(60)

نتيجة لهذا الوضع، وإضافة إلى قبائل الدواير والزمالة تضاعف شأن الحشم القبيلة المخزنية التي كانت توجد في سهول وجبال معسكر، لما تحالفت قبائل بنو عامر مع الإسبان،(61) علما أن فيما بعد إنضمت قبائل بني عامر إلى المخزن وأصبحت كل من الحشم وبني عامر تشكلان القبيلتين الكبيرتين ضمن القبائل المخزنية لبايلك الغرب.يعتبر مخزن وهران من أبرز مخازن الإيالة الجزائرية، من حيث القوة العسكرية وشجاعة المنتمين إليه إن قوة قبائل مخزن وهران تكمن في استمرار الحروب وهو ما جعل دايات الجزائر يعتمدون عليها.

ب- قبائل الرعية:

أماكن تمركز قبائل الرعية، كانت موزعة عبر كل مناطق البايلك منها:

التليه و الساحلية و السهبية، لقد شكلت قبائل الرعية القبائل المضطهدة والتي تتحمل عبئ الضرائب الثقيلة والتي كانت تشكل المورد الرئيسي للدولة خلال القرن الثامن عشر، لأن أمام نقص وغياب مداخيل البحر توجهت الدولة إلى الداخل لتعويض هذه المداخيل، وكانت الضرائب هي المصدر الأول في الموارد المالية. وأمام هذا الإضطهاد والإستغلال كانت قبائل الرعية تتمرد، وغالبا ماتبنت الفرق الدينية مطالب القبائل المتمردة، علمًا أن بايلك الغرب عرف فرقا دينية وثورات دينية عديدة خاصة في نهاية القرن الثامن عشر ومطلع القرن التاسع عشر على الأخص.

(58) Memd Boudia (A), op cit, P 98.
(59) Bodin Marcel. Traditions indigènes. sur Mostaganem et Tidjeditt, Oran, B.S.G.A.O, 1925, P.9.
(60) Rinn Louis, op-cit, P 137.
(61) Mecherfi Abdelkader El, "L'Agnément du lecteur, notice historique sur les arabes soumis aux espagnols" Trad de Marcel Bodin , P 53.

6 الفرق الدينية:

ومن بين الفرق الدينية الأكثر إنتشاراً بمايلك الغرب نذكر منهاالطيبية، الدرقاويه، التيجانية والقادرية.

لقد كانت الطريقة الطيبية ذات الأصول المغربية أكثر انتشاراً في بايلك الغرب وخاصة بين قبائل الدواير والزمالة.(62)

أما القادرية ومؤسسها عبد القادرالجيلالي ذو الأصول المشرقية، كانت بصفة خاصة متمركزة في بايلك الغرب، وهي تدعي الانتماء العربي الأصل، فهي طريقة ذات أساس أرستقراطي ولهذا فرغم إنتشارها إلا أن عدد المنتمين إليها كان محدوداً.(63)

أما الطريقة التيجانية فكان مهدها مدينة عين ماضي الموجودة بجبال عمور والقريبة من مدينة الأغواط، لقد لعبت هذه المدينة دوراً هامًا نتيجة شهرتها عبر الصحراء وكل افريقيا الشمالية نتيجة احتضانها لهذه الطريقة الدينية. توسعت وانتشرت الطريقة التجانية بسرعة ابتداء من 1783 وأصبح سيدي أحمد التيجاني يشكل خطراً على الوجود التركي، ونشير هنا إلى الدور الذي قام به باي وهران، محمد الكبير آنذاك في اخضاع عين ماضى للسلطة المركزية و ذلك سنة 1784 ـ 1785 تاريخ خروجه إلى عين ماضى كما فرض عليها ضرائب البايلك، وعن هذه الرحلة لقد وصف لنا بنى هطال التلمساني الذي رافق الباي في رحلته في مؤلفة: «رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري» إلي الجنوب الصحراوي الجزائري؛(64) سنتان من بعد أي 1787 قام أبنه عصمان بالخروج إلى عين ماضي ثانية.(65)

شكلت الطريقة الدرقاوية، الطريقة الأكثر إنتشاراً وتوسعًا و نفوذاً، حيث كانت وراء ثورات عديدة.

إذا كانت الطريقة القادرية تأخذ الإتجاه الأرستقراطي فإن الدرقاوية نأخذ الإتجاه الشعبي حيث أن المنضمون إليها كانوا غالبا ينتمون إلى قبائل الرعية .(66)

إن هذه الطريقة ذات الأصول المغربية كانت تسعى للوقوف في وجه السلطة بل كانت تدفع للتمرد على السلطة الحاكمة وكانت منتشرة في بايلك الغرب والمنطقة الوسطى خاصة.

إن الطريقة الدرقارية إستغلت تمرد بعض القبائل على السلطة المركزية من أجل التحالف معها. وهكذا نلاحظ في نهاية القرن الثامن عشر قبيلة بني عامر تستقبل عدداً من العائلات الدينية، حيث وجدت هذه الأخيرة أرضية خصبة لدعوتها، كما وجدنا بني عامر في إنتسابها لطريقة الدرقاوية وسيلة للوقوف في وجه السلطة.(67)

---

(62) Bontens Claude, op-cit, P 78.

(63) Iden.

(64) بني هطال، أحمد التلمساني، رحلة محمد الكبير الى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، القاهرة عالم الكتب 1969.

(65) Rinn Louis, Marabouts et Khouan, Alger, Jourdan, 1884, P 420.

(66) Bontens Claude, op- cit, P 78.

(67) Boyer Pierre, "Historique des Beni Ameur d'Oranie des origines au senatus consulte", in "ROMM", n 24, 1977, P 53.

فرغم كونها طريقة دينية إلاّ أنها بدأت تأخذ وتتميز بالميزات السياسية ومنها العمل على التحريض من أجل التمرد[68] والعصيات لإضعاف الحكم.

هذه بصفة عامة لمحة عن وضعية القبائل المخزنية وقبائل الرعية ودور الطرق الدينية آنذاك، كما نجد في أقصى البايلك أي في المنطقة الصحراوية القبائل المستقلة و المتمثلة في قبيلة أولاد سيدي الشيخ ذات النفود الديني.

7 الأطماع الأجنبية:

أما الأطماع الأجنبية التي عرفها بايلك الغرب، فقد تمثلت في الرغبة التوسعية لسلاطين المغرب والوجود الاسباني المتمثل في إحتلال وهران والمرسى الكبير منذ مطلع القرن السادس عشر، حيث قام الكونت بيدرونافرو (Pedro Navaro) باسم الملك الكاتوليكي الإسباني لاخضاع المنطقة المذكورة [69] لقد حاول جلّ بايات بايلك الغرب اخراج العناصر الأجنبية وفرض السيطرة على البايلك ونشيرهنا إلى مثال بدلّ على هذه الرغبه ألا وهي أخراج العنصر الأجنبي، يتجسّد هذا المثال في موت الباي شعبان وهو يحاصر وهران سنة 1696 وأهم المحاولات التي إنتهت بالنجاح تمثلت في الفتح الأول لوهران والذي تم على يد الباي بوشلاغم في مطلع القرن الثامن عشر سنة 1708، هكذا غادر المنطقة القائد الإسباني يوم 21 جانفي 1708 من المرسي الكبير نحو إسبانيا[70] وأصبحت مدينة وهران عاصمة البايلك؛ إستمر الوضع إلى غاية سنة 1732 حيث عاد الوجود الإسباني إلى المنطقة، وذلك بعد الحملة التي قادها كونت المطمار (Le Conte de Montemar) والجيش الملكي الإسباني، واحتلت وهران ثانية يوم أول جويلية 1732 والمرسي الكبير يوم 2 جويلية 1732 [71]. واستمر الوضع إلي غاية سنة 1791 حيث عرفت المنطقة في عهد الباي محمد الكبير حدثاً هامًا في تاريخ البايلك والايالة بصفة عامة، ففي عهده تمّ الفتح الثاني والنهائي لمدينة وهران، لقد وضع حداً نهائيا للوجود الإسباني وأخضع المنطقة كاملة لسلطته تمّ ذلك بآتفاقية 12 سبتمبر 1791 [72]، حيث إنتهت المفاوضات بعقد اتفاق حول السلم وإقامة علاقات تجارية كما نص على ذلك العقد المتفق عليه سنة 1786 وأصبحت المدينة تحت سلطة محمد الكبير ابتداء من سنة 1792 وإنتهي الوجود الإسباني الذي دام 283 سنة والذي إقتصر على السيطرة على الساحل [73] حيث بدا تطبيق الاتفاق المبرم في سنة 1791 ابتداء من مطلع سنة 1792.

---

(68) Faure Biguet (G), Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination musulmane, T. IV, Paris, la Vauzelle, 1905, P 408.

(69) Haido Diego-De, "Topographic et histoire générale d'Alger" in "R.A", T XIV et XV (1870-1871), trad par Berbrugger, Alger, Jourdan, 1968, T. XIV, P 415.

(70) Primaudaie F. Elie De-La, Histoire de l'occupation espagnole en Afrique (1506-1574) Akger, Jourdan, 1875-P.318

(71) Gazenave Jean, op- cit, P 135.

(72) Kehl Camile, op- cit, P 46.

(73) Ministere de la guerre, Tableau de la situation des établissements Français dans l'Algérie, 1839, Paris, imp Royale, 1840, P 335.

هذه المحاولات والفتوحات المتكررة تشرح لنا رغبة بايات بايلك الغرب في إخراج العناصر الأجنبية، وفرض السيادة الكاملة على البايلك؛ لقد اتصف بايلك الغرب بميزة وطابع عسكري عن باقي البياليك الأخرى وذلك نتيجة الظروف الخاصة المتمثلة في الوجود الإسباني وفتح المجال للقبائل المضطهدة بالتمرد على الباي. (74)

إضافة إلى الأطماع الإسبانية عرف بايلك الغرب هجومات سلاطين المغرب المتتالية خاصة في القرن السابع عشر و مطلع الثامن عشر منها هجوم 1651 هجوم مولاي محمد على منطقة وجدة حيث وصل الى غاية مدينة ندرومة وأخضعها لسلطته، لكن رجع بعد ذلك إلى وجدة، وفي سنة 1679/1678 وهجوم ثانٍ قاده مولاي إسماعيل حيث وصل إلي غاية الشلف وأراد أن يجعل من وادي التافنة حدوداً له لكن لم يستطع ذلك. (75) كماكان يدّعي أنه سوف ينهي الوجود التركي بالجزائر ولهذا تمردت القبائل وتحالفت معه ومنها بنو عامر والحشم حيث شجعت نوايا السلطان (76)، في عهد الباي محمد الكبير أعاد رسم الحدود متخذا من وادي الملوية حدا طبيعيا وذلك إنطلاقا من أنه يعتبر أن هذه الحدود كانت معتمدة سابقا. (77)

نتيجة لهذا الجو السائد والذي تميزيه بايلك الغرب عن باقي الإيالة، حيث عرف بايلك الغرب تنافس الأطماع الأجنبية وخاصة الإستعمار الإسباني والذي دام بمنطقة وهران والمرسى الكبير مدّة طويلة من مطلع القرن السادس عشر إلى غاية نهاية القرن الثامن عشر إضافة إلى ذلك أطماع سلاطين المغرب التوسعية، هذا الوضع السائد بالبايلك جعل من نظام الحكم السائد مرتبطًا بالدفاع عن المنطقة ولهذا كان النظام عسكريًا أكثر منه سياسيا، تجلي ذلك في التحالف المستمر بين نظام الحكم السائد والقبائل المخزنية، حيث كانت القبائل المخزنية لها دور هام وفعّال نتيجة للجو السائد على مستوى البايلك.

وكثيرا ما لعبت هذه العوامل الخارجية، أي وجود الإستعمار الأجنبيّ بهده المنطقة ساهم هذا العامل في بلورة التحالف وتقويته ما بين مختلف القبائل وحتى تحالف القوات الدينية مع هذه الفئات الى جانب الحكم المركزي وذلك للتصدّي لهذا العدو الأجنبي خاصة الإسباني.

ومن الميزات التى اتصف بها بايلك الغرب، دور المرابطين والحركة الدينية عامة في حركة الجهاد وقد بدأ دورهم مند بداية الاحتلال الاسباني، حيث أنّ وجود عناصر أجنبية محتلة كثيراً ماساهم في بلورة وتقوية التحالف، وضعفه بعد زوال هذا العامل أي طرد الإسبان.

---

(74) Rinn Louis op- cit, P 127.
(75) Grand-Guillaume Gilbert, Nédroma, l'évolution d'une médina, Leyden, Brill, 1976, P 60.
(76) Lespinasse (E) "Notice sur les Hachems de Mascara", in "R.A", T. 21, 1877, P 145.
(77) A.M.G, H. 374, Voyage dans la province d'Oran par G Tatareau capitaine du Corps royal d'Etat major, ALger le 5 septembre 1835.

الفصل الأول

الإطار العام لحواضر بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر

I - الإطار الطبيعي

II - الإطار التاريخي

I الإطار الطبيعي:

إن تنوع التضاريس يعكسه هذا الجزء من بلاد المغرب، حيث نجد من البحر إلى الجنوب مجموعة متنوعة من: جبال، إنشقاقات، سهول وهضاب إضافة إلى بعض الأراضي القاحلة نتيجة وجود أملاح بكميات مرتفعة [1] خاصة تلك القريبة من المرسي الكبير، والتي كانت تمون كل البلاد[2] ويصدر منها إلى الخارج، كانت تخترق هذه المجموعات أودية وأنهار؛ وبصفة عامة يتألف بايلك الغرب من التضاريس التالية.

الأطلس التلي الغربي: يتميز بانقساماته ونسبة جفافه [3] هذا الانقسام ناتج عن تواجد سهول وأحواض تحيط بها السلاسل الجبلية والتي لاتتعدى 1900م:

مرتفعات وهران، الظهرة، وجبال مليانة والتي تشرف على البحر الأبيض المتوسط وتقف حاجزا تفصل البحر عن السهول المنخفضة: سهول سبخة وهران، المقطع، شلف هذه السهول المنخفضة يعزلها عن الأحواض الداخلية لكل من مغنية، بلعباس، معسكر عن طريق السلاسل الضيقة التي تمتد من جبال ترارة إلى غاية الونشريس [4]هذا الأخير يرتفع في الجنوب فوق الهضاب العليا لسارسو، في الجنوب الغربي هضاب متموجة مرتفعات فرندة، سعيدة وتلمسان تشرف في الشمال على الأحواض الداخلية وتنخفض تدريجيا نحو الهضاب العليا.

---

(1) Monsonégo Janine, l'Activité économique de Mostaganem, de 1830 à nos jours, Paris, Larose, 1950, P 10.

(2) Aramburu Don Joseph de, op-cit, P 44.

(3) Despois (J) et Reynal (R), Géographie de l'Afrique du Nord-Ouest, Payot, 1975, P 80.

(4) Iden.

نلاحظ أن المنطقة تتميز بتنوع في التضاريس والذي هو ناجم عن كون المنطقة قد تعرضت في الأزمنة الماضية لنشاطات أرضية عديدة، ولهذا نشاهد عبر كل المنطقة إنشقاقات وأخناق، وإن شواطئ مدينة مستغانم، وضواحي مدينة مازونه تفسر لنا ذلك.

القطاع الوهراني هو بالتقريب المنطقة التلية، ويتألف بصفة عامة من:مجال المزروعات وتشكله الفحوص والأحواز الخصبة ومجال الحياة الحضرية أي المدن، وهكذا نلاحظ في هذا القطاع سهولا خصبة وسهولاً منخفضة شبه ساحلية سهول شلف والهبرة والمقطع ومينة القريبة من الساحل ومرتفعات داخلية: مغنية، تلمسان و معسكر وتيارت،هذه المجالات المسطحة والمنكسرة أحيانًا تقابلها كتل جبلية نحتتها عملية التعرية عاملة على إظهار الهضاب والقمم الجيرية ناحته الكتل الطينية.[5]

إن سهول وهضاب القطاع الوهراني تمتد في شكلها المروحي نحو الغرب بين سلاسل قليلة الإرتفاع، أما المساحة الموجودة بين ساحل حوض البحر الأبيض المتوسط والهضاب تقدر بـ 2/3 مساحة القطاع الوهراني بصفة عامة الجبال تتوقف عند إرتفاع متوسط يقدر ب 600 م والنقاط العالية تصل إلى 1843 م جبال تلمسان و 1061 م جبال تاساله شمال سيدي بلعباس و 910 م جبل شارب الريح شمال معسكر.[6]

يتصف القطاع الوهراني بكونه منطقة سهلة الإختراق [7] رغم تنوع التضاريس، إلا أن هذا التنوع لا يجعل عملية التنقل صعبة ولا يقف حاجزاً أمام الحركة في مختلف إتجاهاتها بل رغم التنوع والحواجز الطبيعيةعرف القطاع الغربي عن باقي المناطق والمقاطعات كأرضية تنقل و إلتقاء لمختلف التيارات سواء على المستوى البشري أو المنتوجات وذلك منذ أقدم العصور وتبلور هذه التنقلات في التيارت الكبرى جنوب شمال، وشرق غرب؛ ويكفي أن نشيرهنا إلى علاقات تجسدت على أرضية القطاع الغربي ربطت بين نقاط بعيده عبر مناطق مختلفة، نذكر منها، علاقات ملف وألميريا على الساحل الإيبري وهنين والمرسى الكبير إضافة إلى رشغون والغزوات ومستغانم على ساحل القطاع الوهراني: إضافة إلى ربط كل من فاس والمغرب الأقصى عامة بالقطاعات الأخرى منها المشرق خاصة الاسكندرية، والحجاز؛ وعلاقات النيجر وطومبركتو بغرناطة.[8]

---

(5) Tinthoin Robert, Colonisation et évolution des genres de vie, P 11

(6) Ibid, P 9.

(7) Ibid, P 11.

(8) Ricard Pierre, "L'Artisanat indigène en Oranie", in"B.S.G.A.O", T. 61, Fasc 214, Mars-Juin, 1940, P102.

شكلت المنطقة المدروسة منذ القدم وعبر كل المراحل التاريخية منطقة عبور نشيطة الحركة.

أما عن موقع المدن المدروسة: موقع المدن المختارة للدراسة مهما إختلف وتنوع إلا أننا نلاحظ العديد من التشابهات، إضافة إلى توفر كل واحدة على عوامل أساسية جعلت الأدوار السياسية والإقتصادية والثقافية أدواراً أكثر فعالية وأهمية، وإذا أردنا أن نحلل موقع كل واحدةعلى حده نستطيع أن نستخرج ونلمس الأهمية الناجمة عن هذا العامل بالنسبة لكل مدينة.

تلمسان:

تقع مدينة تلمسان في أقصى البايلك وتوجد على مستوى يقدر بـ800 م فوق سطح البحر، على سفح مرتفعات جبلية، في جنوبها تكسوها غابات كثيفة من شجر الصنوبر وفي شمال المدينة يمتد سهل الحناية الشاسع والمتصل من ناحية الغرب بسهل مغنية.

في الشمال الغربي لمدينة تلمسان يوجد مرتفع ترارة (جبال فلاوسن) في الشمال الشرقي مرتفعات السبع شيوخ وتاساله.

موقعها شكل عبر العصور موقعا ملائما وممتازاً، إضافة إلي كونها تتوسط أحوازاً غنية وغابات فإن موقعها الاستراتيجي هام منذ القدم، حيث ساهم في الربط بين الصحراء والبحر، كما تشكل نقطة إلتقاء وعبور هامه لأهم الطرق: تلك التي تأتي من الجنوب متوجهة إلى الشمال عابرة الموانئ الأربعة للمنطقة: حنين، رشغون، والغزاوات والمرسى الكبير فيما بعد؛ إضافة إلى الطريق الهام الذي يمثل المحور شرق غرب.

إن الموقع الطبيعي الممتاز، إضافة إلى وفرة المياه والخصوبة، هذه العوامل منذ أزمنة طويلة حددت اقامة و إستقرار التجمعات البشرية.(9)

مازونة:

أما مدينة مازونة تقع في السلسلة التي هي نوعا ما رطبة، وعلى ممرات ومعابر ذات أهمية إستراتيجية وإقتصادية، حيث تقع مازونه في منطقة جبال الظهرة على هضبة يقدر إرتفاعهابـ 500 م فوق سطح البحر، تشرف من الجنوب الغربي على سهول وادي الرهيو الجافة نسبيًا، في الجنوب الشرقي على سهول الاصنام الأكثر رطوبة؛ تظهر مازونة يعزلها عن البحر جبل؛ إن هذا الموقع في منتصف الظهرة متاخمة للسهوب الوهرانية الجزائرية، منح المدينة موقعا هاما، حيث شكل لمدة طويلة نقطة عبور للطريق الكبير(10) الذي يربط بين المغرب وتونس عبوراً بعدة مدن هامة. تقع مازونه قريبة من سهول مينه التي تؤدي بسهولة إلى منطقة السهوب العليا الغربية، هذا الموقع الممتاز يشرح لنا الدور الذي لعبته هذه المدينة.

---

(9) Grand Guillaume Gilbert; Nédroma, P 75.

(10) Belhamissi Moulay; Mazouna, une petite Ville, une longue histoire. Alger S.N.E.D. 1982, P 13.

كما أن جبال الظهرة والتي هي جزء من السلسلة التلية؛ التي تمتد على منطقة شاسعة، تتشكل من كتل جبلية تمتد من زكار إلى غاية مصب وادي شلف في هذه المنطقة الجبلية، مازونه تحتل مكانة هامة وتتربع على حافتي وادي الرزران رافد من روافد نهر الشلف، تحيط بها بساتين، ومظاهر حدائقها جد خلابة وتفسر لنا ثراء الغطاء النباتي.

مستغانم:

أما مدينة مستغانم، فالطبيعة تمنحها موقعا من الدرجة الأولى، فهي تقع في منطقة محمية من البحر الأبيض المتوسط من الجهة الغربية؛ في متوسط الطريق ما بين جبل طارق والجزائر العاصمة، مقابلة لفرنسا واسبانيا، قريبة من الجهة الشرقية للمغرب، وسط خليج بفتح على 25 كلم، بمحاذاة جبال مرجاجو [11]، بل تحيط بها الجبال [12] يخترق المدينة وادي عين الصفراء، ويصب في البحر شرق المدينة نهر شلف، تحيط بها بساتين وأحواز خصبة، تجمع المدينة بين جمال الساحل والغابات المحيطة بها إضافة إلى البساتين.

معسكر:

أما معسكر، فهي تتوسط أعراشا وأحوازا هامة، تقع المدينة على حافة سلسلة جبال بني شقران، حيث توجد مدينة معسكر جنوبها، كما تحيط بها سهول غريس والتي هي من أغنى وأخصب سهول الجزائر[13]، التي تقع شمال مدينة معسكر، كما تقع المدينة على وادي تودمان.[14]

تتميز مدينة معسكر بأهمية موقعها الإستراتيجي، فهي تتحكم في المسالك التجارية، كما تحيط بها قبائل بني راشد التي عرفت بتقربها من الحكم التركي.

ندرومة:

أما مدينة ندرومة، فهي تقع على المنحدر الشمالي لجبال فلاوسن تمتد على الهضبة الشرقية المتوجهة نحو البحر على مستوى يقدر بين 360 إلى 470م فوق سطح البحر خصوبة أرضها توحي بوجود مياه وافرة بالمدينة وضواحيها، ولهذا فإن خصوبة الأرض وأهمية الموقع التجاري شكلت دائما مظاهر إغراء للإقامة والإستيطان.[15]

---

(11) Tinthoin Robert, op- cit, P 35.

(12) Shaw (T.D) Voyage dans la Régence d'Alger; P 236.

(13) Baudicour Louis De; Histoire de la colonisation de l'Algérie, Paris Challamel, 1830, P 191.

(14) Emerit Marcel; L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, P 90.

(15) Baudicour Louis-De; op-cit, P 199.

إن موقع ندرومة الممتاز و غير البعيد عن البحر يجعلها تساهم في التبادلات البحرية والبرية؛ تقع ندرومة في الكتلة الساحلية لأقصى الجزائر الغربية لجبال ترارة[16]. موقع منطقة ترارة بالضبط توجد شمال تلمسان مابين وادي كيس والتافنة و ما بين البحر الأبيض المتوسط وسلاسل جبال فلاوسن وفي هذه المنطقة تحتل مدينة ندرومة المركز الجغرافي لتجمع قبائل ترارة التي تحيط بها. [17]

بصفة عامة إذا فحصنا مواقع هذه المدن وأدوارها الإستراتيجية نجد منها الساحلية، ومنها الداخلية كما أنهاجميعًا تتوفر على أحواز هامة وتقع ضمن أراضي زراعية متنوعة وخصبة، منها المسقية وغير المسقية، ولقد شكلت الأحواز والفحوص موارد اقتصادية مهمة. لقد إستفادت وفي مجالات عديدة: من حيث مردود الريع العقاري، و دور ذلك في إنتعاش المدينة، في تموين وتزويد النشاطات الحرفية والإقتصادية بالمواد الضرورية لتنمية وتنشيط هذه القطاعات الحيوية في إقتصاد المدينة.

إضافة إلى ذلك فإن دور الموقع الإستراتيجي الذي جعل من هذه المدن ذات أهمية، حيث منها ما كانت تقع على ملتقى طرق تجارية هامة تمتد من افريقيا إلى أوروبا، ومن الشرق إلى الغرب مثال على ذلك مدينة تلمسان، مازونه وندرومة، أو مدن تعتبر نقاطا حساسة في العملية التجارية مثال ندرومة، ومستغانم، ومنها من كانت تتوسط أعراش وقبائل وشكلت معابر حضرية لفحوص شاسعة مثال: معسكر، ومستغانم حيث أن مدينة مستغانم كانت تصل اليها كل منتوجات السهول الداخلية والواقعة ما بين الشلف ومينة، وحتى منتوجات المناطق البعيدة نذكر منها، منتوجات منطقة السارسو حيث كانت تسوق هذه المنتوجات عبر ميناء المدينة.

بقدر ما تعمقنا في تحليل ودراسة أهمية هذه المدن، ودور الوظائف المتداولة فيها وعلاقة ذلك بالأهمية الإستراتيجية ودور الموقع في تنمية وتدعيم هذه الوظائف بقدرما استخلصنا نتائج تدعم وتعزز لنا أهمية تعميق و توسيع هذه الدراسة.

---

(16) ترارة: استعملت كلمة ترارة في القرن 16 م لأول مرة في تاريخ المنطقة، وهي تعني التجمعات القلية التي تحيط بالمدينة والقبائل البربرية التي تقطن المنطقة هي: الجبالة، السحاولية، والمسيردة، وبني مسهل وبني عابد، وبني وارسو، والوحاسة وبني منير، والمصطلح ذات المدلول إثني، أصبحت الكلمة تطلق على المنطقة الجبلية المحيطة بمدينة ندرومة: يقال لها جبال ترارة.

(17) Janier Emile, "Les industriers indigènes" in, "R.A" 1944, P. 43.

ضمن هذا الإطار الطبيعي، شكلت هذه المدن مراكز لمراقبة وتبادل وتحويل المنتوجات التى تمنحها الفحوص والأحواز والمناطق الزراعية بصفة عامة، إضافة إلى ذلك لقد لعبت هذه المدن دور سوق تعمل على جمع المنتوجات للمناطق المجاورة وتسويقها، إضافة إلى كونها مراكز ذات نشاطات حرفية تعمل على تحويل وتصنع مختلف المواد التي تصلها سواء الحيوانية أو النباتية أو المعدنية.

للإحاطة بالإطار الطبيعي من جميع جوانبه، نتعرض بعد تناولنا لتضاريس والموقع إلى:

الغطاء النباتي:

إن الغطاء النباتي لمنطقة بايلك الغرب يعتبر غطاءً غنيا، ويتوفر على كافة نباتات حوض البحر الأبيض المتوسط بصفة عامة، حيث نجد غابات متنوعة، زراعات واسعة، أشجاراً مختلفه: الخروب، والكروم، والتين، والزيتون أي كل منتوجات حوض البحر الأبيض المتوسط. وكانت أهم محاصيل المنطقة هي الحبوب إضافة إلى الخضر والفواكه خاصة الحوامض؛ إذا بصفة عامة الغطاء النباتي للمنطقة ثرى رغم وجوده في منطقة تعتبر غير محضوضة بالنسبة لمناطق أخرى وبصفة عامة المنطقة التلية تتميز بكونها منطقة زراعة وانتاج الحبوب.[18]

المناخ:

أما المناخ الذي يتميز به بايلك الغرب، فهو يتميز بالميزات التالية: السنة تنقسم إلى مرحلتين كبيرتين، موسم يتميز بالرطوبه والبرد ويمتد من أكتوبر إلى ماي وموسم يتميز بالحرارة والجفاف ويمتد من جوان إلى سبتمبر.[19]

إن موقع بايلك الغرب في منطقة تعتبر مغطاة بالسلاسل الجبلية المغربية، أي منطقة الريف وشبه الجزيره الإيبرية يجعل من بايلك الغرب لايتلقى بالمتوسط إلا 300 إلى 600 ملم من الأمطار أى نصف ما تتلقاه منطقة الوسط، إضافة إلى ذلك إن المناطق الجبلية تتلقى أكثر من غيرها و تعتبر المناطق الساحلية نوعا ما جافه بالمقارنة مع الداخل.[20]

---

(18) Priou Louis, Mostaganem et son arrondissement, Mostaganem, imp de Mostaganem, 1892, P 10.

(19) Tinthoin Robert, op- cit, P 11.

(20) Iden.

لايعاني بايلك الغرب من ندرة الأمطار بل عدم إستقرارها و اضطرابها من سنة إلى أخرى[21] كون الأمطار غير منتظمة إلاّ أن الأمطار أي التساقطات الخفيفه ليلاً والضباب، هذا ما ساهم في اعطاء رطوبة ضرورية للأراضى والإنتاج الزراعي، كما أن الرياح الشمالية الغربية تكون محملة بالأمطار والرطوبة، أما الرياح الجنوبية أي السيروكو فهي تعصف عبر مراحل قصيرة وتكون صعبة.[22]

هكذا جل حواضرنا يميزها المناخ القاري، كونها مدنا تقع في الداخل ماعدا مستغانم المدينة الساحلية، وبصفة عامة إن المناخ السائد معتدل، ولا نسجل فوارق كبيرة في درجات الحرارة، رغم وجود مناطق عديدة جافه نسبيا لكن السهول القريبة من الساحل هي أكثر انتاجًا وذلك نتيجة خصوبتها. [23]

إن مناخ بايلك الغرب كما سبق وصفه هو مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط مع جفاف يرتفع تدريجيا باتجاه الجنوب إن مناخ حوض البحر الأبيض المتوسط متأثر بصفة مبدئية بموسم جاف وموسم حار؛ هذه الميزة هي التي تجعله يختلف عن الأقاليم المناخية الأخرى؛ ونتيجة لهذه الظروف المناخية لانجد منتوجات زارعية غير مسقية ماعدا زارعة الشتاء القمح والشعير.

أما المناطق الموجودة قرب الساحل (البحر) وذات رطوبة مرتفعة فهي لا تخضع للقاعدة[24]، كما أن منتوجات الصيف تحتاج إلى المياه.

إضافة إلى ماسبق مناخ البحر الأبيض المتوسط يتميز بشتاء نسبيا دافىء، هذا الدفء النسبي تقاومه تضاريس مرتفعة بالمغرب العربي عامة، أما السد المعاكس لتأثيرات البحرية والمتمثل في السلاسل الجبلية، فعلى مستوى السهول الساحلية هذا الدفء الشتوي يسمح بزراعة الخضروالبقول بكل أنواعها.

أما مناخ المناطق الجبلية، فهو بصفة عامة ينحصر في التضاريس المرتفعة، وفي المنطقة التلية فان المناخ الجبلي يوجد في المناطق التي يزيد إرتفاعها عن 1500 م بصفة عامة إن الجفاف ناجم عن تغطية شبه الجزيرة الإيبرية ومنطقة الريف المغربية، أي وقوع البايلك في ظل هذه المناطق لكن يبقي الفرق كبيرًا ما بين السهول والجبال.[25]

---

(21) Tinthoin Robert, "Les Paysages géographiques de L'Oranie"in "B.S.G.A.O", T. 58, Fase 208, 1937, P 205.

(22) Tinthoin Robert, Colonisation et évolution, P 11.

(23) Léon L'Africain Jean, Description de l'Afrique, 2 vol, Paris Maisonneuve et Larose, 1981, T. II. P 325.

(24) Despois Jean, Géographie économique de L'Afrique du Nord, Alger, Faculté des lettres, 1961, P 1-2.

(25) Despois (J) et Raynal (P), op- cit, P 80.

المناخ حار وجاف، الغطاء النباتي مبكر بالمقارنة مع مناطق أخرى، نظام الأمطار أقل فائدة بالمقارنة مع مناطق الوسط والشرق، لكن الأراضي الزارعية أكثر اتساعًا هذه المساحة الواسعة ناجمة عن نقص إرتفاع السلاسل الجبلية، وكذلك توجهها والذي يسمح باتساع في هذه المناطق: إضافة إلى ذلك فإنه رغم ضعف تساقط الأمطار بالتل الوهراني، تخترقه سلسلة من الأنهار والأودية وهي من الغرب إلى الشرق وادي التافنه،وادي سيف،وادي الحمام،وادي الهبرة،وادي مينة، ونهر شلف [26] إلى جانب هذه العوامل تتوفر المنطقة على غابات كثيفة، إشتهرت خاصة بغابات الفلين والصنوبر الحلبي.[27]

إن الأهمية الممنوحة لحواضرنا نتيجة توفر هذه الأخيرة على مميزات مساعدة من ناحية المواقع، المناخ، وفرة الخصوبة، القرب والبعد من الموانئ؛ هذه الميزات ساهمت في تدعيم وتنشيط الجوانب الأخرى؛ منها الإقتصادية والبشرية، لكونها شكلت نقاط جذب للعنصر البشري.

لقد اتصفت حواضرنا بمواقع إستراتيجية هامة، أغلبها تقع مابين المنطقة الجبلية والسهلية طبعا ضمن نطاق المنطقه التلية وكل ما تمتاز به هذه المنطقة من ظروف طبيعية ملائمة، كما أن جل حواضرنا إما تقع على حافة وادي أو يخترقهاوادي أو تقع بين واديين ومن هنا نستنتج حتمًا أن الأراضي المحيطة بها أو قريبة منها هي أراضي خصبة كما أن توفر هذا العامل أي المياه يفسر لنا وجود البساتين التى تحيط بجل حواضرنا.

غالبا ما كانت هذه الحواضر عبارة عن منفد لمنتوجات هذه المناطق التلية المجاورة للمدينة أو المناطق السهبية وسوق مثالا على ذلك إن مدينة مستغانم كانت تصلها وتسوق عبر مينائها كل منتوجات منطقة تاهرت، كما كانت تصل مدينة تلمسان المنتوجات الصحراوية لتباع في أسواق المدينة أو تصدر إلى الخارج.

لا يكفي توفر بعض الشروط الطبيعية ولا حتى تجمع بشري معتبر أو نشاط إقتصادي، وثروة مهمة. لكن التاريخ، الإطار الأثري، الدور السياسي والإداري الذي يسمح ويعمل على إستقرار وجذب فئات مثقفة هذه العوامل هي التي تجعل أن المدينة تحتل مكانة معتبرة بالمقارنة مع مدينة أخرى [28]، ولهذا مهما إكتمل الإطار الطبيعي وتوفر على جميع المقومات الضرورية للحياة، يبقى غير كاف إن لم يدعم أو يأتي ليدعم إطارا تاريخيا يشرح لنا الدور والأهمية التى قامت بها هذه المدن.

---

(26) Tinthoin Robert, "Les Paysages géographiques", P 210.

(27) Ibid, P 224.

(28) Braudel Fernand, La Méditéranée et le monde méditéranéen à l'époque de Philippe II, 2 vol. Paris, A Colin, ed de 1966, P 183.

II الإطار التاريخي:

إن الحواضر المتناولة بالدراسة تتوفر كلها على الأسس الأولية التي سمحت للانسان بالإستقرار وتعتبر هذه الأسس عماد وجود أية مدينة: القرب من مصدر ماء حتى وإن كان المحيط يتصف بالجفاف، سهول خصبة ومسقية، موقع عبور على شبكة برية كبيرة، القرب من منفذ بحري أو مركز استراتيجي هام.(29)

إن تحليلنا لهذه المدن يجعلنا نضع الأصبع على توفر الحواضر المدروسة على هذه المقومات، لكن كما سبق أن أشرنا إلى ذلك لا يتوقف الأمر عند هذه المقومات بل يجب أن تتبلور عبر التاريخ عوامل أساسية تعمل على إكتساب المدينة كل المؤسسات للإستقرار وإستمرارية الوتيرة التاريخية من خلال مؤسسات إدارية وسياسية وإقتصادية وثقافية تعمل هذه المؤسسات عبر الزمن على تشكيل الإطار التاريخي.

إن الحواضر القديمة لبايلك الغرب، هي المدن التاريخية الآتية:

تلمسان، مازونة، مستغانم، معسكر وندرومة وهي مدن تقع وسط زراعات غنية، تشكل مراكز حرفية عرفت عبر التاريخ اتساع توزيع منتوجاتها، كما عرفت كمراكز ثقافية، عواصم اقليمية، هذه المراكز توحي لنا عن طريق بعض الملامح العمرانية: مساجد، مدارس، احياء قديمة، أسواق! عن ماضي حضاري غني وصفه لنا العديد من الجغرافيين والرحالة والمؤرخين عبر المراحل التاريخية المختلفة.(30)

(29) Marçais Georges, "La Conception des Villes dans l'Islam" in "Revue d'Alger", T. 2, No 10, 1945, P 517.

(30) راجع البيبليوغرافيا الموجودة بالملحق.

إن محاولة إظهار دور الإطار التاريخي جليا لايعني أن الإطار الطبيعي غير ضروري، أو ثانوي، بل هناك علاقة تكاملية بين الإطارين، ويتسم الإطار الطبيعي بأهمية كبرى لأنه أساسي ومحدد لكل إستقرار بشري، فنتيجة للظروف الطبيعية الممتازة لعبت هذه الحواضر والمنطقه بصفة عامة دوراً هامًا في الإستقرار، وبقدر ما يكون الإطار الطبيعي غنيًا وملائما يعمل على جذب الإنسان للاستقرار ويدفع بتنمية التقنيات الفلاحية والتي تعتبر شرطًا لكل تحضر وعمران [31]، إن الإطار الطبيعي ساهم في وجود إطار تاريخي يشرح الإستقرار ويفسر الإستمرارية.

جل حواضرانا تعود إلى ماضى تاريخي عريق، حيث أن الأثار الموجودة داخل هذه الحواضر أو بضواحيها تشهد على هذا الماضى الحضاري والذي يعود إلى عصور قديمة. نحاول من خلال إبراز الخطوط العريضة الحضارية إلقاء الأضواء على المراحل والفترات التي سبقت القرن الثامن عشر، القرن الذي نحن بصدد دراسته.

عبر كل الأزمنة شكلت المنطقة بصفة عامة أرضية عبور ومرورنجو إتجاهات مختلفة هذه الحركة ساهمت في انتعاش ماض حضاري تميز به القطاع الغربي، لقد شكل القطاع الغربي الوهران ملتقى حقيقيًا لطرق، ميزة لازالت مؤكدة حتى الآن [32] ورغم تراكم المخلفات الأثرية عبر الأزمنه المختلفة، منها البربرية والفينيقية والرومانية الا أن القطاع الوهراني يتميز بميزة هامة تميزه عن باقي القطاعات الأخرى، تتمثل في إستمرار وبقاء ماضي حضاري عربي (تلمسان، مازونة، ندرومة، معسكر) [33].

حيث نجد ما تتميز به المدينة العربية الإسلامية، لقد كانت الأدوار المختلفة التي إتصفت بها هذه المدينة جلية، تمثلت في حياة حرفية، أدوار تجارية ذات حيوية، وتنشاطات ثقافية. دراستنا لهذه المدن في العهد العثماني وبالتحديد في القرن الثامن عشر تجعلنا لا نصطدم بتلاشي هذه الأدوار بل نشاهد مواصلة وإستمرارية لهذه الأنشطة، التي تشكل مقومات المدينة العربية الإسلامية.

---

(31) Sari Djilali, op- cit, P 32.
(32) Ricard Pierre, "L'artisanat indigène", P 102.
(33) Merad Boudia (A), op- cit, P 25.

إن بروز عوامل جديدة قد ساهم في إعطاء التطور والنمو نفسًا جديداً، منها نوع من الإستقرار، كما أن الوضع السياسي لبايلك الغرب كان أكثر هبكلة وتماسكًا، وعرف البايلك انتعاشًا ديموغرافيا وتوسع التحضر.

نحاول الآن أن نلقي الأضواء على الحواضر المدروسة واحدة بعد الأخرى نلاحظ مايلي:

تلمسان:

عرفت تلمسان ذات الأصول العريقة في القدم المدينة تمثل مفتاحًا لشمال إفريقيا ومقر قصده العديد من الرحالة.(34)

أسم تلمسان بربرى ومعناه الينابيع، المدينة القديمة تقع على مسافة مئات الأمتار في الشمال الشرقي من المدينة الحديثة، وكانت تعرف هذه المدينة باسم تلمسان أو أغادير وهو إسمها الفنيقي القديم، كما إستقر بها الرومان وأطلقوا عليها إسم بوماريا، معناه الحدائق والبساتين، و بني إدريس الأول في القرن الثامن أغادير، كما أطلق عليها إسم تاقرارت في القرن 11 م المرابطين وهم الذين أنشأوا مدينة تلمسان الحالية، طبعا إن الذي بني تاقرارت وهي تلمسان الحالية هو يوسف ابن تاشفين الذي شيد مدينة مراكش، كما بني المرينيون المنصورة في القرن 13م.

إن أغادير وتاقرارت شكلت تلمسان عاصمة المغرب الأوسط من القرن الرابع عشر إلي غاية القرن السادس عشر، حيث عرفت المدينة درجة عالية من الرفاهية في عهد بني زيان.(35)

كما أصبحت من بين المدن العربية الإسلامية الهامة، بكل هياكلها ونشاطاتها، بالإضافة إلى دورها كعاصمة في العهد الوسيط (36) لقد شكلت تلمسان دائما سوقا تجاريًا هامًا ومركزا ثقافيا وحرفيا، فالميزة التجارية عريقة وناجمة عن موقعها في ملتقي الطرق تلك التي تجمع مابين فاس ووهران؛ وتلك التي تأتي من الجنوب وتتجه نحو الشمال لتنتهي كمرحلة أولى عند احدى موانيء القطاع الغربي:رشغون، حنين، الغزاوات والمرسى الكبير ووهران.(37)

رغم إستمرار الثقل الحضاري لمدينة تلمسان الأ أن العصور الوسطى تعتبر مرحلة إزدهار ورواج حضاري هام عرفته المدينة، حيث إشتهرت المدينة بوفرة المنتوجات وبأسعار معقولة سواء كانت منتوجات زراعية أو حيوانية، إشتهرت على أنها مدينة حرفية، كما تمارس التجارة بها بنجاح ويعتبر سكانها من أغنى سكان المغرب العربي.(38)

---

(34) Bargès J/J Abbé L, Souvenirs d'un voyage à Tlemcen, Paris, Duprat, 1859, P 189.

(35) Léon l'Africain Jean, op- cit, P 331.

(36) كانت عاصمة لإحدى دول المغرب الإسلامي، وهي الدولة الزيانية، مؤسسي هذه الدولة هو يغمراسن بن زيان امتد حكمها من 1235- 1554.

(37) Emerit Marcel, op- cit, P 10.

(38) Edrissi (C.H), Description de l'Afrique, trad de Dozi, R. et Goeje M. J, Leyden, Brill, 1968, P 92.

اشتهرت المدينة كمركز حضاري هام في العهد العثماني وأهم ميزة اتصف بها سكان مدينة تلمسان على أنهم أرباب صنعة، ويعيشون من مردود نشاطاتهم المختلفة، كما إشتهرت أسواقها على أنها أسواق سلع [39] وكانت كل مواصفات المدينة العربية الإسلامية متواجدة بمدينة تلمسان. إن تلمسان عاصمة المغرب الأوسط القاعدة الهامة في العهد العثماني، مدينة إشتهرات بأسواقها و مساجدها كما عرفت بالمدينة ذات البساتين ووفرة المياه، شكلت تلمسان مقر التقاء التجار لمناطق مختلفة.[40]

إنّ الموقع المتاز وحيوية الأنشطة جعلت من المدينة مدينة قوية ضمن الاقليم، والايالة عامة كما أنّ شهرة مدينة تلمسان تجاوزت حدود الايالة، فاتصفت المدينة بأهمية تنتظيم طرقها وأسواقها، حيث كان هذا التنظيم مشابها لما كانت عليه مدينة فاس؛ [41] إنّ تنظيم المدينة يعكس درجة معينه من الاستقرار الحضاري الذي وصلت إليه المدينة، بل التنظيم يترجم درجة نضج في الحياة الحضرية والمدنية.

كل من تناول مدينة تلمسان بالوصف وصفها لنا بشكل فخر وإعتزاز. كما أنها تميزت دائما برواج العلوم و الفنون[42]. مثلت مدينة تلمسان المدينة العربية الإسلامية الواضحة الوظائف والفئات الاجتماعية.

مدينة مازونة:

تقع مازونة على الحافة اليمنى لوادي وازران وهو رافد من روافد نهر شلف، تحتل في وسط الظهرة موقعًا هامًا تتدفق فيه المياه وتصب في نهر الشلف [43] إن المدينة قديمة، حيث يوجد بقربها آثار رومانية [44] مدينة مازونة بساتينها مسقية وغنية بثروتها الزراعية، أسواقها يتردد عليها الكثير، منازلها جميلة [45] إذ وصف الإدريسي للمدينة يجعلنا نفترض أن المدينة معاصرة أو سابقة للعهد الروماني فالموقع الممتاز أعطي للمدينة أهمية كبري ضمن سلسة المدن التاريخية، كما كان يمر بها الطريق التجاري الكبير الذي ينطلق من الأطلس إلى تونس، رغم الأضرار التي لحقت بها أثناء الفتوحات الإسلامية إلا أنّ المدينة إستطاعت أنّ تتمتع بشهرة كبيرة عند الأهالي.

---

(2) قاض، محمد، الكنز المكنون في الشعر الملحون، الجزائر، دار الشعالبية، 1938، ص 135.

(40) Bekri Abou Obeid El, Description de l'Afrique Septentrionale, trad Mac Guekin de Slane, Paris, Maisonneuve, 1965, P 156.

(41) Marmol (L.C), Description générale de l'Afriqueet histoire de la guerre des chréticus contre les in fidèles, trad de Nicole Perrot d'Ablincour, 3 vol, Paris, Bilaime, 1667, T. II, P 328.

(42) Laugier de Tassy, Histoire du royaume d'Alger, Amesterdam, Henri de Sauzz, 1725, P 152.

(43) Gasser (M. Senateur) et Claude Petit (M.M) et Roux-Frei Ssineng, députés, Le livre d'or de l'Orani ed de l'Afrique du Nord ilustré, 1925, P 28.

(44) Léon l'Africain Jean, op- cit, P 343.

(45) Edrissi (C.H), op- cit, P 117.

كانت مازونة مثل المدن المجاورة لها بيد القبيله البربرية القوية مغراوة خلال عدة قرون[46] ومع مطلع القرن السادس عشر عرفت المدينة انتعاشًا وذلك لكونها أصبحت مقر البايلك[47]، حيث قام حسن ابن خير الدين سنة 1562 بتنظيم إدارة الإيالة، وهكذا فان بايلك الغرب أصبحت مازونة عاصمته مند سنة 1563 وعين بن خديجة مسؤولا على البايلك، لقد لعبت مازونه دوراً هاما وهي تحتل مكانة عاصمة البايلك، كما ساهمت بعدة حملات عسكرية ضد الاحتلال [48] الإسباني لوهران وذلك من سنة 1563 إلى غاية 1791 بدون أن نهمل أن أخر بايات مازونه وهو الباي شعبان مات وهو يحاصر وهران سنة 1696.

لقد استمرت مازونة عاصمة من سنة 1563 إلى غاية 1700 وخلال هذه المرحلة عرفت المدينة إنتعاشًا إقتصاديا وثقافيا هامًا؛ حيث أن دور مدينة مازونة في الحركة الثقافية على مستوى البايلك والمغرب العربي بصفة عامة كانت له انعكاسات هامة وتأثيرات كبيرة، كما إستفادت المدينة من المراكز الثقافية الآخرى سواء على المستوى المحلي أو الخارجي هذا الإشعاع الثقافي الذي عرفته المدينة يعكس إزدهاراً ونمواً إقتصاديًا وبروز فئات إجتماعية كان لها دورفعال في تنشيط الحياة الإقتصادية والنهوض بالحياة الثقافية.

كما عرفت المدينة في القرن الثامن عشر إزدهاراً وذلك لكونها لعبت دوراً هامًا في المنطقة نتيجة موقعها الجغرافي[49].فهي تحتل موقعا هاما بالإضافة إلى ماسبق فهي تتوسط مابين مدينة مستغانم ومدينة تنس على الطريق الداخلي. إنّ مازونة مدينة ذات أسوار قوية بها قصر ومنازل جميلة [50] إضافة إلى الشهرة الثقافية والتجارية فإن جل سكان مازونة يحترفون بالحرف و الزراعة [51] هذه الأنشطة التي ميزت كل مدينة ذات حياة اقتصادية مزدهرة ونشيطة.

مدينة مستغانم:

فهي مدينة ذات أصول بربرية إتسمت بمستوى حضاري هام وانتعاش سكاني في الأزمنة القديمة [52] كما عرفت مدينة مستغانم الوجود الروماني وميناؤها الروماني يشهد على ذلك،فالميناء يدعى مارستيكا(Marustuga) واشتهرت المدينة بمراعيها الغنية.

(46) هاينريتش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غرب إفريقيا الجزء الأول، ترجمة أبو العيد دودو، الجزائر ش.و.ن.ت. 1976، ص 234.

(47) Yacono Xavier, la Colonisation des plaines du Chelif, Alger, Imbert, 1955, P 202

(48) Belhamissi Moulay; Mazouna, P 43.

(49) Ibid, P 33.

(50) Marmol Louis, op- cit, P 395.

(51) Léon L'Africain, Jean; op- cit, P 347.

(52) Ibid, P 343.

كانت مستغانـــم تحت سيطرة قبيلة مغراوة، القبيلة القوية من زناتة والتي لها علاقة القربى مع بني عبد الواد حكام تلمسان، كانت قبيلة مغراوة تراقب المدن الهامة الموجودة مابين شرشال ومزغران[53] وفي سنة 1281 نصب يغمراسن زيان ابن عمه لحكم المدينة وضواحيها لكن إنفصل هذا الأخير بمساعدة مغراوة عن حكام تلمسان. عرفت المدينة إبتداء من القرن السادس عشر من بين أهم المدن الجزائرية، نتيجة الإنتعاش الإقتصادي الذي عرفته، كما أعطى حميدة العبد قائد المحال أهمية كبيرة للمدينة في القرن السادس عشر عندما كانت تحت سلطته [54] إن منزل حميدة العبد لازال موجودا بالمدينة وهو من أجمل المنازل من حيث البناء والمواد المستعملة.[55]

لقد كانت المدينة ذات أهمية لكونها تشرف على مركز وجمع تجارة كل سهول شلف المدينة، كما تعتبر المدينة الثانية على مستوى بايلك الغرب من حيث الأهمية بعد مدينة تلمسان. [56]

لقد أعطي مجيء الأندلسيين مع مطلع القرن 16 م واستقرارهم بمدينة مستغانم وضواحيها إنتعاشا لنشاطها الإقتصادي ونموها الديموغرافي، كما أن إحتلال الإسبان لمدينة وهران والمرسى الكبير جعل من مدينة مستغانم قاعدة هامة لمحاربة هذا الوجود، كما جعل منها الباي مصطفي بوشلاغم عاصمته سنة 1732 إلى غاية سنة 1738 أي تاريخ عودة مقر البايلك إلى مدينة معسكر بعد وفاة الباي بوشلاغم، وكانت لأهم بايات الغرب الباي مصطفي بوشلاغم وخليفته و مصطفي الأحمر المسراتي والباي محمد الكبير أوقاف وأحباس هامة بالمدينة [57] إضافة إلى ماشيدوه من أبراج وقصور.

إضافة إلى ذلك تعتبر مدينة مستغانم مركزا ثقافيا من الطراز الأول، أما ميزاتها التجارية، فهي ناجمة عن إطارها الإقليمي، حيث تتوسط أراضي زراعية غنية بانتاجها الزراعي وثروتها الحيوانية.

احتلال الإسبان لمدينة وهران والمرسى الكبير، هذا الوضع جعل من مينائها ميناء هاما بحركته النشطية لكونه منفذا على الخارج لمدن مثل معسكر مستغانم ومناطق واسعة.

اشتهرت مدينة مستغانم بأجوازها الهامة، خاصة منتوجها المختلف والمتنوع.

---

(53) Belhamissi Moulay, Histoire de Mostaganem, Alger, C.N.E.H, 1976, P 34.

(54) Ibid, P 34.

(56) Shaw Thomas DR, op cit, P 236.

(55) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك علبة 80-85، رقم السجل 167، رقم القديم 82، سجل يتضمن إحصاء عام للأملاك الموقوفة على الحرمين أوقاف مدينة مستغانم.

معسكر:

مدينة معسكر، عاصمة القرن الثامن عشر تعتبر المدينة قديمة بناها البربر على ما بقي من أثار المدينة الرومانية والتي تعرف بمدينة فيكتوريا (Victoria) [58] وتعتبر مند القرن 11م مدينة صغيرة حيث ذكرها الإدريسي وابن حوقل فيقول الإدريسي «مدينة جد مسقية وبساتينها خصبة». [59]

شيد بها الموحدون قلعة حصينة لحراسة المناطق المحيطة بها ونصب عليها الزيانيون فيما بعد حاكمًا يشرف على جمع الضرائب؛ زادت أهمية معسكر، حيث أصبحت السيطرة عليها ضرورية لتأمين المواصلات بين تلمسان وقلعه بني راشد وهذا ما جعل الأتراك يبقون بها حامية عسكرية ويقيمون عليها حاكما وذلك اثر تنظيم البايلك عام 1563 .[60] لقد شكلت معسكر مركزًا مهما على الطريق الرئيسي بين قلعة بني راشد وتلمسان، مما جعلها سوق المنتوجات القادمة من السودان ومستودعا لبضائع فاس، وملتقى لتجارة الغرب الجزائري [61]. تتوسط منطقة تميزت بغنائها إغناء المنطقة بالإنتاج الزراعي والصناعي ففي قلعة بني راشد كانت تصنع الأسلحة النارية والصابون والسروج والبرانيس والزرابي وكانت تصدو هذه المنتوجات إلى النواحي والدول المجاورة لها. عن طريق أسواق مدينة معسكر.

تتوسط مدينة معسكر أعراشًا وقبائل، كما يوجد بضواحيها أهم سهل في الجزائر، وهو سهل غريس حيث كانت جل منتوجاته تسوق عبر ميناء مستغانم، ثم فيما بعد المرسى الكبير ووهران ونشير هنا إلى أن إسترجاع ميناء المرسى الكبير إستفاد منه كل البايلك وكان يتم عبره تسويق المنتوجات سواء الزراعية أو الحيوانية إضافة إلى منتوج الصناعة الحرفية لبايلك الغرب.[62]

يعود العصر الذهبي لمدينة معسكر إلى عهد إنتقال مقر البايلك من مازونه إلى معسكر سنة 1701، حيث أصبحت مدينة معسكر عاصمة البايلك، عرفت العاصمة أيام الباي مصطفي بوشلاغم إنتعاشًا إقتصاديا حيث إزدهرت أنشطتها الحرفية والتجارية وبرز دورها الثقافي.

---

(58) J.M.H.B, Itinéraire du royaume d'Alger, Toulon, Laurent, 1850, P 20.

(59) Edrissi (C.H), op- cit, P 95.

(60) سعيدوني، نصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر العهد العثماني، الجزائر، ش.و.ن.ت، 1984، ص .147

(61) نفسه.

(62) Mantran Robert; "La Description des côtes de L'Algérie" in "R.O.M.M", n Spécial, 1973. P 161.

مجد مدينة معسكر، بل ذروة مجدها يعود إلى أيام الباي محمد بن عثمان المعروف بمحمد الكبير، حيث أصبحت المدينة مركزاً سياسيا واقتصاديًا وثقافيا هامًا على مستوى البايلك والايالة بصفة عامة، لقد عاشت مدينة معسكر طيلة القرن الثامن عشر ولمدة 90 سنة مرحلة تاريخية هامة، اتصفت بالقوة والثقل السياسي وخلفت المرحلة إنجازات عمرانية وحضارية هامة، كما اقترن تاريخ المدينة في هذه المرحلة بأسماء بايات لامعه وأسر إحتكرت السلطة لمدة طويلة: منها أسرة الباي بوشلاغم وأسرة الباي محمد بن عثمان.

مدينة ندرومة:

أما مدينة ندرومة، الموقع من أجمل المواقع، مدينة ندرومة مدينة تاريخية قديمة لازالت حولها بقايا أثرية قديمه (63) مدينة مشهورة في تاريخ شمال افريقيا لكونها مثلت مهد لأهم دولة إسلامية: دولة الموحدين، تقطن المنطقه قبائل كومبه التي أنجبت عبد المؤمن مؤسسى هذه الدولة (64). وتحتفظ بملامح وميزات المدينة العربية الإسلامية.(65)

وصفها البكري في القرن الحادي عشر، ومن خلال وصفه نلمس أن الأمر لا يتعلق بمدينة حديثة، بل كانت مدينة هامة تحيط بها أسوار وبساتينها مسقية.(66)

تتصف مدينة ندرومة بقوة الإستقرار الحضاري، إنها تتوسط منطقة ترارة، فهذا الموقع يسمح لها بتنمية، أنشطتها الحرفية والتجارية. أحواز المدينة غنية بمنتوجاتها الزراعية والحيوانية، حيث أن فئة هامه من سكان المدينة تمارس الزراعة وتعيش من مردودها.

لقد وصف لنا العديد من الرحّالة المدينة، تذكر على سبيل المثال فنتوردي برادي Ven- ture de Paradis) والدكتور شو (SHAW.T.D) كما وصفها المؤرخون منهم مارمول والحسن الوزان، لقد تناولها مارمول قائلاً إنها قديمة، لازالت أسوارها قائمة، سكانها مزارعون، حيث ينتجون كمية هامة من الحبوب، كما ينسجون أنسجة قطنية تحتل المرتبة الأولى في المنطقة؛ سكانها تجار، يتاجرون مع الجزائر وتلمسان (67) وتناولها الحسن الوزان فقال «انها عاصمة صغيرة، شبه مستقلة غنية في المجال الحرفي تابعة تجاريا لتلمسان».(68)

---

(63) Léon L'Africain Jean; op- cit, P 329.
(64) Basset André, Nédroma et les Traras, Paris, Leroux, 1901, Introduction.
(65) Grand Guillaume Gilbert, "Une médina de l'Ouest Algérien, Nédroma" in "ROMM", n 10, 1971, P 55.
(66) Basset André, op- cit, P 8.
(67) Marmol Louis-C, op- cit, P 314.
(68) Prenant Thumelin, 'Nédroma 1954", in "A.A.G" no4, juil - déc 1967, P 23.

بالإضافة إلى ذلك اشتهرت مدينة ندرومة في هذه المرحلة بانتاجها الحرفي ونالت مرتبة هامة في النسيج كما اشتهرت بالصناعات الفخارية.(69)

مثلت طيلة العهد العثماني مدينة ندرومة مركزاً سياسيًا واقتصاديًا وثقافيًا هامًا وساهم في وجود هذا الدور كل من تاريخ المدينة العريق والدور الهام الذي احتلته المدينة طيلة العهد العثماني كمركز إشعاع ثقافي وحرفي اضافة إلى الدور التجاري.

شكل الإطار الطبيعي والإطار التاريخي لهذه الحواضر المدروسة أي تلمسان، مازونه، مستغانم، معسكر وندرومة إطارا عاما متكاملا ومنسجما عمل على تطور واستمرار حياة حضرية.

لقد شاء الإختيار أن يجعلنا نلاحظ ميزات متشابهة سواء من حيث الإطار الطبيعي أو الإطار التاريخي، وهكذا نلاحظ أنّ جل مدننا تمتعت بموقع هام معرفة دوره ومدى تأثيره على الميادين المختلفة للحياة الحضرية يستحق كل العناية والإهتمام. كما تمتعت جل مدننا بأحواز هامة ووفرة المياه كعوامل هامة لإزدهار وتطور كل حياة حضرية لأن هذه العوامل هي الركيزة التى تعتمد عليها الحياة الحضرية.

ومن جهة أخرى لقد شكل الإطار التاريخي لجل المدن إطار غنيًا وثريًا بتطوراته وأحداثه، فجل مدننا عرفت عبر فترات مختلفه من تاريخها كعواصم سياسية واشتهرت كمراكز تجارية وحرفية ونوادي ثقافية غالبا ما تجاوزت شهرة المراكز الحدود الضيقة للمنطقة والبلاد .

لقد تمتعت هذه الحواضر بماضي تاريخي عريق في القدم ويشهد على ذلك الماضى مخلفاته بمختلف أنواعها سواء في مجال التراث الثقافي أو المعمارى.

لقد استفادت مدننا من تراث حضاري وتلك ميزة تميزت بها جل الحواضر العربية الإسلامية حيث استفادت من التراث الحضاري الذي سبق هذه المرحلة منها ما يعود إلى الأثار الرومانية أو الإغرقية أو الفنيقية، وهكذا جل حواضرنا استفادت من الحضارة السابقة.

حيث النواة الأولى لهذه الحواضر كبقية الحواضر الأخرى العربية الإسلامية كانت ذات طبيعة ومستويات مختلفة إضافة إلى عوامل خاصة بالعالم العربي الإسلامي و التى هي من خصوصيات: مناخية وعرقية ودينية (70)، أي أنّ مدننا بتنوع هذا التراث كانت ذات إطار حضاري ثري ومتنوع.

---

(69) Raynal (G.T.De), Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique Septentrionale, 2vol, Paris, Pierre Maumus, 1826, T.I, P 80.

(70) Msefer Jaoud, Villes islamiques cités d'hier et d'aujourd'hui, Tunis, La Plume, 1984, P 15.

لقد خلفت الحضارات المتتالية من خلال تعاقبها على هذه الأرضية ترسبات وآثار حضارية وتراكم هذه الأخيرة وامتزاجها وتفاعلها أمد هذه المدن بصفات وميزات المدنية الحضرية.(71)

لهذه الأسباب والعوامل كان العامل التاريخي قوي وعميق في القدم ونتيجة لهذا الثقل الحضاري استطاع أن ينسج عبر الزمان والمكان نوع من الإنسجام والتناسق ما بين الإطارين.

مهما اكتمل العامل الطبيعي يبقى غير كاف إن لم يدعم بإطار تاريخي قوي وهام فالعامل التاريخي هو الذي يسمح لنا بفهم وتفسير الأحداث وحركيتها خاصة عندما نعطي لهذا العامل بعد الأوسع وأعمق في حركيته المتعاقبة والتزامنية.

العامل التاريخي هو الذي يسمح لنا بقراءة وتفسير الإحصاءات والجداول والأرقام فالرقم ضروري لتعريف المدينة لكنه لا يعطينا تعريفا مرضيا.(72)

لا تكون للأرقام أهمية إذا لم نضعها في بعدها التاريخي فما أهمية الموقع من حيث العلو والإنخفاض، نسبة تساقط الأمطار، والمنتوج الزراعي والرعوي الذي استفادت منه المدينة، المنتوج الحرفي، والتبادلات التجارية والإنتاج الثقافي إذا لم نضع هذه المعطيات في إطارها التاريخي، ونحللها من منظور اجمالي وكلي للعلاقات المتداخلة ما بين طبيعي وتاريخي.

الإطار التاريخي ليس فقط أرقام ننطلق منها لتعريف المدينة واقامة الفرق بين المدينة والريف وماهو حضري وغير حضري وإنما العلاقة التي تنجم عن الإطار الطبيعي والإطار التاريخي وتطور هذه العلاقة والعوامل والنتائج التي تنبثق عن هذه العلاقة في مجملها هي التي تسمح لنا بتعريف المدينة، وتعطي للأرقام والإحصاءات مدلولا ومعنى.

(71) Marthelot Pierre, "Agression démographique et developpement urbain, variantes sur le thème ville nenves et Médinas", in "ROMM" n Special, 1970, P 298.

(72) Chabot Georges, les villes, Paris, A.Colin, 1948, P 8.

طبعا إطار تاريخي تمليه هياكل تاريخية في تطور سريع وهياكل عميقة في تطور بطيء، اطار تاريخي وزون ذو ديمومة ممدة كما يفسره برودال (F. Braudel) "تاريخ الإنسان في علاقات مكثفة ومضغوطة مع الأرض". [73]

أهم ملاحظات نخرج بها فيما يخص المدن المدروسة أننا نلاحظ نوعا من التوافق بين الإطارين: الطبيعي والتاريخي وهذا ما جعل الإطار العام يتصف بنوع من التكامل.

كما اتصفت المجموعة المختارة لدراسة بنوع من التقارب حيث لا نجد هوة بين المدينة والأخرى وهذا التوافق والإنسجام الذي ساد هذه المجموعة يستحق كل الإهتمام والتعمق، لأن هذا النوع من الدراسات يجعلنا نخرج بعينة متكاملة.

(73) Choay (F), "Histoire de la Méthode en Urbanisme", in, "Annales, E.S.C", no 4, 1970, P 1153.

الفصل الثاني

الوظائف الإقتصادية لحواضر بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر

I - الوظائف الحرفية

II- الوظائف التجارية

III - علاقات المدينة بالريف

شكلت الحياة الحرفية والأنشطة التجارية الوظائف الإقتصادية الأساسية لبايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، علماً أن هذه الوظائف ميزت حواضر العالم العربي خلال العهد العثماني عامة، حيث أن الدارس لتاريخ حواضر المشرق العربي أو المغرب العربي يجد أن الأنشطة الحرفية بمختلف فروعها، والأنشطة التجارية بشطريها الداخلي والخارجي هي المكونات الأساسية للحياة الإقتصادية؛ وقبل أن نتعرض للحياة الحرفية والأنشطة التجارية لهذه الحواضر لا بد من الإشارة إلى الدعائم الأساسية والمميزات العامة لهذه الوظائف.

وكيف أن توفر بعض الشروط، بل تعميمها على جل الحواضر المتناولة بالدراسة ساهم في تعميم الأنشطة على كافة الحواضر المدروسة، كما أن استمرار الحياة الحرفية والتجارية هو نتيجة إستمرارية توفر المواد المغذية لهذه الأنشطة.

تتمثل هذه الخصوصيات في الموقع الإستراتيجي سواء بالنسبة للحياة الحرفية أو الأنشطة التجارية، حيث أن الموقع الذي يتوسط أو يقع على شرايين تجارية هامة، أو يحتوي على موانئ يتم عبرها تسويق، منتوجات تأتي من مناطق مختلفة، إضافة إلى الدور التجاري، لقد ساهم الموقع الممتاز في تنشيط الحياة التجارية سواء داخل المدينة أو عن طريق ربطها بما يحيط بها سواء قريباً أو بعيداً؛ وفي حالات أخرى ربطها بالخارج، هكذا أصبحت بعض المدن حلقة وصل ما بين النشاط الداخلي والخارجي.

هناك عوامل أخرى، شكّلت ركيزة من بين الركائز التي ساهمت في وجود إستمرارية وانتعاش عبر فترات متعددة لهذه المراكز. منها: تحوّز قرب هذه المدن على أحواز هامة والتربع على مناطق فلاحية ورعوية تغذي أنشطة المدينة، حيث يعتبر هذا العامل من عوامل تشجيع وتنشيط الحياة الحرفية والتجارية. علماً أن كلاً من المنتوج الفلاحي والرعوي شكلا المقومات الأساسية لكل الأنشطة الحرفية. كانت هذه العوامل متوفرة ومردودها قوي ومتنوع بقدر ما نجد منتوجات المدينة سواء الحرفية أو التبادلات التجارية ثرية ومتنوعة، وعلى سبيل المثال إن أحواز مدينة مستغانم وتلمسان هي محظوظة نسبة للشروط الطبيعية الممتازة.[1]

كما أن أحواز مازونة وندرومة ومعسكر غنية بخصوبتها وموقعها الممتاز.

لقد ساهمت هذه الأحواز بطريقة فعالة في تغذية هذه الحواضر بالمنتوجات الضرورية، بل لم تقتصر العملية على المناطق الزراعية والرعوية القريبة، حيث أن حسن الموقع يساهم في تزويد هذه المدن بمنتوجات المناطق البعيدة كالمنتوجات السهبية والصحراوية وذلك لكون المنطقة التلية تعتبر نهاية ومعبراً لمنتوجات هذه المناطق أي المتنقل نحو الشمال واتجاه البحر.

إنّ النشاط الحرفي بوجه عام، يعكس صورة عن وجود تكامل بين الإنتاج الفلاحي والرعوي المتوفر، حيث أن غالبية الحرف الحضرية كانت تقوم بمعالجة المواد الأولية الناجمة عن النشاط الزراعي والرعوي، وأكثر الإنتاج وفرة الجلود والصوف.[2] ثم تأتي الحبوب والقطن والزيوت إضافة إلى منتوجات داخلية تأتي من مناطق زراعية وغابية، وهنا نشير إلى: أنّ الجنوب الوهراني عن طريق قوافل البدو تغذي الشمال بمنتوجات زراعية وحيوانية هامة إضافة إلى المنتوج الزراعي والرعوي فإن توفر الغابات بين المناطق الحضرية جعل من إمكانية صناعة الخشب عبر حرف مختلفة ممكنة، إذا رجعنا إلى معظم المدن نرى أن الأنشطة التحويلية ساهم فيها خاصة وجود ملكيات عقارية حضرية، إن وجود أنشطة حضرية متنوعة وغنية حتماً تكون المدينة ذات أحواز غنية تحت مراقبتها أو سيطرتها، وفي غالب الأحيان هي بحوزة البرجوازية التجارية من حضر وأتراك.[3]

---

(1) Prenant André: "Le rapport ville- Compagne dans l'Histoire au Maghreb". in "CERM" sur le féodalisme. Paris ed. Sociales. 1971, P. 21[illegible]

(2) Mehd. Boudiba (A), La formation sociale algérienne précoloniale. Alger, O.P.U 1981, P. 163.

(3) Ibid, P. 163.

من بين العوامل التي ساهمت في تشجيع وإعطاء نفس لهذه الوظائف نشير إلى العامل البشري، حيث أن هذه الحواضر عرفت عبر فترات تاريخية إثراً لطاقاتها البشرية، ونشير هنا إلى نزوح الأندلسيين، إن هذا الحدث الذي عرف في القرن 15 والقرن 16 خاصة أعطى للبلاد بصفة عامة ولبايلك الغرب بصفة خاصة طاقة ديموغرافية، وبدأ نشيطة، إن هؤلاء المهاجرين، كان العدد الكبير منهم من الحرفيين وأهل صنعة ورجال علم ومعرفة، إضافة إلى نسبة من غير المحترفين. بالإضافة إلى المساهمة في رفع العدد، لقد ساهموا في إعطاء نفس وتطور جديد للأنشطة الحرفية.

إن توافد فئات بشرية مختلفة الإنتماءات على المنطقة عامة وبايلك الغرب، بصفة خاصة يعود إلى كون هذه المنطقة قد شكلت عبر الأزمنة المختفة أرضية عبور وهكذا عرفت المنطقة حركات بشرية مختلفة سواء قدوماً من إتجاهات مختلفة أو نحو إتجاهات مختلفة.

إن أهمية هذا العامل تكمن في: حتى وإن لم يكن العامل الكمي هاما فالأهمية تتجلى في الإنفتاح وتبادل الخبرات والمعرفة.

إن الحواضر المتناولة بالدراسة بصفة عامة كلها إستفادت من توفر هذه العوامل، حيث أن لكل مدينة أحواز خصبة، كما تتوسط مناطق فلاحية هامة، ويقصدها منتوج رعوي هام، والسبب في ذلك هو الموقع الجغرافي الهام الذي تحتله كل مدينة، فكل من ندرومة ومازونة ومستغانم وتلمسان ومعسكر تتوفر على هذه الميزات ولهذا نجد بهذه المدن الإنتاج الحرفي الذي عرف إستمرارية عبر العصور، فرغم بعض الكوارث الطبيعية والبشرية نتيجة القحط والأمراض عبر فترات متقطعة، مثل طاعون 1786 الذي عرفه بايلك الغرب، إضافة إلي كوارث أخرى إلا أن نتيجة وجود ركائز حضرية وإطار تاريخي، وتقاليد حرفية متينة ساعدت على وجود إستمرارية للأنشطة الحرفية والتجارية.

بعد التعرف على مختلف العوامل التي ساعدت على وجود وإعطاء إستمرارية للأنشطة الحرفية والتجارية، نحاول بعد هذا أن نتعرض لمختلف الوظائف السائدة.

I الوظائف الحرفية:

من خلال التعرض للوظائف الحرفية لحواضر بايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن عشر، نقوم بمسح لأهم الأنشطة الحرفية التي عرفتها هذه المدن، بعد ذلك نتعرض لكيفية هيكلة الأنشطة وذلك بالتعرض لمختلف المجالات الجغرافية للأنشطة الحرفية من أحياء، ووحدات، ومحلات محاولين شرح كيفية تنظيم المحل وترتيب العمال، مع التعرض لأهم الأدوار التي كان يؤديها هؤلاء العمال.

لقد عرفت حواضر بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر حياة حرفية غنية، تمثلت في الصناعات الحرفية التالية النسيج، صناعة الخشب، الجلود، الفخار، الطرز على مختلف المواد، المواد الغذائية، عصر الزيوت، صناعة الحلي، البارود، الصابون. كل هذه الصناعات محلية وكيفية الصنع تكتسب محلياً [4] أي التقنيات المستعملة وجدت وعرفت في المنطقة منذ أزمنة طويلة وأثرية نتيجة الإحتكاك والإتصال.

صناعة النسيج:

من خلال هذا المسح نلاحظ أن الصناعات الأكثر توسعاً وانتشاراً في جل الحواضر المتناولة بالدراسة هي صناعة النسيج، وتأتي بعدها صناعة الجلود وكان بإمكان هذه الصناعات أن تتوسع إلى درجة أكثر مما هي عليه، حيث أن إنتاج المصنوعات النسيجية والجلود قد تجاوز تلبية السوق المحلية والإكتفاء الذاتي، فكان جزء من هذا الإنتاج يسوق إلى الخارج [5].

لقد كانت الصناعة النسيجية وصناعة الجلود الصناعة الأكثر توسعاً وانتشاراً وتنتج من أجل السوق[6] كما نشير هنا إلى أنه ابتداً من القرن 17 م على مستوى البحر الأبيض المتوسط حل الحرير محل منتوجات تجارية سابقة: كالذهب، كما مثلت تجارة النسيج والجلود محوراً هاماً[7] في العلاقات الدولية التجارية، سواء على المستوى المتوسطي أو العالمي.

---

(4) Janier Emile. "Les industries indigènes, de la région des Traras" in "R.A"- 1944. P 43.

(5) Gallissot René, "Les rapports Ville-Compagne", in "C.E.R.M", sur Le féodalisme, Paris, ed Sociales, 1971, P 235.

(6) Valensi Lucette; le maghreb avant la prise d'Alger, Paris, Flammarion, 1969, P 57.

(7) Braudel, Fernand; "L'économie de la médiréranée au XVII siècle", in "C.T", T. IV, no 14, Tunis, 1956, P 191.

في هذا المجال، أي الصناعات النسيجية، فإن مساهمة تلمسان كانت بدون منافس على مستوى الحواضر المدروسة نتيجة الإنتاج الهام الذي كانت تساهم به على مستوى السوق أي العرض، حيث كانت الصناعات النسيجية هي الأهم [8] كما كان إنتاج مازونة في هذا المجال أي المنتوجات القطنية والصوفية كان هاما [9] وذلك خلال كل العهد العثماني لكونها عاصمة، حيث أن هذه الوظيفة تجعل الطلبات تتضاعف عل مثل هذه المنتوجات، واستمر الأمر هكذا خلال القرن الثامن عشر رغم إنتقال العاصمة إلى معسكر، لقد كانت مدينة مازونة تملك ما يزيد عن 1400 ألة نسيج؛ للمدينة فقط أي بدون إدراج ما كان يوجد بضواحيها وأحوازها.

عرفت مدينة ندرومة ما يزيد عن 25 محلا للنسيج واشتهرت بذلك مدينة مستغانم، وكانت منتوجات معسكر مطلوبة عبر مناطق بعيدة وذلك نتيجة الجودة والكمية حيث أن وفرة هذا الإنتاج بهذه المدينة ناجم عن مردود الإنتاج الرعوي الذي كانت تستفيد منه معسكر وهذا الأخير ناجم عن الموقع الجغرافي الهام.

أما في مستغانم فإن رواج هذه الصناعة يعود إلى إزدهار زراعة القطن [10]، بضواحي مدينة مستغانم منذ مطلع القرن السادس عشر، وكان هذا العامل من بين العوامل التي جلبت الأندلسيين للإستقرار بهذه المدينة، وبدورهم ساهموا في إثراء هذه الزراعة وتوسيع صناعتها، إضافة إلى هذا المنتوج أي القطن فإن المدينة كانت تستفيد من المنتوج الرعوي كذلك ولهذا عرفت المدينة بتقاليد حرفية، حيث كانت تقوم بصناعة الزرابي والأغطية إضافة إلى الحياك.

إن أهمية الصناعات النسيجية تكمن في توسعها، حيث بالإضافة إلي عدد المصانع التي كانت تحت مراقبة البايلك، فإن العمل أو الألات على مستوي العائلات كانت نسبتها هامة جداً. لقد كان بإمكان الصناعات النسيجية أن تتوسع أكثر مما كانت عليه.

---

(8) Cocq André Le, Histoire de Tlemcen, Ville Française, Tanger, ed, Internationale, 1940, P 309.

(9) Ministère de la Guerre, Tableau des établissements Français en Algérie, 1839, P 283, Paris, imp. Royale, 1840.

(10) Carette Eugène, Du Commerce de L'Algérie avec L'Afrique Centrale, Paris. Cuyot, 1844, P 44.

لقد عرفت الصناعات النسيجية تنوعاً في الإنتاج شمل كل من الفروع القطنية والصوفية، كما عرفت هذه الصناعات إستعمال ألوان متنوعة، وغالباً ما طبعت هذه الحرفة بالصبغة العائلية، أي العمل العائلي، كما كانت النساء هن اللواتي يقمن بغزل الصوف وتحضيره بصفة عامة، وكانت أكثرها جودة تلك المغزولة بدرجة رقيقة حيث أن الرقيقة كانت تستعمل في الحياك والألبسة الفاخرة، والغليظة في الأغطية والزرابي؛ إن درجات الغزل كانت تحدد الإستعمال.

صناعة الحلي:

إن صناعة الحلي كانت منتشرة، وقد شكل اليهود أهم صناع هذه الحرف طبعاً إلى جانب ممارستهم لحرف أخرى منها الخياطة.[11]

إن تعميم صناعة الحلي سواء على مستوى المراكز الحضرية أو الريفية، وتوسع إنتشار هذه الحرفة ناجم عن ذهنية إقتصادية، أين إمتلاك الذهب يعتبر كرصيد مالي، فهو يمثل رصيداً مدخراً في غياب إدخار الأموال، وذلك للإستعمال أثناء الحاجة[12] .إضافة إلى وجود فئات إجتماعية ثرية تمثلها أرستقراطية المدن، حيث شكلت هذه الأخيرة الزبون الرئيسي لهذه الصنعة. إن صناعة الحلي مثلت الصناعة الحرفية الأكثر ازدهارا وانتشارا عبر المدن المدروسة. كما نشير إلى رغم مكانة تلمسان وندرومة إضافة إلى معسكر ومستغانم فإن انتاج وصناعة الحلي بمدينة مازونة كانت هامة، وتعتبر هذه الحرفة من بين الصناعات المهيمنة والمسيطرة.[13]

---

(11) Lacoste (y), Nouschi (A), Prenant (A); L'Algérie passé et présent, Paris, ed Sociales, 1960 P 163

(12) Merad Boudia (A), op- cit, P 164.

(13) Pallary (P), Notices géographiques sur Le Dahra Oranais, Paris, Secrétariat de L'association; 1896, P 16.

الصناعات الفخارية:

كانت هذه الصناعات منتشرة نتيجة لتوفر المواد الأولية بكثرة وكذلك لقدم وعراقة هذه الحرفة في هذه المنطقة، كانت تمارس هذه الحرفة من الأب إلى الإبن كما إنتشرت عبر الحواضر المدروسة، حيث شكلت فرعاً من فروع نشاطاتها الإقتصادية.

ففي مدينة ندرومة على سبيل المثال نجد بها ثمانية مصانع لصناعة الفخار وثلاثة أفران لتجفيف القطع المصنوعة ، وكانت هذه القطع الفخارية تشمل كل من أواني المطبخ بصفة عامة حيث كان كل مصنع ينتج 50 قطعة في الأسبوع، علماً أن الصانع لا يشتغل أيام الجمعة والأحد وهناك مواسم لا يكون فيها الإنتاج: فصل الشتاء.[14] وانتشرت هذه الصناعة في المدن الأخرى، ففي تلمسان نجد بها ثمانية مصانع[15] كما عرفت هذه الصناعة في كل من مستغانم ومعسكر، وانتشرت بمدينة مازونة حيث تحدث عن ذلك شو وذكر حيوية هذا المجال [16] كما أن التكوين المورفولوجي لظهره يتميز بوفرة المادة الطينية وكثرتها.

صناعة الجلود:

إنتشرت هذه الصناعة عبر كل الحواضر: تلمسان، مازونة، مستغانم، معسكر وندرومة وكانت هذه الحرفة موازية لحرفة النسيج، لقد إشتهرت مازونة بدبغ الجلود، وكانت هذه الحرفة منتشرة عبر كل أحياء المدينة، كما كانت منتوجات هذه الحرفة جد مطلوبة؛ ولعبت دوراً هاماً في الحياة الحرفية لمدينة تلمسان حيث كان دباغ الجلود يمونون عدة صناعات بالمواد الأولية: الجلود، منها صانعي الأحذية، إضافة إلى صناعات أخرى منها الطرز على الجلود، بقدر ما اشتهرت مازونة بدبغ الجلود ،اشتهرت مدينة تلمسان بالدبغ وتصنيع هذه المادة ويشهد على ذلك إسم الطريق الذي كانت تحمله وهو من أهم طرقات مدينة تلمسان، هذا الطريق يحمل الآن إسم طريق معسكر.[17]

إضافة إلى منتوجات معسكر ومستغانم في هذا المجال، طبعاً كان هذا ناجم عن المنتوج الرعوي الغني الذي كان يصل إلى هذه المدن.

---

(14) Janier Emile, op-cit, P 47.

(15) Cocq André Le, op- cit, P 309.

(16) Sari Djilali, op- cit, P 37.

(17) Cocq André Le, op- cit; P 309.

المطاحن:

كانت منتشرة عبر كل هذه المدن، وغالباً ما كانت تقع خارج المدينة كمطاحن مدينة مستغانم، وكانت هذه الوحدات الإنتاجية تحت مراقبة البايلك، وكان التموين بهذه المواد يتم بواسطة مطاحن الباي طبعاً. لقد كانت المطاحن تدار بالقوة المائية، فهي توجد بمحاداة المجاري المائية: الأودية والأنهار وكانت هذه المؤسسات أي المطاحن تعرف أكبر تجمع لليد العاملة، كبقية المؤسسات العمومية الأخرى، أي مؤسسات البايلك.

حيث إضافة إلى المطاحن نجد ورشات ضرب السكة وصناعة الأسلحة والمدافع والبارود، وكانت وحدات إنتاج الأسلحة موجودة بكل من تلمسان ومستغانم ومعسكر خاصة تلك التي قام بإنجازها الباي محمد الكبير لتعزيز الجانب الحربي[18]. كما عرفت مازونة خلال هذه المرحلة التاريخية إنتاج وصنع البارود. [19]

حرفة الطرز:

لقد عرفت كل من تلمسان ومازونة ومستغانم ومعسكر وندرومة الطرز على الجلود والأقمشة القطنية والحريرية، وكان يستعمل لطرز خيوط الذهب والفضة إضافة إلى الخيوط الحريرية، أما الأدوات التي كانت تزخرف بالطرز تمثلت في الأحذية، أكياس النقود، الطرابيش، الألبسة الفاخرة، الأحزمة كما كانت تطرز السروج وقد مثلت هذه الأخيرة أدوات فنية رائعة حيث كانت تقدر بمبالغ عالية [20]، لقد كانت هذه الحرفة متداولة وضمن هذه المجموعة من الحواضر لقد إشتهرت ندرومة بهذه الحرفة، حيث أن طرز سكان ندرومة كان يعكس ذوقاً رفيعاً، وكانت تسوّق إلى الخارج العديد من الكميات[21] كما عرفت مدينة مستغانم العديد من المحلات للطرز بخيوط الذهب. [22]

---

(18) Chentouf Tayeb; "Deux tentatives économiques du Bey Mohamed El Kebir à la fin du XVIII siècle" in "C.T", n- 117, 118, Tunis, 1981, P 170.

(19) Ministère de la Guerre. op-cit, 1839, P 283.

(20) Bel Alfred, Tlemcen et ses environs, Toulouse, Thiriat, P 48.

(21) Shaler william; Esquise de L'etat d'Alger considéré sous les rapports politiques historique et civil, traduction par Blanchi , Paris, Ladvocat, 1830, P 91.

(22) Pellissier (E), Annales Algériennes, 3 vol, Paris Laguionie, 1836 TI, P 244.

رغم المكانة الهامة التي احتلتها هذه الحواضر في فن الطرز إلا أن مدينة تلمسان كانت تضاهيهما، حيث إضافة إلى إحتراف الرجال لهذه المهنة فإن فئة النساء التي كانت تتعاطى الطرز كانت نسبتها هامة ونشير هنا إلى أن النساء، كنّ يتعاطين الطرز كما يتعاطين غزل الصوف وفن النسيج ومارسنه بمختلف أنواعه وفي هذا المجال نشير إلى بنات مازونة اللّواتي إشتهرن بغزل الصوف.(23)

لقد عرفت حرفة الطوز تطوراً ملحوظاً نتيجة توسع إنتاجها لكونها لم تكن تتطلب أدوات تقنية متطورة، ومتنوعة ولهذا شكلت هذه الحرفة ضمن الحياة الحرفية الفرع الأكثر إنتشاراً وتوسعاً وفي هذا المجال نشير إلى أن المنتوجات الحريرية المطرزة أو العادية من أحزمة وأوشحة على مستوى البلاد بصفة عامة كانت ذات شهرة على الصعيد المتوسطي ومطلوبة بكثرة.(24)

بالإضافة إلي هذه الفروع الهامة والرئيسية فإنّ الحياة الحرفية لهذه الحواضر خلال القرن الثامن عشر، نجد أن هناك فروعا أخرى نذكر منها: الصناعة الخشبية بكل أنواعها، حيث إشتهرت حواضرنا بالنقش على الخشب وعرفت هذه الحرفة تأثيرات عديدة منها التأثيرات الأندلسية حيث نلاحظ في الأعمال الفنية لمدينة تلمسان هذا التأثير مع تغييرات طفيفة (25) عرفت حرفة النقش صنّاعًا ذوي مستوى عالٍ عملوا على التفنن في هذه الحرفة وتغطية كل الحاجات والمتطلبات من هذه المادة.(26)

إضافة إلى الصناعة الخشبية، نحاول أن نشير إلى الصناعات المعدنية وصناعة الحلفاء وعصر الزيوت إلخ.

لقد انتشرت هذه الصناعات في جل حواضرنا وعملت على تلبية متطلبات عديدة للإستهلاك والإستعمال اليومي.

---

(23) Belhamissi Moulay; Histoire de Mazouna, P 39.

(24) Berque Jacques, L'intérieur du Maghreb, P 399.

(25) Ricard Pierre; La Menuiserie nauresque dans les monuments arabes de Tlemcen, Alger Jourdan, 1915, P 12.

(26) Ibid, P 20.

بعد إعطاء لمحة عامة عن أهم المنتوجات الحرفية التي عرفتها حواضرنا بصفة عامة خلال القرن الثامن عشر، نحاول أن نتعرض إلى كيفية هيكلة وإدارة المحلات الحرفية.

تمثل النشاط الحرفي في الوحدات الإنتاجية الحرفية في كون هذه الأنشطة تعرف دراجات مختلفة من حيث الترتيب والتطور وغالباً ما كنا نجد مرحلة الورشات كانت أكثر وضوحاً في مجال الصناعة النسيجية وصناعة الجلود إضافة إلي بعض الوحدات التي كانت تحت مراقبة البايلك وكانت هذه الأخيرة تعرف نوعاً ما التوسّع، من بين هذه المؤسسات: المطاحن، ضرب السكة، صناعة الأسلحة المدافع، وكانت هذه الورشات تشهد أكبر تجمع لليد العاملة.

لقد شكلت هذه المدن مقراً للحرف الحضرية والمراكز التجارية وقبل أن نتعرض إلي إدارة الحرف وهيكلة المحل نشير هنا إلى أن الوحدات الإنتاجية الأكثر تطوراً تمثلت في وحدات إنتاج النسيج، حيث أن هذه الأخيرة عرفت عدة أنواع وأصناف واستعمال ألوان متنوعة ونشير هنا إلي أن الأنسجة الملونة كانت من إحتكار الكراغلة أما الأنسجة البسيطة كانت من احتكار الحضر، حيث أن إنتاج الأغطية الملونة كان يتطلب تقنيات هامة.[27]

كان إنتاج الورشات النسيجية يرتفع من موسم إلي آخر وتعتبر المرحلة الأكثر إنتاجاً: موسم الخريف حيث يعتبر هذا الفصل موسم الزواج والحفلات [28] ولهذا تكثر الطلبات وتعرف الورشات الحرفية نشاطاً مكثفاً وحركة مستمرة على منتوجاتها، أي أن إرتفاع الطلبات يشجع ويعمل على ارتفاع وتوسيع الإنتاج، حتى اليد العاملة يرتفع عددها وتكثف ساعات العمل.

هناك ميزات ميزت الحياة الحرفية لهذه الحواضر، منها تنوع الإنتاج الحرفي، حيث نجد في هذه الحواضر جل الحرف المتداولة آنذاك ورغم بعض الصعوبات إلا أن مدن كتلمسان وندرومة إضافة إلى معسكر ومستغانم ومازونة إشتهرت بالثراء الحرفي وبدرجات مختلفة طبعاً، وغالبا ما نركز أثناء الإشارة إلى الأمثلة على مدينة تلمسان كنموذج للحياة الحرفية؛ ما هو صحيح فيما يخص حرف مدينة تلمسان ينطبق على كل شمال إفريقيا سواء فيما يخص الإنتاج الحضري أو الريفي.[29]

---

(27) Bel (A) et Ricard, (P); le travail de la laine à Tlemcen, Alger,Jourdan, 1913, P 60.

(28) Ibid, P 61.

(29) Bel Alfred, Projet d'une enquête générale sur les industries traditionnels des indigénes Nord-Africain (Musulman et Juifs), Alger, Société historique, 1936, P 2.

الميزة الثالثة التي طبعت بها الحياة الحرفية هي تنوع اليد العاملة الحرفية، حيث ضمت كل من الأندلسيين والحضر واليهود والكراغلة وفئات أخرى مساعدة احتلت مجالات مكملة في مجال الحرف كأشغال ثانوية، نذكر من هذه الفئات السود مثلاً، والفئات التي قدمت من البوادي والقبائل المجاورة للمدن. إضافة إلى تنوع اليد العاملة أي الحرفية والصناعية من فئات بشرية مختلفة، هناك ميزة أخرى طبعت جانباً هاماً من الحياة الحرفية، وهي العمل العائلي، حيث أن هذه الميزة ميزت بحق الحياة الحرفية آنذاك.

تنظيم الحرف:

لقد كانت الحرف منظمة بالشكل التالي: إضافة إلي تخصص بعض الأحياء بحرف معينة، يخضع هذا الترتيب لمنطق موقع الحرفة من حيث القرب والبعد عن مركز المدينة وهذه الميزات غالباً ما كانت متوفرة في جل المدن العربية الإسلامية آنذاك.(30)

لقد كانت الحرف منظمة على شكل وحدات بعد الأحياء، حيث نجد: وحدات دبغ الجلود، وحدات صانعي الأسلحة، وحدات المصوغ.(31) إضافة إلى وحدات الخشب والفخار.

إنّ التخصّص الحرفي للأحيا، فرض على الحرفيين المنتمين إلى الوحدات الحرفية عملية التعايش والتي نمت لديهم حسّ التضامن بدل التنافس وطموحه، بدون شك التنظيم على أساس وحدات جزء السكان إى مجموعات متباينة ومتجانسة ونوعاً ما ضعيفة العدد (32) متباينة لأن التنظيم كان على أساس شرائح تتقارب من حيث الدخل والرتبة الإجتماعية أما الضعف في العدد فذاك راجع لهذا التجزء على أساس وحدات وشرائح.

---

(30) يكفي أن نشير إلى أعمال ماسنيون حول المدينة العربية الإسلامية وأعمال ريمون حول القاهرة والمدن العربية الكبرى في العهد العثماني، إضافة إلى أعمال لتورنو وسوفاجي وذلك حول دراسة تمركز الحرف عبر الأحياء في المدن العربية سوفاجي حول حلب ولتورنو حول المدن الإسلامية لشمال إفريقيا.

(31) Benachenhou Abdellatif; Formation du sous développement en Algérie, Alger, SNED, 1978, P 38.

(32) Raymond André; Artisans et commerçants, P 216.

بعد إختصاص الأحياء بحرف معينة، نجد الوحدات، وبعد ذلك نجد المحلات، كانت ورشات العمل، المحلات أبوابها مفتوحة على الطريق، حيث تكون دائماً في مدخل المنزل، أي المنازل العربية بصفة عامة، والأبواب دائماً مفتوحة على الطريق حتى لا يضيع الوقت للزبائن الذين يجدون وبسهولة أرباب المحلات، كما أنّ بعض المحلات أمام إرتفاع أسعار محلات من هذا القبيل تكتفي بمحلات في الطابق السفلي، إضافة إلي أن الكثير من الصناع يشتركون في محل أو محلات وذلك رغبة في تقاسم الكراء ولكن دون جمع الأعمال طبعا.[33]

لقد كانت الوحدات الإنتاجية مهيكلة بشكل منظم ومحكم حيث كان يوجد على رأس كل وحدة أمين، ونجد على مستوى المحل بصفة عامة العمال أو الرتب التالية: الصانع الحرفي وهو ما يلقب بالمعلم أو العارف، ثم هناك الصانع ثم الخلفه ويأتي بعد ذلك المتعلم.[34]

إن هذه الهيكلة للوحدات والرتب المهنية هي جد مشابهة لما كان سائدا في أوروبا خلال العصور الوسطى حيث أن المعلم أو الصانع مالك لوسائل الإنتاج و يسير بصفة فعلية العمل، كما يعمل على كسب العمال والمتعلمين الحرفة.

إن عدد الصناع كان يحدد من طرف الوحدة، حسب مقاييس الأقدمية وتوسع السوق [35] وحسب ما تتطلبه الصنعة.

سنتناول الآن بالشرح. هذه الرتب المهنية، ونحاول أن ندعم ذلك بأمثلة، ونأخذ مجال الصناعة النسيجية كأرضية تطبيقية، وذلك لكثرة النماذج وتوسع هذا المجال الحرفي وانتشاره بصفة واسعة عبر هذه الحواضر المدروسة، ونشير هنا إلى أن في جل الحرف نجد هذه الرتب المهنية، رغم وجود بعض الإختلافات الطفيفة جداً ناجمة عن ما تقتضيه الحرفة من مهارات ومستويات تقنية ويد عاملة.

---

(33) Bel Alfred et Ricard Pierre; op- cit, P 56.

(34) Golvin Louis; Aspect de l'artisanat de l'Afrique du Nord, Paris, P.U.F, 1957, P 32.

(35) Benachenhou Abdellatif; op- cit, P 38.

الأمين:

كان علي رأس كل حرفة أمين، حيث هناك أمين الخياطين، وأمين الدباغين، وأمين النحاسين وأمين الحدادين، وأمين الصباغين إلخ. كان الأمين يعين من طرف قائد البلاد أو ما كان يلقب بقائد الدار [36] مبدئياً الأمين يقوم باقتراحه رؤساء الوحدات الحرفية، لكن من الممكن أن لا تأخذ السلطة الإدارية هذا الإقتراح بعين الإعتبار. وتقوم بتعيين من ترغب فيه وذلك لمدى الحياة، إن الأمين موظف حقيقي يعيش مع الوحدة؛ يمارس في غالب الأحيان الصنعة التي يحسنها، إن وظيفة الأمين هي في نفس الوقت إدارية وقضائية، فهو يشخص الوحدة ويلعب دور شخصية أخلاقية، عندما تمس المصالح العامة للوحدة فهو الذي يمثلها ويدافع عنها، إضافة إلى هذه المهام، فالأمين يشرف علىٰ صندوق إجمالي ممون بحقوق الرؤساء، وهذا الصندوق الغرض منه القرض.

الأمين هو كذلك عامة صانع يسعى لمراقبة جودة ونوعية الإنتاج، ويحمي إحتكار الوحدة كما يعاقب محاولات الغش ويحكم في المناوشات ما بين المشترين والمنتجين، وفي حالة صعوبة يستشير المجلس [37] وهذا من أجل إحترام العادات والتقاليد في عالم الحرفة كما يسعى الأمين لآحترام المهنة واحترام الإرتقاء على أسس مهنية صحيحة داخل الوحدة.

على مستوى المحل نجد المعلم أي الصانع هو الذي يقوم بشراء المواد الأولية الصوف في حالة النسيج، حيث أن الصوف كان يقوم بنزلها وغسلها بصفة عامة النساء في البيوت وتصل إلى سوق الغزل جاهزة، ومن هذا السوق أي سوق الغزل يقوم المعلم الصانع بشرائها وفي حالات عديدة كان يشترى الصوف ويُغزل على مستوى المصنع، إضافة إلي الصوف يقوم الصانع بشراء الأصبغة عند الحاجة، حيث أن الأصبغة المستعملة في المنتوجات كانت أصبغة معدنية وكميائية، فقد كان بائع العقاقير ينتقل كل سنة إلى العاصمة من أجل شرائها بالجملة. [38] ثم بعد ذلك يقوم ببيعها في السوق المحلي للمدينة.

---

(36) قائد الدار هو نوعاً ما يعرف بالمحتسب، وهو يقوم بإدارة المدينة، وهو مسؤول عن الشرطة وعلى القضاء، وتحت أوامره الأمناء، وهو الذي يعني بالتنظيم والإحترام المحكم المادي والمعنوي للمدينة، من خلال شخصه تتجلى العلاقة الموجودة ما بين الجانب الروحي والنشاط الإقتصادي، حيث أن هذه العلاقة يجسدها مخطط المدينة وذلك من خلال تجاور المسجد والقيصرية، راجع:

Pauty (E), "Villes spontanées et villes créées en islam", in "Annales de l'Institut d'Etudes Orientales", T IX, année 1951, P 71.

(37) Stambouli (F) et Zg'hal (A); "La vie urbaine dans le Maghreb précoloniale" in "A.A.N", n-XI, 1972, P 201.

(38) Janier Emile; op - cit , P 46.

إضافة إلى ما سبق فإن المعلم الصانع يقوم بالتعامل مع الزبائن" كما يقوم بتوزيع المهام مابين العمال، إضافة إلي ذلك فهو يراقب العمل ويقوم بعملية النسيج[39] أي يمارس المهنة أو الحرفة الخاصة بالصنعة التي يشرف عليها بعد المعلم نجد عدد من العمال يقومون بأعمال مختلفة حسب السلم المهني لتلك الحرفة، ونعود دائماً إلى حرفة النسيج بما أننا أخذنا هذا كنموذج، فبعد الصانع نجد الخلفة أو الصناع وهم موزعين على الشكل التالي: هناك الصفاح الذي يقوم بمراقبة السلاسل ثم الصانع وهو النساج، السدايدي وهو نساج يشتغل لوحده على آلة نسيج صغيرة. الرداد وهو عامل يشتغل مع الصانع، ثم المدور وهو شاب يكلف بتكبيب الصوف، ثم المتعلم ويعمل هذا الأخير على تعلم الصنعة، كما يكلف بقضاء كل اللوازم، وهكذا فإن عدد العمال والمتعلمين يختلف من مصنع إلى آخر.[40]

كما سبق وأن ذكرنا إن الإرتقاء في المهنة يتطلب إثبات المهارات والتحلي بالصبر في اكتساب الخبرة، قبل الوصول إلى رتبة معلم أو صانع يجب أن يمر المتعلم على كل الرتب كما أن الإرتقاء لا يتم إلا بعد موافقة الأمين كما أن هذا الأخير يعتمد على مستشاريه خاصة عند تعيين المعلم الصانع.[41]

أما أدوات العمل، نلاحظ بصفة عامة أن الأدوات التقنية بقيت كما كانت في السابق، الوسائل المستعملة لازالت تقليدية بصفة عامة، ونلاحظ أن بعض المجالات التي لا تستحق أدوات عديدة مثل الطرز على الجلود أو القماش، فقد كانت هذه الحرفة مشهورة وشكلت هذه الصنعة فنًا حقيقيا[42] كما عرفت رواجاً هاماً.

إن الوحدات الحرفية لم تكن وحدات ذات مهام إنتاجية فقط تحمي أصحاب كل حرفة من التعدي وتضمن مستوى مقبولاً للحرفة وتنظم العلاقات وتجعل من العمل قيمة أساسية من قيمها وتضفي عليه عمقاً روحياً[43] بل كانت عبارة عن شريحة تعكس لنا كل جوانب الحياة، هكذا كان للوحدة الحرفية بالإضافة إلى المهام الإنتاجية مهام أخرى، حيث أن العمل بهذا الشكل خلق تقاليد في مجال الإنتاج وفي مجالات أخرى منها الإجتماعية والثقافية، حيث كانت الوحدة تقوم بمهام إجتماعية في صالح العمال، فهي تقوم بتنظيم تبرعات، ومنح سلفيات في حالة مديونية عامل نتيجة زواج أو وفاة أحد أقاربه، وكانت هذه المبالغ تسحب من صندوق التضامن للوحدة.[44]

---

(39) Bel Alfred, Ricard Pierre; op-cit , P 61.
(40) Idem.
(41) Golvin Louis, op- cit, P 33.
(42) Raymond André; op- cit, P 218.
(43) رؤوف، عبد السلام، "الملامح الإجتماعية لنظام الأصناف في العراق إبان العصر العثماني" منشورات مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية في العهد العثماني، 1986، ص 447
(44) Stambouli et Z ghal, op-cit, P 202.

لقد كانت الوحدات الحرفية تعيش في تضامن وحياة عملية وإجتماعية خلقت ظروف عمل وعلاقات إجتماعية وعملية يسودها التفاهم والوءام كما كان لكل وحدة حياة ثقافية ثرية حيث كان لكل واحدة منها شيخها الروحي، وكان المنتجون ينضمون سنوياً حفلات للتبرك بالوالي ويشتركون جماعياً في هذا الحفل .(45)

كما أن هناك أغاني الحرف، وهي خاصة ببعض الوحدات، يؤديها العمال أثناء العمل، وغالباً ما تكون هذه الأغاني لها علاقة بالعمل الممارس أو برئيس الوحدة أو عائلته وأشياء مقدسة. (46)

وإشتهرت بهذه التقاليد بصفة عامة الصناعات النسيجية، وهكذا نستنتج أن الأنشطة الحرفية غذت ونمت المجالات الثقافية والروحية بممارسة هذه الأنشطة، بل ساهمت في وجود جو ثقافي متنوع وثري.

(45) Stambouli et Z: ghal, op-cit, P 201.

'(46) Bel Alfred, Tlemcen et ses environs, P 51.

II الوظائف التجارية:

1 التجارة الداخلية:

من خلال تناولنا للأنشطة الحرفية حاولنا أن نشير إلى أهم الأنشطة الحرفية الموجودة أنذاك و الممارسة في الحواضر المدروسة،كما أشرنا إلي المجال الجغرافي ضمن هذه المدن والذي كانت تحتله هذه الأنشطة أما من خلال عرضنا للوظائف التجارية نحاول أن نركز على العملية التجارية متناولين أهم السلع المعروضة للبيع والتي كانت تقوم بإنتاج جزء هام منها، كما نتناول ما كان يصل إلى المدينة سواء من المناطق المجاورة أو البعيدة وذلك من خلال تعرضنا إلى العلاقات التجارية سواء بين المدن أو الأقاليم مركزين على أهمية تنقل السلع ودور السوق في هذه العملية، ثم بعد ذلك نتعرض إلى العلاقات ذات المدى البيعد، بين المناطق البعيدة.

شكلت هذه الحواضر مراكز تجارية هامة، حيث عرفت أسواقها حركة تجارية نشيطة، إن ميزات عديدة وسيمات إتصفت بها هذه الحواضر عبر المراحل التاريخية توضح لنا هذه الأخيرة الأهمية التجارية التي إتصفت بها هذه المدن، وغالباً ما كان الموقع الإستراتيجي هو الذي أعطى لهذا النشاط حيوية واستمرارية، بل غالباً ما تحدد الموقع نتيجة بروز هذا النشاط، و يكفي أن نشير إلى أهمية موقع تلمسان الإستراتيجي، عبر أهم الطرقّ التجارية سواء شمال جنوب أو شرق غرب.

إن العلاقة بين المدينة والطريق علاقة جدلية فالمدينة تغذي الطريق والطريق يمون المدينة وكثيراً ما يأخذ الطريق نفساً جديداً لمروره عبر مدن هامة: مراكز حرفية أو تجارية هامة.

إن وقوع مدينة مازونة على الطريق الكبير من الأطلسي إلى تونس والذي كان يشمل المدن التالية: فاس، مكناس وجدة، تلمسان، القلعة، مازونة، مليانة، الجزائر قسنطينة إلى غاية تونس حيث أن هذا الموقع أعطى لمازونة أهمية كبرى (47) فوقوع مدن على طرق تجارية هامة قد ساهم في تحفيز الأعمال الحرفية والتجارية وذلك قصد المساهمة كحلقة نشيطة ضمن العلاقات التجارية.

إن المدن المتناولة بالدراسة عرفت مشاركة فعالة وحياة تجارية نشيطة وهذا ناجم عن وجود طرقات تجارية هامة، والتربع على أحواز وفحوص غنية بالمنتوجات الزراعية والحيوانية، فهذه المقومات لحياة تجارية نشيطة توفرت في حواضرنا وإن كانت بدرجات مختلفة من مدينة إلى أخرى طبعا. قبل أن نتعرض إلى كيفية هيكلة السوق والتعرض لأهم السلع، يجب أن نشير إلى ميزة طبعت أنشطة المدينة العربية الإسلامية بصفة عامة وهي غالباً ما كان هناك تداخل بين العملية الإنتاجية والعملية التجارية، ميزة أساسية للعديد من الأنشطة، وحتى في الفنون الأكثر شهرة، فالصانع كان هو البائع كذلك، إن صعوبة ملاحظة قطاع خاص بالنشاط الحرفي وقطاع خاص بالتجارة من غير الممكن وكإفتراض أن هذا الخلط في الأنشطة من أسبابه الأساسية محدودية الإنتاج الحرفي، وغياب سوق حقيقي وغياب رؤوس أموال جعلت صعباً كلّ عملية تفرقه واضحة لعملية الإنتاج وعملية البيع.(48)

كما كانت الورشات الصناعية تحت مراقبة البرجوازية التجارية، حيث أن التاجر بائع الجملة يمون الوحدات حسب التخصص، ويراقب البيع، فهو الوسيط ما بين المدينة والريف، هذا التنظيم التجاري والصناعي يوجد بصفة أوضح في المدن الكبرى مثل مدينة تلمسان وبدرجة أقل في المدن الصغرى مثل ندرومة والحواضر الأخرى.

(47) Belhamissi Moulay, Histoire de Mazouna, P 39.
(48) Raymond André, Artisans et commerçants, P 213.

الأسواق:

لقد شكل سوق المدينة مجالاً تجارياً هاماً، حيث تعرض فيه جل منتوجات المدينة الصناعية، إضافة إلى منتوجات المناطق المجاورة والمنتوجات الزراعية والحيوانية للأحواز والفحوص التابعة للمدينة، إضافة إلى منتوجات مناطق أخرى. حيث مثلت أسواق المدن مراكز إلتقاء هامة على مستوى تبادل السلع وانتقال الخبرات ومراكز ساهمت في انتقال السلع إلى مراكز ومناطق أخرى ونشير هنا إلي سوق مدينة ندرومة حيث شكل نقطة لقاء هامة لكل منطقة ترارة وعلى مستوى أوسع كان يقصدها تجار من أجل البيع والشراء قادمين من مدن عديدة منها: وجدة، مغنية، تلمسان، القلعة، أي قلعة بني راشد ومازونة، حيث قدر عدد المترددين على سوقها أي الأيام المخصصة للأسواق أو يوم السوق الأسبوعي ما يزيد عن 4000 شخص[49] وكانت لمدينة ندرومة علاقات تجارية واسعة حيث وصلت إلى غاية مدينة فاس وطنجة، كما كان لها علاقات دائمة مع مدينة تلمسان ومدن أخرى من مدن البايلك.[50]

إضافة إلى هذا لقد شكل السوق نقطة لقاء ما بين الجبل والسهل، على مستوى تبادل المنتوجات، كما شكل السوق مجالاً يعكس العلاقات التكاملية التي سادت بين هذه المناطق، يعتبر سوق مدينة تلمسان أهم سوق على مستوى البايلك نتيجة وقوعه على المحاور التجارية الكبرى حيث أن العملية التجارية كانت تتضمن منتوجات فلاحية مقابل مواد مصنعة أوروبية أو مغربية وجنوبية، هكذا إستفادت المدينة من موقعها على ملتقي الطرق تلك التي تأتي من فاس باتجاه وهران، وتلك التي تأتي من الصحراء وتنتهي عند إحدى موانئ المنطقة[51] نذكر أهمها: حنين الغزوات، مستغانم، ورشفون، ثم المرسى الكبير ووهران بعد إسترجاع المدينة.

لقد كانت تمارس التجارة الداخلية للحواضر على عدة مستويات وهي: هناك تجارة يتداولها تجار الجملة وتجار الأسواق وهناك نشاطات المحلات الصغيرة في الأحياء [52] وهؤلاء التجار، وإن إختلفوا عن الحرفيين بواسطة حياتهم المهنية فإنهم يتشابهون من الناحية الإجتماعية يعيشون بدون رصيد مالي، أي لا يملكون ثروة كبيرة بل يعيشون من مردود مدخولهم اليومي.

---

(49) Prenant André, "La propriété foncière des Citadins dans les régions de Tlemcen et Sidi Bel Abbes", in "A.A.G", no 3, janv-juin 1967, P 24.

(50) Canal Joseph, "Monographie de l'arrondissement de Tlemcen", in "B.S.G.A.O", T VIII, 1888, P 263.

(51) Esquer Gabriel; Iconographie historique de L'Algérie, 3T, Paris, PLon, T. II, voire cartes - P CLXX.

(52) Tourneau Roger Le, les villes musulmanes, P 67.

أما باعة الجملة والسوق فينتمون لمجموعة أخرى، إذ نجد أن تجار المحلات الصغيرة يدعون بحوانتي، بينما تطلق كلمة تجار على تجار الجملة وهم يشكلون بورجوازية متوسطة هذه هي الشرائح الإجتماعية التي تتحكم في السوق، وهذه الشرائح الإجتماعية التي تمثل فئة التجار، فلقد كان منهم الحضر، والأتراك والكراغلة إضافة إلى اليهود والمغاربة، منهم الفاسيين في تلمسان، إضافة إلى عدد هام من الرياس والبحارة تعاطوا التجارة لأن هذا النمط من الحياة هو أكثر إستقراراً وأخطاره قليلة[53] إضافة إلى أن القرن الثامن عشر لم يعد البحر مورد ثروة كما كان في السابق بالنسبة للبلاد عامة ولهذا نلاحظ هذا التغير في النشاطات من بحارة إلى تجار، وبما أن هذه الفئة كانت تملك رؤوس أموال هامة نتيجة نشاطها السابق في البحر، قامت بتوظيفها في مجال التجارة، لقد اتصف القرن الثامن عشر بصفة عامة بمرحلة غلق أبواب البحر وفتح أبواب الداخل وفي هذا المجال لعبت التجارة سواء الداخلية أو الخارجية دورا هاما كمصدر ثروة ورفاهية.

هيكلة أسواق المدن :

أما كيفية تنظيم السوق الداخلي للمدينة، من حيث عملية ترتيب المبيعات، وأيام عقد السوق،فدراستنا لنشاط التجاري تقتضي منا أن نبدأ بدراسة كيفية تنظيم وهيكلة السوق المحلية للمدينة، لأن ترتيب وتنظيم هذا الأخير يعكس لنا أشياء عديدة منها: كمية ونوعية البضائع" المعروضة ومدى هيكلة السوق ودرجة التوسع والإنفتاح ودرجة الإنكماش.

إن دراسة طوبوغرافية للأسواق تبرز لنا ملاحظة منطقية. تظهر خطوطها العريضة والمتمثلة في: وجود تجارة نبيلة وحضرية بحتة وتجارة ذات إستعمالات ريفية والمترددون عليها هم الريفيون، وهذه الأسواق ترتيبها الطوبوغرافي يحتل الأطراف وذلك تسهيلاً لتنشيط حركتها، فقربها من الأبواب يجعل العملية سهلة. فالأسواق التي تحتل الأماكن المجاورة للأبواب، نذكر على سبيل المثال منتوجات الحدادة، وإذا ابتعدنا عن الأبواب نجد الخضر واللحوم ثم النحاس والفخار والمنتوجات الخشبية وصعوداً نحو قلب المدينة نجد صناعة الأحذية، ثم النسيج والعطور، ثم الكتب علماً أن هذه البضائع الأخيرة النسيج والعطور والكتب إضافة إلى الصياغة، تقودنا إلى المسجد المركزي.[54]

---

(53) Haido diego-De, "Topographie du royaume d'Alger", in" R.A", T. 15, P 52.
(54) Marçais Georges, "La Conception des villes dans l'islam, in "R d'Alger", n 10, 1945, P 530.

وهذه الميزات العامة لترتيب الحرفيين والتجار هي مشابهة في جل المدن التي تنتمي لهذا النمط من التنظيم لأنها تخضع لمنطق هيكلة سوق المدينة العربية الإسلامية بصفة عامة وغالباً ما حجم السوق يحدد حجم المدينة، حيث تنموا المدينة تبعاً لنمو سوقها.[55]

لقد كان لكل منتوج مكانه المعين في السوق كما نجد من أسواق الأطراف، بالإضافة إلى الحدادين تصنيف سوق الحبوب، ففي مدينة ندرومة على سبيل المثال نجد سوق الحبوب يوجد بالقرب من سور المدينة بالمنطقة الشمالية، قريب من أهل الريف.[56]

لقد توزع الحرفيون والتجار عبر أماكن متعددة وطرقات عبر الحواضر، وهذا ما يشير إلى أنهم كانوا موزعين على أساس مهني، حيث إشتهرت بعض الطرقات ضمن السوق الحيويتها بنشاطها وذلك لكون المنتوجات المعروضة فيها تجذب عدداً هاماً من الزبائن، ففي مدينة معسكر نجد الطريق الرابط بين وسط المدينة والباب المؤدّية إلى حومة بابا علي، وحتى خارج الباب نلاحظ مواصلة الحركة حيث نجد على طول هذا الطريق دكاكين متنوعة تابعة للتجار اليهود والحضر، تستمر هذه الدكاكين حتى خارج الباب، ونجد بوسط المدينة سوق الحبوب، وهو مغطى كما تباع الصوف بالقرب من سوق الحبوب، بالإضافة إلى الدكاكين المختصة لبيع الصوف نجدها تباع في الطرقات وخاصة على ضفاف هذا الطريق التجاري الهام بالمدينة ونجد به كذلك تجار الزرابي والبرانيس وهناك فندق الغرب المخصص لتجار المغاربة والتلمسانيين وآخر تودع به بعض السلع.[57]

كما يعتبر طريق معسكر بمدينة تلمسان الطريق الأكثر حيوية، حيث يشغلها تجار الأنسجة القطنية، والقماش والزرابي، إضافة إلى الأغطية، كما نجد الأواني النحاسية، ونجد كذا العديد من الحرفيين وأكثر حي يتردد عليه الريفيون هو طريق معسكر وذلك ناجم عن تنوع ما يبحثون عليه، ونلاحظهم على شكل أعداد هامة يترددون على المحلات عند نهاية هذا الطريق نجد صانعي الأحذية وركائز من هذه الأخيرة كما نلاحظ العديد من العمال منهمكين بدون إنقطاع في صناعتهم الأنيقة.[58]

---

(55) Massignon Jouis, Opéra Minora, T.I, P 373.

(56) Sari Djilali; op-cit, P 45.

(57) Emerit Marcel; L'Algérie à l'époque d'A.E.K, P 80.

(58) Lorral (E De); "Tlemcen", in Revue" le Tour du monde", 1875, P 363.

وهناك مركز نوعاً ما مستقل وهو سوق الغزل ،أين تأتي النساء لشراء ما يستحقنه[59]، حيث كان سوق الغزل أو الصوف المخصص للنساء لمدينة ندرومة يحتل ركناً من وسط المدينة، الملقب بالتربيعة قرب الجامع الكبير، وكان سوق الحيوانات خارج أسوار المدينة، ويعتبر هذا السوق ذو أهمية كبرى في العملية التجارية [60]، وذلك لكون الحيوانات كانت تشكل فرعاً هاماً في الإقتصاد آنذاك سواء في تزويد الأنشطة الحرفية بالمواد الأولية أو لآستعمالها كوسائل عمل ونقل.

هذه هي بصفة عامة النقاط الحساسة، والأسواق المهمة في النشاط التجاري للمدينة، لقد عرفت الحياة التجارية عدة مستويات نذكر منها أولاً الأسواق الداخلية.

الأسواق الداخلية:

لقد تميزت هذه الأخيرة بحركة نشيطة وتنقلات عديدة للسلع والأشخاص؛ لقد شكلت المدينة مقر إلتقاء وتبادل ليس فقط لسكان المدينة فحسب بل حتى سكان الريف والمناطق المجاورة والبعيدة. إن التجارة معناها تبادل الخيرات، المدينة تجمع وتوزع المنتوجات التي تحصل عليها والتي تنتجها.[61]

كانت تعقد بهذه الحواضر أسواق أسبوعية، حيث تشهد المذينة في سوقها الأسبوعي حركة غير عادية نتيجة تدفق التجار والزبائن ومنتوجات متنوعة:

وشملت المبيعات كل المواد التي يحملها الأهالي الذبن يترددون على السوق، من مواد مصنعة ومواد زراعية وحيوانية.

واتصفت مدينة تلمسان بحركة يومية مكثفة للنشاط التجاري حيث أن الإحصاءات تشير إلى نشاط يومي تقريباً متساوي بدون إمكانية تمييز يوم خاص بالنشاط التجاري [62]، وكانت تتردد على سوق المدينة كل القبائل المجاورة، ويأتون كذلك من المناطق البعيدة، منهم من منطقة ندرومة وترارا[63]، كما كانت تقصد من المناطق البعيدة.

أما في مدينة معسكر كان يعقد سوقا كل يوم خميس تباع فيه كمية هامة من الحبوب والحيوانات والعنب المجفف والعسل والأقمشة إضافة إلى كل تجهيزات الخيل. [64] كان سوق مدينة معسكر ذا أهمية إلى درجة أن علاقتها التجارية كانت تمتد إلى غاية أعماق إفريقيا.[65]

(59) Massignon Louis; op- cit, P 372.
(60) Sari Djilali, op- cit, P 45.
(61) Marçais Georges, op- cit, P 529.
(62) Cocq André Le; op- cit, P 300.
(63) Ibid, P 301.
(64) Léon L'Africain, Jean; op- cit, P 338.
(65) Emerit Marcel; op- cit, P 98.

إن هذه الأسواق الداخلية بصفة عامة، والأيام الأسبوعية للسوق كانت تعكس بصورة واضحة المكانة التجارية للمدينة وعلاقاتها التجارية مع المناطق المجاورة لها والبعيدة عنها.

بالإضافة إلى الأسواق الداخلية والأسبوعية للمدينة فلقد كانت تعقد أسواق عند أبواب المدينة، طبعاً عند أهم باب والذي يربط المدينة بالطرق التجارية الهامة وعلى سبيل المثال نشير هنا إلى مدينة معسكر، حيث كان بالإضافة إلي سوقها الأسبوعي داخل المدينة، كان يعقد كل يوم جمعة وسبت وأحد سوق عند باب بابا علي،و الذي يعتبر سوقاً غنياً، حيث كان يباع فيه من بين البضائع: البارود، قشور الرومان لدبغ الجلود، لوازم الخياطة، التوابل، إضافة إلى الخضر واللحوم كما يوجد عند هذا الباب جملة من الدكاكين والفنادق التي خصّص واحد منها لتجار تلمسان والمغرب [66] وآخر للبضائع. وعند الأبواب الهامة التي أصبحت تشهد نشاطاً تجارياً وسوقاً هاماً أدت الضرورة لإقامة الدكاكين والفنادق وذلك تسهيلاً للحركة التجارية، نمو حركة تجارية عند إحدى الأبواب، نتيجة حتمية عن الحركة التجارية النشيطة والطريق التجاري النشيط لقد كان يقصد مدينة معسكر للبيع والشراء من 30 منطقة أي مدينة وناحية. [67]

كانت أهم السفقات التجارية على مستوى مدينة ندرومة تتم يوم سوقها الأسبوعي والذي كان يعقد كل يوم خميس، وكان يشهد حركة نشيطة حيث يقصده أكثر من 4000 شخص يأتون من وجدة، ومغنية، وتلمسان ومناطق أخرى. وكانت منتوجاتها رائجة وتغطي كل المنطقة، نذكر منها المنتوجات النسيجية، الفخار، والصوف. [68]

كما كانت مدينة مازونة تعقد سوقها كل يوم سبت وأحد تباع فيه المنتوجات الصوفية والقطنية، إضافة إلي مواد أخرى [69] زراعية وحيوانية ومواد مصنعة. وكانت الأهمية التجارية لمدينة مستغانم تكمن في نشاط مينائها [70] إضافة إلى ذلك فالوظائف التجارة للمدينة مرتبطة بصفة متينة بالظروف الطبيعية الممتازة التي جعلت المدينة تتصف بهذه الوظائف قبل الوظائف العسكرية والدينية، فالمدينة ذات طابع إقتصادي وتجاري بالدرجة الأولى.

لقد لعبت الأسواق الداخلية لهذه الحواضر دوراً هاماً في تنشيط الحركة التجارية والأنشطة الحرفية وعملت هذه الأسواق على تعميق تبادل المنتوجات سواء المصنعة أو الزراعية أو الحيوانية، إضافة إلى تأثيرات أخرى على المستوى الإجتماعي والثقافي.

---

(66) Emerit Marcel; op- cit, P 90.
(67) Piesse Louis; Histoire de l'Algérie, Paris ,Hachette, 1885, P 250.
(68) Prenant Thumelin, "Nédroma 1954", in "A.A.G", no 4, juil-déc 1967, P 24.
(69) Ministère de la Guerre, op- cit, 1839, P 283.
(70) Monsonégo Janine; L'activité économique de Mostaganem, P 13.

الأسواق المتنقلة:

إضافة إلي الأسواق المحلية والداخلية التي كانت تعقد داخل المدينة، هناك نوع آخر من الأسواق: وهي الأسواق المتنقلة عبر القبائل والمناطق المجاورة حيث كانت هناك تجارة دائمة تتمثل في التنقل ما بين القبائل لتزويدها بمنتوجات المدينة مقابل المنتوجات الفلاحية والرعوية وتسمى هذه العملية بالأسواق المتنقلة.

إن التبادلات مع الريف القريب كانت ذات أهمية لأنها تشمل كل المنتوجات الفلاحية سواء من أجل تموين أو من أجل تسويق هذه المنتوجات إلى الخارج (71) ورغم أهمية الأسواق المتنقلة إلا أن الأسواق المحلية الأسبوعية كانت أكثر أهمية لأن أهم التبادلات كانت تتم داخل السوق الأساسي بالمدينة، لقد سادت ما بين هذه المدن علاقات تجارية متمثلة في بيع وشراء وحركة دائمة كما شكلت بعض المراكز الحضرية نقاط ربط وإتصال لتجارة ما بين الأقاليم وكانت المراكز الأكثر حيوية تلك التي توجد على حافة السهول العليا والتل.(72)

مشكلة خط للسوق مبادلة ما بين المواد الصحراوية ومواد الشمال، وكانت تتم هذه العملية عبر تجارة الجملة وعلى شكل قوافل، كما كانت التجارة الأكثر إمتداداً وإنتشاراً والأكثر وزناً تلك التي تأتي من الحواضر الكبرى كتلمسان مثلاً، حيث أن في نهاية فصل الربيع تغادر القبائل الصحراوية أماكنها حول المدن وتتجه لتقترب من التل تحمل الجمال بكل المواد التي تنتجها أراضيهم وأنشطتهم الصناعية متجهة نحو الشمال، طيلة فصل الصيف حركة كبيرة وتجارة تقوم على ضفاف شلف حيث كل قبيلة تشتري ما تريده لفصل الشتاء، فطيلة هذا الموسم عملية البيع والشراء قائمة.(73)

إن أهم الأسواق التجارية على مستوى البلاد تلك التي كانت تعقد بالمنطقة التلية (74)، حيث أن في تنقل القوافل من منطقة إلى أخرى كانت عملية تتضمن حركة تجارية نشيطة. أما التجارة مع المناطق الصحراوية فقد كانت تعرقلها المناوشات" بين القبائل وتتم عبر مراحل، حيث أن كل عرش يحمل تجارته إلى حدود أراضيه ويقوم ببيعها إلى جيرانه.

---

(71) Tourneau Roger-Le; op-cit, P 76.

(72) Gallissot René; "Essai de définition du mode de production de l'Algérie précoloniale" in "R.A.S.J.E.P", volume V, n- 2, 1968, P 389.

(73) Primaudaie Elie- De La; Le Commerce et La navigation de L'Algérie avant la conquête Française, Paris, CH- La hure, 1861, P 216.

(74) Mauroy (M); Précis de L'Histoire et du Commerce de l'Afrique Septentrionale depuis les temps anciens jusqu'au temps moderne, 4e édition, Paris, Royal, 1852, P 136.

وهكذا تنتقل المنتوجات من عرش إلى آخر ويأتي تجار التل للتبادل مع سكان الجنوب الصوف مقابل الحبوب، وضمن هذه العملية منتوجات السودان تأتي مكملة وليست أساس العملية، وغالباً ماتقوم القبائل الشبه البدوية بالتنقل إلى القبائل البدوية من أجل شراء التمر والمواد السودانية مقابل الحبوب ومواد مصنعة.[75] إن صعوبة المواصلات جعلت التجارة الخارجية للمدن ضيقة النطاق وهكذا فإن العلاقات مع الريف القريب بالمدينة كانت تعكس وتشمل كل المنتوجات سواء من أجل تموين المدينة أو التصدير.[76]

لم تكن العلاقات التجارية التي سادت بين مدن بايلك الغرب الجزائري خلال هذا العهد تقتصر على العلاقات القائمة بين مختلف الحواضر المدروسة، بل غالباً ما تجاوزت هذا النطاق وكانت لهذه الحواضر علاقات تجارية مباشرة مع مدن مختلفة من البياليك الأخرى ونشيرهنا كيف كانت منتوجات معسكر خاصة البرانس تنافس منتوجات الشرق أي بايلك الشرق نتيجة الجودة وكانت منتوجات تلمسان التي تقصد العاصمة هامة، حيث كان المستلزم بالرسومات الجمركية (ضريبة السوق) إذا جاءت قافلة من تلمسان يأخذ عليها دينارين لكل حمل وإذا جاء بني عباس يأخذ 58 درهم لشليف[77] وربما كانت بضائع تلمسان يدفع عليها بالدينار وذلك لأهمية الحمولات ونسبة الكمية، وهذا حسب ما نص عليه بيان قانون باب عزون بالجزائر العاصمة.

لكن مهما كانت العلاقات التجارية ما بين المدن والمناطق البعيدة تعكس وجود حركة تجارية وعلاقات دائمة ومستمرة ما بين المدن والمناطق، إلا أن العلاقة بالريف القريب إكتسبت أهمية حساسة فالعملية ما بين المدينة والريف تعكس وجود علاقات مختلفة، وعلى مستويات متعددة سنشرح ذلك في إطار علاقة المدينة بالريف. بعد التعرض لمختلف جوانب التجارة الداخلية سواء على مستوى المدينة، أوعلى مستوى علاقاتها الخارجية سواء بالمحيط القريب منها، أو بالمناطق البعيدة، وبعد ذلك نتعرض إلى التجارة الخارجية.

---

(75) Emerit Marcel; "Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVIII et au debut du XIX siecle", in "T.I.R.S", n 19, 1954, P 36.

(76) Tourneau Roger- Le; op- cit, P 76.

(77) مجهول: مجموعة قوانين بالجزائر على الأسواق ،مخطوط رقم 1378 بالمكتبة الوطنية، ورقة 64.

2 التجارة الخارجية:

تمثل التجارة الخارجية المفتاح لفهم النمو الحضاري للمغرب العربي عامة [78]. فبقدر ما تتوسع هذه الأخيرة تزدهر الحياة الحضرية. إن توسع المدن عرف ازدهاره عندما كانت هذه الأخيرة ترتكز على علاقات تجارية ما بين المدن وعلى مستوى دولي، هكذا في التشكيلات الإجتماعية والتجارية فإن فترات المدنية الحضرية تتلاءم مع مراحل رفاهية تجارة المدى البعيد وتجارة عبر الصحراء [79] وضمن هذا الإطار يحتل بايلك الغرب قلب العملية.

لقد احتلت بلاد المغرب العربي بصفة عامة منذ مطلع القرن 13 مكانة مرموقة في العملية التجارية العالمية، وذلك لإحتوائها على مدن تجارية كبرى، كانت لها مساهمة فعالة في العملية التجارية. وكانت جل مدن منطقة المغرب العربي عامة متفتحة على التجارة العالمية، بل كانت تزداد حيوية يوماً بعد يوم، وتشكل هذه الميزة، حدثاً هاماً في حياة المغرب العربي بصفة عامة، وضمن هذا الحيز الجغرافي، إحتلت المنطقة المدروسة خاصة دوراً هاماً في التجارة العالمية، حيث إنه ابتداء من القرن 13م شكلت المنطقة المنجم الذهبي لنشاط المتوسطي حيث أغنى وأعطى لتجارته قوة، ومارس هذا الدور بصفة أكثر حيوية في القرن 15م. [80] ودور مدن القطاع الوهراني في هذه العملية جدير بالدراسة، فلقد شكلت تلمسان حلقة هامة وأساسية في هذه العملية.

لقد شكل بايلك الغرب معبراً بين الشرق والغرب، والشمال والجنوب، ضمن هذه الحركات التجارية الكبرى فالمنطقة تعتبر حلقة هامة وعبر كل الأزمنة وحلقة نشيطة في هذه العملية.

---

(78) Stambouli Fredj; "Système sociale et stratification urbaine au Maghreb", in "R.T", no 50 et 51, 1977, P 86.

(79) Escallier Robert; "villes du maghreb", in "C.M.M.C", no 23, 1981, P 131.

(80) Braudel Fernand, 'Monnaies et civilisation, de L'or du Soudan à L'argent d'Amerique, un drame méditéranéen", in "R. Annales, E.S.C", janvier-mars 1946. P 89.

كان لحواضر بايلك الغرب والبايلك بصفة عامة مساهمة فعالة في التجارة الخارجية للإيالة، ذلك نتيجة لعدّة عوامل ساعدته، منها موقعه الإستراتيجي الذي شكل أرضية مرور عبر الأزمنة. فضلا عن احتوائه على محطات تجارية وإختراقه الطرق والمسالك. إن دور الوسيط الذي لعبه بايلك الغرب بصفة عامة في العلاقات المتوسطية ما بين المشرق وأوروبا، إضافة إلى إلتقاء الطرق الكبرى سواء شمال -جنوب أو شرق- غرب عبر حواضره. ونتيجة لهذا الدور الهام كان لبايلك الغرب دور فعال في حياة حوض البحر الأبيض المتوسط على مستوى التبادلات والتفاعلات التي عرفها هذا الحوض، تمثلت في المواد الطبيعية سواء الزراعية أو الحيوانية والمواد المصنعة.

إن انفتاح شمال إفريقيا بصفة عامة على التجارة الخارجية ودور بايلك الغرب في هذه العملية له تاريخ. حيث مثل شمال إفريقيا حلقة هامة خاصة عندما كان يلعب دور الوسيط في التجارة ما بين السودان وأوروبا، هكذا شكلت المنطقة عن طريق تموينها للبحر الأبيض المتوسط بالذهب المحرك لهذا الحوض.

إبتداء من القرن 15 م عرفت المراكز التجارية الموجودة بهذا القطاع قدوم وتمركز عدد كبير من التجار الأجانب تمركزوا خاصة بوهران، وتلمسان.

إن تاريخ القرن 15 م لا يتكلم إلا عن: صفقات تجارية، وامتيازات البيع والتبادل (81) وأهم الأطراف التي كانت تتعامل تجارياً مع بلاد المغرب عامة تمثلت في: الإسبان والفرنسيين والإيطاليين: وبصفة عامة لقد لعب شمال إفريقيا دوراً هاماً في الحركة التجارية سواء عن طريق تعامله مع الضفة المقابلة له من حوض البحر الأبيض المتوسط أو تزويد هذه الضفة بمنتوجات تجارية وصلت إلى المنطقة من مناطق مختلفة، منها بلاد السودان ونذكر منها الذهب.

لقد ظلت المبادلات التجارية مع السودان رائجة ولمدة طويلة، فالقوافل تنطلق مروراً بسجلماسة، وتافلالت، وجدة، وفاس قاصدة تلمسان من أجل المنتوجات التلمسانية والمنتوجات الأوروبية وتأتي بحمولات العاج والذهب حيث كانت تلمسان تتبادل مع إفريقيا السوداء مقابل العاج والذهب والعبيد مواد مصنعة شملت حتى الكتب التي كانت تطبع بتلمسان. (82)

---

(81) Braudel Fernand; la mediterranée, T.I, P 425.

(82) Ricard Pierre; "L'artisanat indigène", in "BSGAO", 1940, P 107.

وفي هذا المجال، نشير إلى أن ريش النعام قد شكل لمدّة 25 سنة فرعاً هاماً من تجارة منطقة المزاب، حيث كان يتوجه منه جزء هام إلى الشمال ثم يعبر البحر باتجاه ليفورن وفرنسا. (83)

رغم كون المنطقة، لا تنتج الكثير وبما أنها نقطة وصل بين إفريقيا وأوروبا، كانت تجني فوائد هامة نتيجة دخول وخروج السلع. وانفردت في المنطقة بأهمية كبرى باعتبار تلمسان منطقة ومركزا هاما للعملية التجارية العالمية خاصة بعد إحتلال وهران من قبل الإسبان. (84) حيث أصبحت تشكل الممر الرئيسي في عملية التصدير والإستيراد عبر ميناء حنين،وموانئ المنطقة الغزوات ورشغون لقد كانت السفن الإيطالية منافسة لميناء وهران في العملية التجارية ويرجع ذلك بالإضافة إلى توفير الأمن للسفن، إلى أن حنين ذات موقع هام غير معرض للرياح الشرقية والغربية(85)، ويعتبر ميناء حنين، ميناءً محمياً من التيارات البحرية بالمقارنة مع موانئ المنطقة، لكن بعد إسترجاع وهران وانتقال مقر البايلك إليها أصبح ميناء وهران، ميناء العاصمة يلعب دوراً هاماً في الحركة التجارية سواء في إستقبال المواد من الخارج أو تصدير المنتوجات المحلية أو تلك التي تأتي من الصحراء والسودان وهكذا مثلت منتوجات الصحراء ما يقرب من 18.000 حمولة أي 18.000 جمل محمل بسلع مختلفة (86). كانت تصل الميناء، وتصدر عبره في اتجاهات مختلفة.

لقد كانت البلاد تساهم بصفة عامة في التجارة بالمواد الأتية: القمح، والشعير، والزيت، والشمع والصوف والجلود (87) ولقد كان بايلك الغرب يساهم في الحركة التجارية بهذه المنتوجات بكمية معتبرة سواء عن طريق إنتاجه المحلي أو ما كان يصل إليه من مناطق داخلية قريبة أو بعيدة ويسوقه عبر موانئه وطرقاته إلى المناطق الخارجية.

لقد كانت كل حواضر بايلك الغرب تساهم في هذه العملية عبر البر والبحر في إطار العلاقات التجارية الخارجية فسواحل بايلك الغرب كانت أكثر إنفتاحاً على الخارج، حيث إن موانئه لم تستقبل فقط المواد التجارية لكن إستقبلت اللاجئين، القراصنة، والرحالة ورجال الدين وأدوات فنية وأفكارا مختلفة ومتنوعة في مختلف ميادين المعرفة والفكر، واستفادت المنطقة وعلى رأسها مدينة تلمسان عن ما وصلت إليه الأندلس وأنتجه في المجال الفني والمعرفي ونشير هنا إلى فن النحت على الجبس والرخام، وفن النجارة والنحت الخشبي. (88)

---

(83) Venture de Paradis; La Régnence d'Alger au XVIII Siècle, P 126.
(84) Léon L'Africain, Jean, op- cit, P 336.
(85) Primaudaie Elie de La, op- cit, P 311- 312.
(86) Emerit Marcel; " les Liaisons terrestres" P 46.
(87) Venture de Paradis; op- cit, P 123.
(88) Bel Alfred et Ricard Pierre, op- cit, P 54.

إن تأثير حوض البحر الأبيض المتوسط في المجال المعرفي كانت له أهميته ،بحيث تلقت المنطقة أفكاراً ومواد فنية هامة ومتنوعة الغرض منها تأثيث وتزيين منازل الفئة الراقية طبعاً؛ إضافة إلى التبادلات التقنية والتأثيرات الثقافية وكان الإتصال البحري يتم عبر موانئ كل من: الغزوات، وحنين، رشغون، ومستغانم وفيما بعد وهران والمرسى الكبير بعد سنة 1792 وهو تاريخ تحرير المنطقة.

إن الدراسة الجغرافية لنقاط إنطلاق الرحلات تشير إلى أن كل الموانئ الهامة والتي كانت في علاقة مع ميناء ليفورن، تجعلنا نلاحظ سيطرة موانئ المنطقة الغربية عندما تسجل المنطقة الغربية 24 رحلة تسجل المنطقة الشرقية 18 رحلة وهذه الأهمية التي تمتاز بها موانئ بايلك الغرب تعود إلى مطلع القرن 16 و17م [89]. وكانت موانئ بايلك الغرب تساهم في عملية التصدير بوتيرة نشيطة فعبر ميناء مستغانم كانت تصدر المنتوجات الزراعية والصوف والشمع باتجاه مرسيليا [90] وكانت مساهمة بايلك الغرب في تجارة الحبوب، مساهمة هامة، وأخذت هذه التجارة إتجاهاً جديداً وعرفت، إزدهاراً خاصة في عهد الباي محمد الكبير، حيث أصبحت تتضاعف يوماً بعد يوم. لقد قام الباي محمد الكبير ببناء مراكز تجارية بالمرسى الكبير ونصب وكيلاً هناك يقوم بشراء الحبوب التي يأتي بها الأهالي ثم يقوم ببيعها بموافقة الداي طبعاً، كانت السفن الفرنسية والإسبانية هي التي تتردد بكثرة على هذه التجارة.[91]

أمام هذه الحركة التجارية وتدفق هذه المنتوجات باتجاه الخارج واستقبال مواد أخرى إلا أن التجارة الخارجية خلال القرن الثامن عشر تميزت بميزة هامة، تتمثل في سيطرة اليهود على هذا المجال وذلك نتيجة العلاقات التي أقامها هؤلاء مع أوروبا وآسيا إذ نجدهم احتكروا تجارة الجلود والشمع خاصة، فطيلة القرن الثامن عشرظل جمارك ريش النعام والتبغ والصوف، وحق خروج الحيوانات يشرف عليها قائد يهودي. [92] كما يلاحظ أنه عبر جل موانئ الإيالة بصفة عامة وبايلك الغرب بصفة خاصة ومنذ الربع الأخير من القرن الثامن عشر خاصة كان الفرنسيون موجودين عن طريق اليهود الليفورنين الذين كانوا يتحكمون في مراكز البيع لأكبر الموانئ وكانت الوساطة اليهودية في العملية التجارية تستحوذ على الأرباح التجارية محمية بالداي والباي.[93]

---

(89) Braudel Fernand; Routes, ports et trafics, Paris, A.Colin, 1951, P 45.
(90) Emerit Marcel; "Memoires de Thedenat", in "R.A", T. XCII, 1948, P 341.
(91) Venture de Paradis; op- cit, P 126.
(92) Eisembeth (M), Les juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque Turque, P 349.
(93) Emerit Marcel; "La situation économique de la Régence d'Alger", in "I. H", nov- dec 1952, P 171.

رغم كون الصادرات تشمل، الجلود والصوف والحبوب ومنتوجات السهول الداخلية، ومنتوج البحر انطبعت التجارة الخارجية لهذه المنطقة بميزة أساسية تعود إلى العصور الوسطى واستمرت الميزة خلال العصر الحديث وتتمثل في أنه: كان يصل عبر كل الموانئ إلى أكبر أسواق إسبانيا وإيطاليا ما كان يأتي من الصحراء والسودان (94) خاصة الذهب وريش النعام ومنتوجات أخرى.

إن علم الآثار يؤكد لنا أن مواد ثمينة قد عبرت المنطقة، ومن جهة أخرى لقد كان للمنطقة علاقات شتى ربطتها سواء بالجنوب أو الشمال ولمدة طويلة، أكيد أنه نجم عن هذه العلاقات تداخل وامتزاج وتفاعل اللغات والتقنيات التجارية، وللكشف عن كل هذه الجوانب الحيوية لتاريخ المنطقة يكون عن طريق تعميق الدراسات التاريخية الإقتصادية والتجارية ودراسة علمية للمسالك والطرق التجارية تحت أضواء علم الجغرافيا وعلم الآثار والدراسات الأنثروبولوجية، أكيد أن هذا النوع من الدراسات سوف يثري تاريخ العلاقات التجارية بنتائج ومعطيات جديدة نجهلها الآن في غياب هذه الأدوات. (95) الموقع الهام الذي تحتله المنطقة أكسبها أبعاد وآفاق متعددة في الربط بين الحضارات.

إن المساهمة في التجارة العالمية كحلقة وصل وأرضية عبور، تعتبر ميزة حضارية أكثر منها عملية بيع وشراء مجردة من بعدها الحضاري ولهذا التأكيد على هذه الميزة والخصوصية جدير بالعناية والإهتمام في عملية التحليل والدراسة، كونها قد ساهمت في ادخال المنطقة في مجال حضاري واسع الأهداف والمجلات، فطيلة المرحلة التي جاءت بعد مرحلة الذهب السوداني أصبحت البلاد بصفة عامة قد اندمجت في الحركة التجارية العالمية وتساهم بمواد طبيعية ومصنعة وكان نصيب البايلك في هذه المساهمة يعتبر هاما، وبقدر ما ساهمت البلاد في دفع الحركة التجارية العالمية على نطاق واسع ساهمت التجارة الخارجية في نقل منتوجات المنطقة سواء المصنعة والطبيعية إلى مناطق أخرى بعيدة وقريبة، كما ساهمت في ادخال منتوجات أجنبية منها الأوربية والتي أصبحت بمرور الزمن لها تأثيرها على المنتوجات المحلية، هذه المنتوجات في مرحلة أولى كانت تتمثل في أدوات كمالية تلبي طلبات شرائح ضعيفة العدد وراقية إجتماعيا، كما شكلت عامل تبادل وساهمت في خلق تيارات تجارية (96) وتوسعت فيما بعد مواد المنتوجات الزراعية أو المواد المصنعة لتشمل مواد يستفيد منها الجميع.

---

(94) Heers Jean; "Le sahara et le commerce méditérranéen", in" A.I.E.O".; T. XVI, 1958, P 248.

(95) Devise Jean, "Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la méditerranée, un essai sur le commerce Africain médieval du XI au XVI siècles", in "Revue d'Histoire éconnomique et sociale", n1 1972, P 45-46.

(96) Mantran Robert; "Commerce maritine et économie dans L'empire Ottoman au XVIII siècle debut XIX S, Paris, CNRS, 1980, P 290.

لم تعمل المنطقة على تصدير مواد زراعية أو مواد مصنعة، ولم تكن أرضية عبور وحلقة وصل ولا مستوردة لمواد مختلفة بل ضمن هذه الأنشطة التجارية والحركات المختلفة كانت أرضية تتأثر وتؤثر، حيث التعامل والتفاعل هو الذي أكسب المنطقة خيرات و أدخل منتوجات جديدة إليها، وعلى الصعيد المغاربي فإن مساهمة الإيالة بصفة عامة في الحركة التجارية تمثل في: كون إيالة تونس تقدم المنتوجات الكمالية، بينما كانت إمبراطورية المغرب تقدم المنتوجات الضرورية وبين الإثنين تساهم الإيالة الجزائرية بالميزتين، إضافة إلى أنها تنافس الأولى والثانية.(97)

وكانت العملية التجارية داخل الإيالة بصفة عامة وبايلك الغرب بصفة خاصة تتم على النحو التالي: من الجنوب إلى الشمال عن طريق القبائل وهكذا تنتقل البضائع لتصل إلى الموانئ ومن هنا نحو التصدير؛ ومن الشرق إلى الغرب عن طريق القوافل، أمام هذه التنقلات التجارية شرقاً وغرباً، جنوباً وشمالاً فهذه الحركات المتعددة أدت إلى وجود زبائن في مناطق مختلفة، فكان تجار ملقا وفلورنسا يشترون من وهران الحبوب والزيت والجلود والشمع وحتى العبيد إلى درجة أن الحكومة الإسبانية كانت ترى في إحتلال وهران من الناحية التجارية إيجابيات كثيرة.(98)

نتيجة لهذه العوامل تميزت الحياة التجارية لبايلك الغرب بمرحلتين، حيث مثلت في المرحلة السابقة لتحرير وهران موانئ مدينة تلمسان، أي حنين ورشغون ومناء الغزوات إضافة إلى ميناء مدينة مستغانم نقاطا للبيع والتوزيع هامة في الحياة التجارية للبايلك، وضمن هذا المجال الجغرافي يعتبر سوق مدينة تلمسان أهم سوق وذلك نتيجة وقوعه على المحاور التجارية الكبرى، حيث أن العملية التجارية كانت تتضمن منتوجات ومواد مصنعة مقابل مواد مصنعة أوروبية ومغربية وجنوبية. وبعد تحرير وهران وإسترجاع ميناء المرسى الكبير وإعطاء هذه الموانئ أهميتها التجارية كموانئ لعاصمة البايلك أصبحت تشهد حركة تجارية نشيطة لكن رغم ذلك ظلت مدينة تلمسان وسوقها الذي يمثل نقطة إلتقاء الطرق التجارية الكبرى مركزا تجاريا كبيرا لعبت ولازالت تلعب دوراً إقتصادياً هاماً.

---

(97) Carette (E), Le commerce de l'Algérie, P 28.

(98) Primaudaie F Elie De La; op- cit, P 259.

ومثلت الموانئ الموجودة ببايلك الغرب نقاط حساسة في العملية التجارية، فالتجارة آنذاك كانت في أساسها تجارة بحرية سواء في التصدير أو الإستيراد تجارة بحرية أين عبورها منطقة شمال افريقيا يعتبر مرحلة ضرورية. [99] أمام هذا الدور الحيوي المتجارة في الحياة الإقتصادية، لقد لعبت فئات متعددة أدوارا هامة كاليهود مثلا ذوي العلاقات التجارية العالمية.

كما نلاحظ، فقد لعب تجار فاس كوسطاء، تجاريين بتلمسان دورا بارزا حيث كانوا يحصلون على أرباح هامة إلى درجة أن الحكم المركزي على مستوى البايلك لم يكن يتحكم في هذا السوق بصفة جيدة[100] بل كان جزء هام من صفقاته التجارية يجري تحت مراقبة تجار فاس.

وعرفت الحياة التجارية وخاصة التجارة الخارجية في عهد محمد الكبير نفساً جديداً، فلقد بلغت السلع المصدرة والمستوردة من ميناء وهران والمرسى الكبير خاصة، نسبة كبيرة [101] في سنة 1793 خرجت من ميناء وهران أكثر من 100 سفينة محملة بالقمح باتجاه فرنسا. [102]

كما أخذت التجارة الخارجية مع إسبانيا في عهد الباي محمد الكبير طابعا جديداً ونشير هنا إلى ما نصّ عليه إتفاق 27 أوت 1886 حيث صدر على هذا الإتجاه الجديد في العلاقات. [103]

خاصة العلاقات التجارية، إن كل الحمولات التي كانت تأتي تقريباً فارغة من إسبانيا تعود إليها محملة بالحبوب [104] إن تخصص التجارة الإسبانية مع بايلك الغرب بتجارة الحبوب تفسرها فترات القحط التي مرّت بها أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر، وخاصة الجنوب الإسباني الذي كان يعاني من نقص في الحبوب ونشير هنا إلى بعض الحمولات المتوجهة إلى إسبانيا حيث سجلت ما بين 1787 إلى 1789 حوالي32 حمولة، أمّا في سنة 1790 بلغت 60 حمولة من الحبوب نصفها شعير والباقي قمح كما يفسره من جهة ثانية انتاج المنطقة الوافر حيث اشتهرت المنطقة بإنتاج الحبوب ونشير هنا على سبيل المثال إلى إنتاج فحوص وحوازمازونة. [105]

(99) Eisembeth (M), op- cit, P 358.
(100) Emerit Marcel; "Les liaisons terrestres" P 37.
(101) Ibid, P 36.
(102) Emerit Marcel; "La situation économique", P 171.
(103) Aguila Luis cara- Del. Les espagnols en Afrique, P 32.
(104) Ibid, P 33.
(105) A.M.G.H.I- 228, "Notice sur la ville de Mazouna", St Hypolite, 25 Mars 1871.

إضافة إلى الحبوب كانت تصدّر إلى إسبانيا الجلود والصوف والشمع والزيت والمواشي ونتيجة لهذا النفس الجديد للتجارة الخارجية فإن الأسعار في الأسواق الداخلية قد تضاعفت أربع مرات.[106]

أما المواد المستوردة، فغالباً ما كان قسم هام منها موجه إلى شرائح إجتماعية راقية ونشير هنا إلى المنتوجات الحريرية وزجاج البندقية ورخام إيطاليا إضافة إلى هذه المنتوجات كان الرصاص والحياك تأتي من إسبانيا و مثل جبل طارق معبر لتموين البايلك بالقهوة والسكر.

لقد توسعت العلاقات التجارية مع إسبانيا وبايلك الغرب خاصة، فكانت لهذه الأخيرة علاقات تجارية مع مناطق أخرى من البلاد: الجزائر العاصمة وعنابة لكن هذا التوسع التجاري الإسباني تشرحه وتفسره عوامل أخرى بالإضافة إلى تلك التي سبق ذكرها.

إن التوسع التجاري الإسباني يرافق نمو هياكل جديدة إقتصادية في إسبانيا، كظهور الرأسمال التجاري، كما أن السياسة الإفريقية للوزير الإصلاحي فلوريدا بلنكا (FLORIDA BLANCA) تصادفت وتلاقت مع مصالح البرجوازية الناشئة للتجار الكبار، وإلتقاء هذين العاملين كان سبباً في الهيمنة الإقتصادية على البلاد.[107]

إبتداءً من 1786 إلى 1830أخد التوسع الإسباني في شمال إفريقيا شكلاً جديداً ومرحلة هامة في تاريخ العلاقات ما بين إسبانيا والجزائر.[108]

إضافة إلى التعامل التجاري مع إسبانيا، فلقد كانت هناك علاقات تجارية مع إيطاليا وفرنسا كما سبق وأن أشرنا ، وعن دور موانئ المنطقة ونشاطها الحيوي في العملية التجارية، إضافة إلى المساهمة في تسويق وتصدير منتوجات المنطقة، نجد حتى منتوجات المناطق المجاورة كانت تصدر وتستورد عبر هذه الموانئ، لقد شكل ميناء رشغون المناء الأساسي لمدينة تلمسان ومنفذا لتصدير واستراد منتوجات للمنطقة المغربية الموجودة ما بين فاس ووجدة.[109]

(106) Aguila Luis Cara Del, op- cit, P 157.
(107) Ibid, P 200.
(108) Ibid, P 343.
(109) Milson (G); "Rechgoun, port de guerre et de commerce", in "B.S.G.A.A", T. 3- 1898, P 90.

كما أن بعض الموانئ لم تكن هامة إلا نتيجة قربها أو وقوعها في منطقة غنية ساهمت في دعم ودفع العملية التجارية، كقربها من مناطق غنية، بمنتوجاتها الزراعية والرعوية أو إنتاجها الحرفي، هكذا شكلت مدينة وهران عبر مينائها منفذا لتصدير كل ما كان يصل إلى تلمسان أو تنتجه المنطقة كما أن هناك فكرة سائدة وهي أن وجود مدينة وهران يرجع إلى مدينة تلمسان، لأن تجارتها لم تكن إلا تجارة عبور (110)، هذه المنافذ البحرية ساهمت في تسويق المنتوجات الطبيعية والصناعية التي كانت حواضرنا تقوم بجمعها، وتشرف على صنعها وتسويقها، كما ساهمت هذه الموانئ في جعل المناطق الداخلية في إتصال مع الخارج، هكذا فالمناطق الداخلية لهضاب ألسارسو كانت تتصل بالخارج عن طريق ميناء مستغانم إضافة إلى المناطق الموجودة ما بين وادي الشلف وجل الحواضر الأخرى كانت تساهم في جمع المنتوجات من المناطق الداخلية سواء القريبة أو البعيدة وتسوق ذلك، عبر إحدى الموانئ القريبة منها.

لقد كانت موانئ بايلك الغرب في علاقاتها التجارية تميل إلى التعامل مع بعض الموانئ دون الأخرى وهذا يعود إلى خصوصيات تجارية وجغرافية ونقصد بذلك المسافة والقرب والعامل التاريخي إضافة إلى قدم العلاقات ما بين الميناء المصدر والميناء المستورد وفي هذا الإطار نشير إلى هذه الخصوصية بذكر بعض العينات منها: أن ميناء حنين كان له علاقات مستمرة مع ميناء ألميريا وميناء مستغانم مع ميناء مرسيليا، كما كانت هذه الموانئ والموانئ الأخرى تتعامل عامة مع الموانئ الإسبانية والإيطالية وميناء جبل طارق إضافة إلى الموانئ المغربية خاصة ميناء مدينة طنجة ومليطة حيث كانت هذه الموانئ تقوم بتجارة واسعة مع سواحل بايلك الغرب.(111)

في إطار العلاقات التجارية مع المغرب نذكر: الحركات التجارية التي كانت تنطلق من وهران وتلمسان واحدة باتجاه المناطق الصحراوية المغربية: تافيلالت (112) ثم تتجه إلى طومبوكتو عن طريق الصحراء، والثانية إلى مدينة الصويرية باتجاه الأطلسي، أو من تلمسان إلى تافيلالت والحركة المتجهة إلى مدينة الصويرية كانت صعبة وهامة في نفس الوقت، وكانت وهـران وتلمسـان تتلقى من مدينـة سلى وطنجـة وطيطـوان بضـائع هامة، خاصة الأوروبية لتتجه إلى داخل إفريقيـا إضافـة إلى المنتوجـات الزراعيـة والصناعة المحلية. (113)

---

(110) Lespès René, op-cit, P 59.

(111) Canal joseph; "Monographie de L'arrondissement de Tlemcen" in" B.S.G.A.O" T.VI 1886, P 10.

(112) تافيلالت: شكلت ولمدة طويلة مدينة هامة وملتقى للطرق التجارية، حيث كانت تشكل مكان إلتقاء كل المنتوجات القادمة من الشمال باتجاه الجنوب أو من الجنوب باتجاه الشمال وحتى من كل المنطقة التي تحيط بها باتجاه الشرق، شكلت تافيلالة مركزاً تجارياً هاماً في الحركة التجارية شمال جنوب وشرق غرب، وعرفت المدينة إنتعاشاً نتيجة هذه الحركة، كما تميزت بظهور أرستقراطية ثرية وهذا ناجم عن الحركات التجارية التي عرفتها المدينة والتي ساهمت في إفرازات إجتماعية: ظهور أرستقراطية ثرية.

(113) Thomassy (R); Le Maroc et ses caravanes, relation de la France avec cet empire, Paris, Firmindidot, 1845, P 73.

كما كانت تتلقى مدينة تلمسان كميات هامة من الصوف لتموين المحلات الحرفية ونشير هنا إلى أن تلك التي كانت تأتي من أعالي منطقة ملوية كانت جيدة مقارنة مع صوف المنطقة الشمالية التي تأتي عن طريق مدينة وجدة.(114)

وفي مجال العلاقات شرق غرب وغرب شرق نشير إلى الحركة التجارية التي كانت قائمة بين المغرب العربي عامة ومصر، حيث هذه التجارة كان ربع حجمها يمر عن طريق البر والباقي عن طريق البحر، وضمن الحجم الإجمالي لهذه التجارة فإن ربع حجمها كان مع الجزائر ضمن التجارة الإجمالية، ففي هذه العملية التجارية شكل بايلك الغرب حلقة هامة في الربط التجاري، وكل الصادرات التي تأتي من المغرب عبر البر كانت تعبر الطريق التجاري الكبير الذي كان يخترق بايلك الغرب وتوجد عليه أو بقربه حواضرنا.

إن التجارة بين مصر وشمال إفريقيا عن طريق البر كانت مرتبطة بالحركة السنوية للحج، فتوجه المغاربة إلى البقاع المقدسة تجعلهم يمرون بالقاهرة حيث كانت مرحلة ضرورية، كانت النواة مشكلة من القافلة المغربية والتي تنضم إليها قوافل الإيالات الأخرى، وتحت مراقبة الحكام المغاربة ويقودها ممثلون عن الحكم، فكانت تضم المغاربة ذوي الإهتمام الديني والتجاري أو الإثنين معا. كما نشير هنا إلى أن التجار المصريين ليس لهم أي دور في هذه العملية بل حتى في القاهرة كانت عملية التسويق تتم في الأسواق المغاربية المقامة خصيصاً لذلك. كما نشير إلى أن ضمن الحركة التجارية التي كانت سائدة بين بلاد المغرب؛ ومصر عبر البحر كانت الإيالة تساهم بحجم كبير وكانت شواطئ بايلك الغرب تشارك في تلك العملية.(115)

إن الحركة التجارية التي كانت قائمة ما بين بلدان المغرب ومصر كانت من حيث الحجم مماثلة بالتقريب للحركة التجارية ما بين مصر وأوروبا.

(114) Bel Alferd et Ricard Pierre, op- cit, P 15.
(115) Raymond André, Artisans et Commerçants, P 171- 172.

ساهمت هذه الحركة في استقطاب عدد هام من التجار المغاربة أين عدد كبير استقر بالقاهرة والإسكندرية. لقد كانت الحركة التجارية مع مصر لا تقل أهمية عن الحركة والعلاقات الثقافية والأدبية، فمهما كانت أهمية رواق المغاربة بالأزهر إلا أن العامل التجاري والنشاط الإقتصادي هو الذي يبرر وجود أغلبية المغاربة المقيمين بالقاهرة، حيث كان لهم في هذه النشاطات دورا هاما لا يقدر ولا يقاس بعددهم الإجمالي، فمن بين 283 كبار تجار القهوة والتوابل ما بين 1660- 1798 حسب سجلات المحاكم الشرعية فإن 59 تاجر كانوا من أصل مغاربي أي 1/5 التجار ويحصلون على ربع 1/4 الثروة ضمن هذه الفئة أي فئة التجار الكبار.

ونضيف إلى أن ضمن هذه الأرقام العدد الهام لهؤلاء التجار كانوا ذوي أصل مغربي وأكثر دقة من مدينة فاس إذا 99 مغاربة، 53 من المغرب و 48 من فاس والباقي أي 46 تاجر من الجزائر وتونس. (116)

هذه الأرقام والعلاقات توضح لنا مدى أهمية العلاقات التجارية التي كانت قائمة ما بين بلدان المغرب ومصر خصيصا، وهذه النظرة الشاملة والكاملة لهذه العلاقات توضح لنا مساهمة ودور البايلك في هذه الحركة التجارية، غرب- شرق. وأهمية العلاقات التجارية القائمة ما بين المشرق والمغرب العربي بصفة عامة.

كانت المنطقة تستقبل منتوجات، منها النسيجية كالقطن، والحرير وتصدر مواد سواء تلك التي تنتجها المنطقة أو تلك التي تأتي من مناطق بعيدة وتعبر المنطقة باتجاه المشرق. ومن المنتوجات المحلية التي كانت تقصد المشرق نشيرعلى سبيل المثال إلى برانيس منطقة معسكر. البرانيس السوداء ذات اللون الطبيعي والقماش المقاوم والشفاف. كانت هذه البرانيس تصدر إلى مصر وتركيا وهي جد مطلوبة. (117)

---

(116) Raymond André, "Deux familles de Commerçants Fasi au Caire à la fin du XVIII siecles", in "ROMM", no 15-16, 1973, P 269- 270.

(117) Khodja Hamdan; Le Miroir, Aperçu historique et statistique, sur la Régence d'Alger, Paris, Sindbad, 1985, P 85.

إضافة إلى هذه التيارات التي سبق ذكرها وكان بايلك الغرب يحتل مكانة هامة بمساهمته فيها، وجد ضمن التيارات التجارية غرب-شرق؛ ففي كل سنة تنطلق القافلة المغربية والملقبة بالساليين، التي كان معظم أفرادها من أصل سالي أي من مدينة سلى المغربية تحمل الحياك، وأدوات من الفضة، وأدوات مصنعة، وأصبغة، ومسحوق الذهب ويتوجهون إلى تونس قبل شهر رمضان وتعود محملة بالقماش والحرير، والشواش وكانت هذه القافلة أثناء الذهاب تعبر وتمر بالمراحل الآتية: من وجدة إلى تلمسان، ومعسكر، والجزائر، وقسنطينة، وتونس.(118)

وضمن العلاقات غرب شرق دائماً كانت تلمسان تتلقى قوافل تأتي من شرق المغرب محملة بالصوف الضروري للنسيج (119) إضافة إلى مواد أخرى وتدخل هذه العلاقة ضمن العلاقات التجارية الموجودة بين تلمسان ومنطقة تافيلالت الموجودة جنوب مملكة فاس.

إن العلاقات التجارية التي كانت سائدة بين بلاد المغرب عامة والمشرق العربي نجم عنها علاقات مماثلة وعلى جميع المستويات، حيث كل ما كان يذهب محملا بالسلع، كان يعود محملا بالسلع. وعلى مستوى بايلك الغرب ضمن هذه العملية التجارية فإنه رغم مساهمة كل الحواضر المدروسة بدراجات مختلفة ومتفاوتة، قد كان لمدينة تلمسان مشاركة واسعة في العملية التجارية بين الشرق والمغرب والجنوب والشمال.إضافة إلى المشاركة الفعالة فإن منتوج نسيج مدينة تلمسان كان يباع في أقصى الأسواق بالمشرق والمغرب ونال حريرها شهرة واسعة.(120)

لم تكن الإيالة مضخة دافعة تعمل على امتصاص الضرائب، بل كان لها حق قانوني وتأثير اجابي على مستوى حوض البحر الأبيض المتوسط، اضافة إلى كونها مركز انتاج وتحويل(121) عمل على تصنيع مواد زراعية وحيوانية نالت شهرة واسعة.

إن الحياة التجارية بشطريها الداخلي والخارجي وعلى مستوى جميع الولايات العربية اتصفت خلال هذه المرحلة بميزات وتأثرت بالتغيرات والتحولات المحلية والعالمية ومن بين هذه العوامل نشير إلى تلك التي كانت أكثر تأثيرا. نضع ونحلل هذا الوضع في إطاره الكلي وذلك سعيا لإعطاء صورة كاملة ونظرة شاملة وكلية حول هذه الإستنتاجات؛ قصد فهم كلية هذه المجالات الحيوية وادراك الحركة الجدلية التي تحركها تحت ضغط تناقضات العناصر المكونة لها.

---

(118) Boyer Pierre; La vie quotidienne à Alger à la veille de L'intervention Française, Paris, Hachette, 1963, P 196.

(119) Idem.

(120) Bel Alfred et Ricard Pierre, op- cit, P 51.

(121) Berques Jacques, L'intérieur du Maghreb, P 399.

تجلت هذه العوامل في :

ظهور محاور تجارية جديدة هامة، فلم يعد حوض المتوسط قلب الحياة التجارية العالمية، بل إلى جانب هذا المركز الهام بحيويته ظهرت هناك مراكز آخرى.

ظهور على الضفة الشمالية للمتوسط دور تجارة نشيطة وذات حركية فعالة أصبحت تتحكم وتوجه مجمل الصفقات التجارية، كما لعب المفاوضون اليهود الأجانب [122] دورا هاما في الحركة التجارية العالمية ومثلو عناصر اتصال وربط في هذا المجال ما بين هذه الدور ومختلف الموانئ النشيطة على الضفة الجنوبية للمتوسط، بل بأهم المراكز الحضرية والأسواق سواء كانت ساحلية أو داخلية والتجار المحليين عموما.

وفيما يخص هولاء المفاوضون نشير إلى يهود اسبانيا خصوصا وتجار مرسليا، وابتداء من الربع الأخير من القرن 18م يهود ليفورن، [123] لعبت هذه الفئة من المفاوضين دورا هاما في الصفات التجارية.

إضافة إلى هذه العوامل التي طبعت ووجهت الحياة التجارية أنذاك هناك عامل آخر، يتمثل في كون جل العمليات التجارية كانت تشرف عليها وسائل نقل أجنبية وذلك لكونها أكثر تقدما من الوسائل المحلية.

كما أن بعض النشاطات الحرفية لم تعرف توسعا نتيجة نقص على المستوى التقني ولهذا بعض الحرف لم تعرف توسعا من حيث الكمية والكيفية [124] هذه الميزة طبعت المنتوج الحرفي على مستوى ولايات الإمبراطورية العثمانية، لكن ضمن هذا الإطار العام هناك مبادرات وفروع عرفت ازدهارا وساهمت من حيث المنتوج والحركة التجارية في السوق العالمي، حيث أن المنتوجات الحرفية رغم المنافسة الفرنسية والإيطالية بل الأوربية عامة الا أنّ فروعا منها على مستوى جميع الولايات العربية لازالت تحتفظ بمكانة هامة في الأسواق العالمية.

---

(122) Emerit Marcel, "L'Essai d'une marine marchande barbaresque au XVIII siècle", in "C.T", N 11.1955, P 369.

(123) Barkan omer lutfi, "Quelques observations économique et sociale des villes ottomane du XVI et XVII siècles, in "la ville", T. 2, Recueille de la société Jean Bodin, VII, P 307.

(124) Mantran Robert, op- cit, P 294.

وإن مثلت المنتوجات الكمالية أهم منتوج حرفي الموجه للسوق العالمية، فرغم ضعف حجمها كانت تعوض هذا النقص بالأسعار المرتفعة ونشير هنا إلى الألبسة والأحزمة المطرزة، والمنتوجات النسيجية، وزرابي تركيا وحرير سوريا، لقد مثلت المنتوجات الحرفية على مستوى المغرب العربي مصدر ثراء وثروة لتجار فاس وتلمسان وتونس.[125]

ونذكر هنا فروع حرفية استمر ازدهارها ورواج منتوجها طيلة القرن 18م: فخار طيطون وشواشي فاس والجزائر وخاصة تونس، ومنسوجات منطقة الجريد وجربه وأحزمة الحرير الجزائرية نالت هذه المنتوجات الحرفية [126] ذات القيمة الفنية شهرة عالمية، كما كانت تغطي مجمل طلبات حوض البحر الأبيض المتوسط، ومنها ما كان يصل إلى أبعد من ذلك باتجاه الشمال والجنوب (رومانيا وإفريقيا السوداء).

لكن الذي أنعش الحياة التجارية وأمدها نفسا جديدا مثلته المنتوجات الحيوانية والزراعية حيث كانت هذه الموارد المصدرة مصادر غدت محاور هامة من التجارة العالمية، كما عرفت توسعا هاما ونشير هنا إلى كل من الصوف والجلود حيث كان مجال هذه المواد أوسع من المنتوجات السابق ذكرها.

ضمن هذه الحركة التجارية التي شملت مواد حرفية خاصة الكمالية والمنتوجات الزراعية والرعوية ساهم بايلك الغرب بكمية هامة وشهد حركة نشيطة سادها الإستقرار ومثلت ذروتها العشرون سنة الأخيرة من القرن الثامن عشر، بل مثلت هذه الفترة بالتقريب مرحلة ازدهار ورواج إقتصادي ميزته حركة تجارية نشيطة ويشهد على ذلك حركة الموانيء الكبرى للبياليك: الجزائر، المرس الكبير وعنابة.[127]

---

(125) Valensi Lucette, le Maghreb avant la prise d'Alger, Paris, Flammation, 1969, P 60.
(126) Ibid, P 54.
(127) Aguila luis cara Del, op- cit, P 33.

ويعود ارتفاع صادرات بايلك الغرب من المنتوج الزراعي والرعوي اضافة إل المنتوج الحرفي لعدة عوامل، منها الإستقرار السياسي الذي ساهم في انجاز المشاريع الكبرى أي الإقتصادية والعمرانية والثقافية التي قام بانجازها الباي محمد الكبير.[128] بل عرفت هذه المرحلة أسماء [129] نالت شهرة نتيجة انجازاتها وسادت جميع الإيالة وكان سبب هذا الإزدهار الإقتصادي الجو المحلي والعالمي الذي ميز الربع الأخير من القرن الثامن عشر.

اضافة إلى الإستقرار الذي ميز الجو المحلي، فخلال هذه الفترة ازداد الطلب على المنتوجات الزراعية والرعوية وارتفعت الحمولات قاصدة الموانىء الإسبانية والفرنسية والإيطالية ونشير خاصة إلى كل من الجلود والصوف والشمع والزيت والمواشي والحبوب، حيث تضاعفت الطلبات [130]- وكانت الأولوية المعطاة للحبوب تفسرها المجاعات المتكررة التي عرفتها أوربا في نهاية القرن الثامن عشر وخاصة جنوب اسبانيا الذي كان يعاني من انخفاض كبير في مردود القمح. [131]

فهذا الوضع المحلي والعالمي ساهم في دفع النشاط الإقتصادي وتوسيع الحركة التجارية حيث كان لها انعكاسا إجابيا على الإيالة عامة وبايلك الغرب خاصة.

---

(128) Gorguos (A), op- cit, P 408.

(129) حيث عرفت الفترة نوع من الإستقرار السياسي وتمثلت هذه الأسماء في الداي محمد عثمان الذي حكم من 1766 - 1791 ومحمد الكبير الذي حكم من 1784 إلى 1799. وصالح باي الذي حكم من 1771 إلى 1791.

(130) Aguila luis cara Del, op cit, P 87.

(131) Ibid, P 255.

III علاقة المدينة بالريف

في المجال الجغرافي الذي نحن بصدد دراسته لا نستطيع تفسير وشرح الرواج الحضاري الذي عرفته جل حواضرنا سواء عبر المراحل التاريخية أو في القرن الثامن عشر، الفترة التي تهمنا دون أن نلقي الأضواء على الريف المحيط بهذه الحواضر، بل إن ثراء المدينة يدفعنا إلى البحث وراء الأسرار لتفسير ذلك، فنمو الأنشطة التحويلية ساهم فيه خاصة وجود ملكية عقارية حضرية، حيث إذ توفرت المدينة على أنشطة حضرية متنوعة وغنية. كانت هذه الأخيرة ذات أحواز خصبة تحت مراقبتها وسيطرتها.

مهما كانت نوعية المدينة فهي لها علاقات بما يحيط بها من ضواحي، بل عبر هذه الضواحي يتجسد الجانب التطبيقي للوظائف الحضرية في شكل مميز هو المحيط القريب والمباشر.[132]

إن علاقة المدينة بالعالم المحيط بها هي ميزة حضارية ميزت هذا المجال الجغرافي عبر حقب تاريخية مختلفة ويكفي أن نقوم بدراسة لهياكل المدينة الحرفية والتجارية لنلمس ذلك. فالدراسة الطوبوغرافية للأسواق تعكس لنا هذه العلاقات، بل هذا النوع من الدراسات يجعلنا نلمس ونحدد مساهمة الأرياف وعلاقاتها بالمدينة، حيث نستطيع أن نلمس مدى التخصص والإنفراد ببعض المنتوجات ومعالجتها والرقعة التي تحتلها هذه الأخيرة على مستوى السوق. كما يعكس لنا هذا المجال الجغرافي أهمية هذا المردود سواء كان زراعيا أو حيوانيا في أنشطة المدينة.

---

(132) Beaujeu-Garnier Jacqueline, Géographie Urbaine, Paris, A. Colin, 1980, P 299.

إضافة إلى ما سبق فإن العلاقات التكاملية التي سادت بين المدينة والريف لم تكن فقط على مستوى الإنتاج سواء كان زراعياً أو حيوانياً أوصناعياً، بل هذه العلاقات حددتها كذلك وتعكسها لنا تنقلات الأشخاص، لأن المدينة لم تستقبل فقط إنتاجا ريفيا أو تصدر إنتاجا حضريا بل رافق ذلك تنقل على المستوى البشري من الطرفين، فالحركة على مستوى السلع المختلفة توازيها حركات على المستوى البشري. وكانت لهذين العاملين تأثيرات عديدة على جل جوانب الحياة سواء الإجتماعية أو الثقافية.

إن تنظيم وهيكلة السوق بصفة عامة تعكس لنا تردد الفئات البشرية على الورشات الحرفية و الأسواق التي تعرض المواد الأكثر استعمالاً في الأرياف، أو المعروضة خصيصاً لسكان الأرياف، وبصفة عامة كانت هذه الورشات والأسواق تحتل دائماً الأماكن الموجودة قرب الأبواب، وذلك لتسهيل بيعها لأن غالباً ما يحتاجه سكان الريف هو ما يعرض في أسواق الأطواف بصفة عامة.

أما كيف يتم إتصال المدينة بالريف فبالإضافة إلى ما سبق ذكره، لقد شكل التجار بصفة عامة الشريحة التي تقوم بدور الإتصال والربط حيث كانت هذه الفئة تقوم بشراء منتوجات الريف من أجل تموين المدينة، كما تمون الريف بالمواد الضرورية، لقد كانت فئة التجار تمارس سيطرتها على الأسواق المحلية بصفة عامة.[133]

نستطيع أن نفسر العلاقة المتينة الموجودة بين المدينة والريف وفترات الإنكماش والإنتعاش من خلال معرفتنا للأسس الإقتصادية للمدينة والمتشكلة من القاعدة الثلاثية وهي:

---

(133) رؤوف عبد السلام المرجع السابق، ص457.

النشاط الحرفي والتجارة ثم الزراعة، علماً أن كلا من النشاط الحرفي والتجارة قد ساهمت الزراعة، ومردود الريف بصفة عامة في تزويدهم بالمواد الأساسية.

لقد مارست المدينة نوعاً من الهيمنة على الريف، ونلاحظ في البداية نوعا من الهيمنة المباشرة عن طريق مراقبة الفحوص والأحواز بطرق متعددة سواء عن طريق الملكية العقارية للحضريين والتي كانت توجد بجل أحواز المدن المدروسة: تلمسان، ومازونة، ومعسكر ومستغانم[134] كما أن هناك هيمنة غير مباشرة وتتجلى من خلال نشاط التجار، أما الهيمنة الثالثة تأتي عن طريق الهيمنة السياسية والتي كانت تضم كل الإيالة[135] أي هيمنة السلطة السياسية.

هكذا نلمس أن المدينة كانت تمارس نوعاً من الهيمنة على الريف وذلك على مستويات مختلفة، كما شكل الإنتاج الريفي المصدر الأساسي خلال هذه الفترة لضمان مداخيل وقوة الطبقة الحاكمة، علماً أن هذه الفئة كانت ذات أملاك عقارية وحضرية. ونشير هنا إلى قادة المخزن على سبيل المثال وذلك لكون هذه الفئة صاحبة مهام عسكرية، فاستغلال العمل الريفي كان يتحقق عن طريق الضغط الضريبي واستغلال اليد العاملة أثناء الحاجة. هذه الممارسات تفسر لنا التناقضات الإجتماعية السائدة آنذاك[136] وكيف كان يتم الاجوء إلى فتح المجال لسكان الريف لإنجاز المشاريع وقصد إحداث توسيع لشرائح إجتماعية تمارس مهام معينة بالمدينة ونذكر هنا أن طبقة العامة قد غذاها توافد المجموعات القادمة من الريف الذي لعب دورا هاما في تنمية العامل الديمغرافي وذلك بتغذية المدينة بالقوة البشرية.

لم تشكل المدن مراكز إمتصاص وتسخير لثروات الريف ومراكز لتموين الريف بالمواد المصنعة الضرورية، بل نسجت الأيام علاقات هامة سادت بين المدينة والريف. لم تكن العلاقات ذات طابع ميكانيكي، بل كانت لهذه العلاقات أبعاد وأفاق مختلفة نتيجة التفاعل والتأثير والتأثر.

---

(134) 1- الأرشيف الوطني، سجلات المحاكم الشرعية، رقم الوثيقة 30- 40.
2 - الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبه 80 إلى 85 رقم السجل 167 رقم القديم 82.

(135) Gallissot René; " Les rapports ville- campagne", in" C.E.R.M", P 236.

(136) Gallissot René; " Le Maghreb précolonial", in La Pensée, no 142- 1968, P 69.

تأثر الريف بصفة مباشرة بكل التغييرات والتقلبات التي عاشتها المدينة عبر المراحل التاريخية، حيث أنه كثيراً ما ينتعش الريف نتيجة إنتعاش المدينة والعكس صحيح، كما شكلت المدينة منفذا على الخارج بصفتها تجمع وتوزع منتوج هذا الأخير وتجعله على صلة بالخارج ونستطيع أن نشير هنا إلى أن زراعات عديدة وصلت المنطقة والريف خاصة عن طريق المدن ذات الموانئ والأسواق وأدخلت تقنيات جديدة عن طريق هذا الإحتكاك ونشير هنا إلى التقنيات الفلاحية والمنتوجات الزراعية. كما ساهمت الأرياف في تموين حركات تجارية هامة وتنشيطها، وهكذا تفهم الأهمية التي اكتسبتها مدينة تلمسان والحواضر الأخرى كمازونة ومستغانم، كما أن حواضرنا المتناولة بالدراسة تقع إما على طرق تجارية هامة، أو شكلت منفذا لمنتوجات الإقليم الذي تقع ضمنه.

لقد شكلت الحواضر جهازا إقتصاديا وإجتماعيا وسياسيا ضروريا لنمو الريف، كما أن المدينة جهاز إستغلالي طفيلي على الريف عن طريق السلطة خاصة[137]. وتميزت الفترة المدروسة بالتوجه نحو الريف لتعويض ما كان يأتي عن طريق البحر، هكذا عرفت الضرائب إرتفاعاً ملحوظاً لتعويض هذا الفراغ[138] بل ساهم هذا الوضع في جعل منتوج الريف مورد ثروة لامتناهية.

وإذا تناولنا العلاقات السائدة بين الريف والمدينة خاصة في المجال السياسي نجد أن السلطة تمارس ضغوطها على الريف من أجل الثروة، لكن ما يهمنا هنا هو إبراز العلاقات التكاملية التي سادت بين الريف والمدينة وذلك على مستوى الإنتاج ومختلف العلاقات، فعندما تكون المدينة تمر في حالة انتعاش تلعب دورها الحقيقي كجهاز تكميلي للأنشطة الريفية وليس فقط كمكمل عن طريق الوحدات الحرفية، وتجارة أسواقها سواء في نطاق التبادلات المحلية أو ذات المدى البعيد.

(137) Poncet Jean; Remarque, sur les rapports villes campagne, dans le Magreb précolonial", in" C.E.R.M", 1971, P 211.

(138) Grammont (H.D); Histoire d'Alger sous la domination Turque, Paris, Leroux, 1887, P XIII.

المراقبة التي تقوم بها الدولة شكل لها إطارا وأداة الأرستقراطية العسكرية والتجارية، حيث تستغل الريف عن طريق الضرائب(139) وعن طريق الحرفيين الحضر والتجار بل لقرون طويلة رؤوس أموال هذه الفئات، أي الرأس المال الحضري كان يوظف خارج المدينة وبعيدا عن أسوارها حيث أن امتلاك أملاك عقارية في الأحواز والريف عامة كانت عملية ضرورية لطبقة البرجوازية. (140) و ميزة ميزت البرجوازية المغاربية.

إن المدن المدروسة: تلمسان، ومازونة، ومستغانم ومعسكر رندرومة تقع كلها في قلب فحوص وأحواز محظوظة من حيث الشروط الطبيعية، خاصة فيما يخص إمكانية السقي التي تشكل العنصر الأساسي في الملك العقاري(141) وهذا ما يجعلنا نستنتج أن حواضرنا كانت تتوسط أريافا ذات مردود زراعي ورعوي هام، وذلك نتيجة لتوفر عنصر الماء، وإحتوائها على سهول خصبة.

إن تحليل العلاقات ما بين المدينة والريف التي قام بها ابن خلدون في القرن 14م تؤكد علاقات التكامل والتبعية التي توجد على المستوى العقاري والتجاري والسياسي والديني.(142)

إن انتعاش المدينة ينعكس على الريف حيث أنه متى زاد العمران، زادت الأعمال وزاد الترف، وزاد الكسب وزادت عوائده وحاجاته واستنبطت الصنائع لتحصيلها وزادت قيمتها وتضاعف الكسب(143) توافق هذه المواصفات عهد الباي محمد كبير حيث أن الإزدهار والمشاريع العمرانية كان لها انعكسات عديدة وفوائد على المدينة والريف. (144)

إن ثراء المدينة ينعكس على الريف بشتى الطرق لأنه إذا كان المدينة بادية يمدها العمران فيكون ذلك حافظاً لوجودها واستمرار عمرها. (145)

---

(139) Poncet Jean; op-cit, P 214.
(140) Berque Jacques, "Medinas, villeneuves et bidonvilles", in "C.T", no 21, 1958, P 11.
(141) Prenant André, "Le rapport ville-campagne" in "C.E.R.M"; 1971, P 218.
(142) Idem.
(143) ابن خلدون، عبد الرحمن؛ المقدمة، ج II، تونس الدار الترنسية للنشر، 1984، ص 436.
(144) Gorguos A, "Notice sur le bey D'Oran, in "R.A" 1857, P 408.
(145) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 414.

إن ثراء المدينة واستقرارها يساهم في مدّ الريف بما هو ضروري، لأن إنكماش وضعف المدينة يعود وينعكس على الريف، لكن إذا تعمقنا في تحليل العلاقات نجد أنه غالباً ما تعود تلك السيطرة على شكل قيم مختلفة؛ حيث أن أموال الجباية عائدة عليهم، فهي ذاهبة عنهم في الجباية والخراج، عائدة عنهم في العطاء[146]، أي ما يؤخذ على شكل ضرائب يعود على شكل سلع أونفاقات آخرى مختلفة. بل حتى الذي تنتفع به المدينة، يستفيد منه الريف بشكل مباشر أو غير مباشر.

ربما يلاحظ على العلاقة التي سادت بين المدينة والريف النقص الآتي، إنه لم تستفيد الأرياف من الجانب العمراني،وهي ظاهرة عامة اتصفت بها ولعبتها المدن الإيطالية[147]. لكن ساد ما بين المدينة والريف علاقات على مستويات متعددة ونلمس نوعا من التكامل. حتى وإن كان العمران على مستوى الريف من حيث التأثر بالمدينة محدوداً.

بصفة عامة العلاقات التي سادت بين المدينة والريف كانت علاقات تكاملية ومبادلة، بل تدعمت وتعززت في القرن الثامن عشر خاصة وذلك نتيجة قلة وندرة مدخول البحرية، وتدهور مردود هذا المنفذ دفع بالتوجه إلى الداخل، باتجاه الأرياف، وهكذا أصبحت الأرياف تشكل قاعدة أساسية للمدينة.

لقد شكلت الأرياف الخزان الرئيسي لتموين أنشطة المدينة بفائض المنتوج الزراعي والرعوي، فتوفير هذه المواد للأنشطة الحرفية وتزويد الأنشطة التجارية بمواد من أجل تسويقها سواء على المستوى القريب أو البعيد: نحو المدينة كمرحلة أولى وكان الفائض يسوق إلى الخارج ونشير هنا إلي بعض المواد التي كانت تصدر إلى الخارج كالجلود والشمع والزيت والصوف والملح[148] إضافة إلى الحبوب والحيوانات.

---

(146) ابن خلدون، المصدر السابق، ص 448.

(147) Dhoquois, Guy; "Les étapes de la Formation algérienne, proposition pour une recherche",in "R.A.S.J.E.P", volume V. n2, juin 1968, P 381.

(148) Gallissot, René; "Essai de définiion du monde de production de l'Algérie précoloniale", in "R.A.S.J.E.P", vol V, no 2, 1968, P 389.

لقد ساهم المردود الزراعي والرعوي في اعطاء نوع من التوازن للتجارة ومراقبة الحياة الحرفية والإعتناء بالحياة الثقافية وتنمية العمران حيث المدينة تتسع في المساحة، وعندما تكون الأنشطة بسيطة أقل حيوية تكون المدينة بسيطة والفترات التي تكون فيها الأنشطة مكثفة وإن إندثرت هذه الأخيرة فيما بعد تبقى الأثار المعمارية تشهد على ذلك.(149)

ان المدينة تحتل مجال مميز عن المجال الريفي والعلاقة الموجودة ما بين هذين المجالين تتوقف على علاقات الإنتاج وتقسيم العمل داخل المجتمع(150) ومن خلال تحليل هذه العلاقات نستنتج علاقات التكامل التي سادت ما بين الإثنين كما شملت هذه العلاقات مختلف جوانب الحياة يوجهها في حالات انكماشها وانتعاشها عملية توزيع خيرات الإنتاج. ونشير بذلك إلى المردود الزراعي والرعوي كمصادر ثروة وثراء.

إن المدينة بكل جوانبها متماسكة ومتكاملة لها علاقات متينة بالمحيط الذي يحيط بها، كما أن ثراء وفقر هذا الأخير ينعكس على جل جوانب المدينة.

ومن جهة أخرى مساهمة ثروة الريف في تعميق الإفرازات الإجتماعية، حيث بتحديدنا وشرحنا لأهم مصادر الثروة وكيفية تسييرها وتوزيعها نكون قد وضعنا الهيكل العام والخطوط العريضة التي تساعدنا على فهم الحياة الإجتماعية والعلاقات السائدة آنذاك، وأهم الشرائح التي عرفتها المدينة خلال هذا العهد.

نخرج بهذا الربط كنتيجة حتمية لطريقة التحليل لأن معرفة مصادر الثروة وكيفية توزيعها تكشف لنا عن الشرائح الإجتماعية التي سادت آنذاك بمختلف إنتماءاتها وعلاقاتها بالثروة وكيفية الإستفادة منها.

---

(149) Nouschi André, "Observation sur les villes dans le Maghreb précolonial", in "C.M.M.C", 1981, n23, P 16.

(150) Lefebvre Henri, Espace et société, le droit à la ville, Paris, Anthnopos, 1970, P 74.

الفصل الثالث

التركيبة الإجتماعية

لحواضر بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م

I الميزات العامة للتركيبة الإجتماعية لحواضر بايلك الغرب

II الطبقات، والفئات الإجتماعية

III العلاقات التي سادت التركيبة الإجتماعية.

إن دراسة التركيبة الإجتماعية لحواضر بايلك الغرب الجزائري خلال القرن 18م، تقتضي منّا في هذا الفصل أن نتعرض للوضعية الإجتماعية لهذه الحواضر ونبدأ هذا بمحاولة إبراز أهم المميزات والمواصفات التي ساهمت في ظهور وبلورة هذه التركيبة الإجتماعية وبعد ذلك نتناول مختلف الطبقات والفئات الإجتماعية. إن ما يهمنا هنا ليس التحليل الكمي للفئات الإجتماعية بل التحليل السوسيولوجي لمختلف الطبقات والفئات الحضرية وذلك من خلال المهن والنشاطات التي كانت تقوم بها هذه الطبقات والفئات وهذا حتى لا تكون دراستنا لهذا الجانب دراسة ديموغرافية محضة. بحيث نحاول تفسير وشرح العامل الديموغرافي من خلال الممارسات والأنشطة الإقتصادية وما ينجم عنها من علاقات إجتماعية. وتكمن الغاية من هذه المحاولة في ربط الجانب الإجتماعي بالجانب الإقتصادي وفي الأخير نحاول أن نشير بصفة إجمالية إلى أهم العلاقات التي سادت بين مختلف الطبقات والفئات.

I الميزات العامة للتركيبة الإجتماعية

مهما اختلف الباحثون في إعطاء العدد الإجمالي لسكان الجزائر في هذه المرحلة، إلا أن هناك عددا متفقا عليه باعتبار أنه الأقرب. فما بين العدد المرتفع والمنخفض نجد العدد التقريبي والذي يقدر بـ 3.5[1] مليون نسمة وهو العدد التقريبي لسكان الجزائر آنذاك. لقد تقاسم هذا العدد كل من المجال الحضري والمجال الريفي، وما يهمنا هنا هو نسبة الحضر أو التحضر بصفة عامة ونسبة المنطقة خاصة.

إن أغلبية السكان كانوا يعيشون في الأرياف، بينما المدن لا يؤلف سكانها سوى أقلية ضعيفة لا تتعدى حسب المعلومات المتوفرة 5 ٪ من مجموع السكان؛ وهذه النسبة المتواضعة من سكان الحضر تختلف كثافتها من منطقة إلى أخرى، فهي في المنطقة الغربية تتراوح ما بين 7 إلى 8٪ أما في المنطقة الوسطى تنخفض إلى 6 ٪ بينما في المنطقة الشرقية لا تتجاوز 3٪ من مجموع السكان.[2]

هكذا نلاحظ أن نسبة التحضر والعمران كانت أكثر إرتفاعاً في بايلك الغرب منها في باقي المناطق الأخرى وتصبح هذه النسبة المحصل عليها على مستوى بايلك الغرب ذات أهمية إذا وضعناها في إطارها العام، طبقاً لإطارها الزماني والمكاني، حيث الفترة الممتدة ما بين القرن 15 و18م كان العالم يمثل بادية شاسعة،فما بين 80 إلى 85٪ من السكان كانوا يعيشون من مردود الأرض لا غير، وحركية المنتوج و نوعيته أو نقصه كان يحدد بل يوجه كل الحياة المادية.[3]

---

(1) Boutin (G); Reconnaissance des villes et batterie Forts d'Alger, P 72.

(2) Gallissot René; "Essai de définition du mode de production de l'Algerie précoloniale", in "R.A.S.J.E.P", vol V n 2, 1968, P 387.

(3) Braudel Fernand; Civilisation matérielle, économie et capitalisme du XV au XVIII Siècle, 3T, Paris, A colin, 1967, T.I, P 32.

ضمن هذه النظرة الكلية للتحضر والبداوة نستطيع أن نعطي تفسيرات وقراءات لهذه النسبة المحصل عليها على مستوى بايلك الغرب، كما نستنتج ما يلي: لقد طبع شمال إفريقيا عامة واتصف على أنه: بلدان ذات عمران محدود أو ضعيفة العمران لكن يحتوي على مدن كبيرة.[4]

لقد طبع التحضر ببايلك الغرب، بميزات حضرية شكلت خصوصيته وهي أنه كان يمثل إستمرارية لماض حضري عربي عكس المناطق الأخرى. كما نضيف إلى أنه على مستوى القطاع الغربي لم تكن مدينة وهران هي المدينة المهمة لأن إسترجاعها النهائي تم سنة 1792، لكن إذا اتجهنا نحو الداخل نجد مدنا قديمة تشهد على ماض حضري، عسكري وتجاري وضع أحوازا وأريافا هامة تحت إدارة حضرية، مثل مازونة وندرومة، كما ضم مدنا ذات أهمية كمدن عربية إسلامية ذات قوى إقتصادية مثل معسكر وتلمسان.[5]

إضافة إلى هذه النسبة الهامة للتحضر على مستوى بايلك الغرب، نحاول الآن أن نتعرض لبعض السيمات التي ميزت وطبعت التركيبة الإجتماعية لهذه الحواضر.

أهم ميزة تميزت بها التركيبة الإجتماعية لهذه الحواضر هي التنوع والتعدد في عناصرها الإثنية، فلقد كانت المدن تتميز باختلافات عرقية ودينية وحتى مذهبية طبعت تركيبتها الإجتماعية، حيث لم تكن هذه الميزة الهامة موجودة بنفس الحدة والأهمية على مستوى الأرياف، بل غالباً ما تميز الريف بنوع من الإنسجام وهذا ما يجعلنا نلاحظ تباينا بين المجتمع الحضري والمجتمع الريفي[6] إذ تنفرد التركيبة الإجتماعية الحضرية بمكونات وعناصر لم تكن موجودة في التركيبة الإجتماعية الريفية، وكانت لهذا التنوع والتعدد إنعكاسات هامة طبعت الحياة الحضرية.

لقد تمثل هذا التعدد والتنوع في تنوع العناصر الإثنية التي شكلت التركيبة الإجتماعية ونجد في مقدمة هذه العناصر، العنصر المحلي وهم الحضر، أوالبلدية، حيث هذا العنصر هو عبارة عن مجموعة صقلتها سنين التحضر إلى درجة أنها أصبحت تشكل نمودجا ونمطا إثنيا خاصا ومميزا.[7]

---

(4) Stambouli Fredj; "Système Social et Stratification urbaine au maghreb", in" R.T", n- 50. 51, 1977, P 73

(5) Gallissot René; "Rapports ville- compagne" in"C.E.R.M"1971, P 234.

(6) Raymond André; Grandes villes arabes à L'époque Ottomane, Paris, Sindbad, 1985, p.67.

(7) Boyer Pierre; La vie quotidienne, P 23.

إضافة إلى هذا العنصر عرفت هذه الحواضر كبقية الحواضر الأخرى عامة قدوم جاليات وطوائف مختلفة ومتعددة، وأهم جالية عرفتها المنطقة التي كان لها دور هام، نذكر الجالية الأندلسية التي توافدت على المنطقة إثر قرارات الطرد واستقرت بجل حواضرنا وذلك إبتداء من القرن 15م، كما تواصلت في توافدها على المنطقة طيلة القرن 16 و17 م وتعتبر الجالية الأندلسية على رأس قائمة الجاليات، وذلك نتيجة إرتفاع عددها وأهميتها في التركيبة الإجتماعية كما نشير إلى أن الحضر والأندلسيين تقاسموا النشاطات الحرفية والتجارية الثقافية والفكرية، حيث كانت هذه الممارسات والأنشطة هي الصفة الغالبة والمميزة لهذه العناصر؛ إضافة إلى ما سبق ذكره نشير إلى الفئة التركية بمختلف مستوياتها وانتماءاتها العرقية، ولقد شغلت هذه الفئة المجالات الإدراية والسياسية والعسكرية كما ضمت تجارا وعمالا يمارسون مهنا مختلفة وبصفة عامة كان للأتراك الصف الأول في الإدارة.[8]

لقد نجم عن هذه العناصر إثر امتزاجها واختلاطها بالعناصر المحلية أي الحضر إضافة إلى العناصر الأندلسية وجود فئة جديدة وهي فئة الكراغلة، التي تعتبر فئة حضرية وكان أكبر عدد منها متمركز بالمدن الكبرى[9] وتكاثر عدد هذه المجموعة مع مرور السنين نتيجة إرتباطهم بالعنصر المحلي وبهذا شكل الكراغلة عنصر ربط بين المجتمع والعناصر الحاكمة.

إن هذه الفئة الناجمة عن إمتزاج عناصر مختلفة في التحليل الإجتماعي يكون لها دور هام في التقريب والربط بين المجتمع الجزائري والفئة الحاكمة، وفي هذا الإطار نشير إلى أن حواضرنا عرفت نسبة هامة من هذه الفئة وأكبر تجمع للكراغلة على مستوى بايلك الغرب كان بالمدن الرئيسية الآتية: تلمسان، مستغانم ومعسكر[10] كما كان لها دور هام بالمدن الأخرى: ونقصد بالخصوص ندرومة ومازونة، حيث حظى الكراغلة بامتيازات مادية جعلت منهم بورجوازية حضرية.[11]

(8) Haido Diego- De; "Topographie et Histoire" in "R.A",T.14, 1870, P 499.

(9) Boyer Pierre; op-cit, P 147.

(10) Boyer Pierre; "Le problème Kouloughli dans la regence d'Alger "in "R.O.M.M" n Special, 1970, P 87.

(11) Raymond André; op-cit, P 78.

إضافة إلى هذه الفئات الإجتماعية، عرفت حواضرنا قدوم وإقامة فئات وأقليات عاشت على شكل جاليات، وقد ساهم في وجودها بهذه المدن البحث عن العمل أو ممارستهم مهنة من المهن المحترفة بالمدن المدروسة سواء كانت هذه المهنة تجارية أو حرفية بالإضافة إلى الكثير ممّن قصد هذه المدن بحثاً عن العمل في مجالات مختلفة كالفنادق والمنازل أو ورشات البناء.

ضمن هذه المجموعات نشير إلى قدوم عدد من الأجانب والجاليات ورغم قلة عدد بعضها وقلة تأثيرها إلا أنها مارست أدوارا مختلفة حيث جاءت هذه الأخيرة سواء من أجل العمل بالتجارة أو ممارسة مهنة مانتيجة رواج بعض النشاطات الحرفية التي دفعت ببعض الجاليات إلى الإقامة والعمل ضمن حواضرنامثل التجار والحرفيين المغاربة فبالإضافة إلى تردد عدد هام على بعض المدن خاصة مدينة معسكر لأغراض تجارية، فإن الفاسيين كان دورهم هاماً في النشاط التجاري والحرفي بمدينة تلمسان، حيث كانت مساهمتهم على درجة من الأهمية .[12]

أما الأقليات التي كان لها دور، فنشيرخاصة إلى الأقلية اليهودية التي كانت تتشكل سواء من يهود قدموا من المشرق منذ أزمنة بعيدة وإستقروا بأهم مدن الإيالة أو يهود قدموا من الأندلس إثر قرارات الطرد إضافة إلى يهود من المغرب.[13]

لقد كانت الجالية اليهودية تتألف من فئات إجتماعية مختلفة المستوايات، حيث نجد يهود ليفرون يمتلكون دور التجارة بجل المدن وهم بصفة عامة يدعمون فئة اليهود التي كان بيدها المجال المالي والتجارة وهناك يهود ينتمون إلى الطبقة الوسطى حيث منهم الحرفيون والتجار والوسطاء إضافة إلى فئات تحترف مهنا بسيطة.[14]

---

(12) Bel (A) et Ricard (P), Le travail de la laine à Tlemcen, P 213.
(13) Tinthoin Robert, L'Oranie sa géographie et son histoire, P 15.
(14) Morbet Bel- Ange; Les juifs de Mostaganem, P 53.

كما ساد الفقر والبؤس في أوساط اليهود الذين قدموا من إسبانيا إضافة إلى وجود نسبة ضمن هذه الفئة الأخيرة تنتمي إلى الطبقة الوسطى:من تجار وحرفيين.(15)

بالإضافة إلى تمركز الأقليات اليهودية بجل المدن المدروسة، فلقد كانت لها أحياء خاصة بها.

عرفت مدينة مستغانم ومعسكر جالية يهودية معتبرة، بلغت نسبتها بمدينة مستغانم مثلا في هذه الفترة ما بين 17 إلى 18٪ من مجموع السكان(16) علماً أن هناك من قدر سكان مدينة مستغانم آنئذ بـ 12 ألف نسمة(17) كما بلغت نسبتهم بمدينة ندرومة 15٪ من العدد الإجمالي للسكان (18) وكان عدد الجالية اليهودية في تلمسان هاما(19)، بل تعتبر أكبر جالية على مستوى البايلك، فلقد تمركزت هذه الجالية عبر أحياء عرفتها حواضرنا وعلى سبيل المثال نشير إلى حي اليهود بمدينة تلمسان والذي كان يقع وسط المدينة بين الحي الرسمي وحي الحضر؛ وحي اليهود بمدينة مستغانم آنئذ والمسمى بدرب اليهود والذي كان يقع بالقرب من الحي الأستقراطي وبجوار مقر الحاكم التركي وعرفت المدن الأخرى هي أيضا هذه الأحياء أي كل من معسكر ومازونة وندرومة، وضمت هذه الجالية شرائح إجتماعية مختلفة المستويات وبصفة عامة كانت تتوزع على الشرائح الآتية:

من خلال أخذ عينة تضم 64 عائلة تتوزع على الشرائح الإجتماعية، علماً أن العينة مأخوذة من جالية مدينة معسكر ويتوقف الترتيب على منصب أو نشاط رب العائلة لأن النساء غالباً ما كنّ يمارسن بعض الحرف في المنازل. من خلال دراسة هذه العينة توصل الباحث إلى النتائج الآتية: 10 فقراء أو من ذوي النشاطات البسيطة، 26 حرفياً، 15 تاجراً ثرياً، 2 تجارا صغارا، 5 موظفين وعمال، 3 رهبان و مدرسين، و3 بدون شغل.(20)

---

(15) Eisembth (M); Les juifs de l'Algérie et de la Tunisie, P 343.
(16) Norbet Bel- Ange, op- cit, P 62.
(17) Pellissier (E); Annales Algérienne, T.I, P 244.
(18) Grand Guillaume, Gilbert, Nédroma, P 2.
(19) Darmon, "Origine et constitution de la communauté Israélite de Tlemcen", in "R.A", T.14, 1870, P 376.
(20) Morbet Bel- Ange; op- cit, P 66.

وبصفة عامة نستطيع أن نعمم هذه العينة على جميع المدن المدروسة، وذلك لتقارب الشرائح، لأنه لم تكن هناك فوارق كبيرة، كما نشير في هذا المجال إلى أن شؤون هذه الجالية كان يديرها مسؤول يمثلها[21] لدى السلطات المحلية.

كما عرفت هذه الحواضر قدوم فئات أخرى تمثلت في أيدي عاملة ذات مهارات ومستويات مختلفة ساهمت بصفة دائمة أو مؤقتة في المجالات الحيوية لهذه الحواضر، حيث كانت المجموعة المؤقتة تتشكل عامة من أشخاص جاؤوا من الريف خاصة من القبائل القريبة والمجاورة للمدن، للعمل كعمال موسميين وهم يقيمون غالباً بالقرب من الأبواب الرئيسية للمدينة [22] وبالحمامات والفنادق وأماكن العمل أي محلات العمل والأسواق وكانت هذه الفئة تقوم بممارسة مهن وأشغال بسيطة مثل سائقي الحيوانات، نقل المياه، العمل بالبساتين وبالمقاهي والمحلات التجارية.[23]

وشملت هذه الفئة كلا من المزابيين والزواوة والعبيد السود إضافة إلى مجموعات جاءت من القبائل والأرياف المجاورة للمدينة.

وتسمى هذه الفئة بالبرانية، والبراني معناه الغريب عن المدينة وكانت هذه المجموعات من البرانية منظمة على شكل جماعات تحت إشراف أمين أو رئيس يعين من بين المجموعة، ويمثلهم لدى السلطات كما كان أغلبهم غير متزوجين[24] وقد عرفوا بموطنهم الأصلي وانتسبوا إلى أصولهم الريفية كما إرتبطت كل طائفة من هذه الجماعة بأعمال معينة.[25]

أما أصحاب الإقامة الدائمة ونشير هنا إلى أنه ضمن سكان المدينة نجد مجموعة رغم ماضيها الحضري إلا أنها احتفظت بأصولها وعلاقات قوية مع أماكن نشأتها الأصلية.[26] ورغم ماضيها الطويل بالمدينة فإن الحصول على مرتبة الحضر أي الإنتماء إلى الحضر عملية لا تتم بمجرد الإقامة الطويلة بالمدينة وإنما يبقى أصل الإنتماء له أهميته في المجالات الإجتماعية والثقافية، كما يحدد مجالات العمل. فنجد أنه رغم استقرار المجموعة التي جاءت من أجل الإقامة الدائمة، علماً أن أغلبية هذه المجموعة تكون قد جاءت في البداية من أجل الإقامة المؤقتة، إلا أنه نتيجة توفر بعض الظروف سمحت لها بالإقامة بصفة دائمة بالمدينة.

---

(21) KEHL Camile; "indigènes et musulmans en Algérie", in "B.S.G.A.O" T. 58, Fasc 205, mars 1937, P 65.

(22) Tourneau Roger Le; les villes musulmanes, P 27.

(23) Merouche Lemnouar. "les premiers foyaux ouvriers en Algérie" in "R.Travaux", 1979, P232

(24) Boyer Pierre; la vie quotidienne, p. 23.

(25) سعيدوني، نصر الدين، مخطوط "قانون أسواق مدينة الجزائر" مجلة حوليات جامعة الجزائر، العدد 5، سنة 1990- 1991، ص 123

(26) Tourneau Roger-Le; op- cit, P 29.

إلا أنه غالباً ما تهمشت هذه الفئة في التركيب الإجتماعي وتعتبر دائماً دخيلة، فجل من يتناولون تصنيف الفئات الإجتماعية للمدينة يقسمونها إلى فئتين: فئة مستقرة وهي فئة الحضر وفئية دخيلة وهي فئة البرانية وهي الفئة التي تعيش من مدخول مردود عملها.[27]

كما نشير إلى أن هذه المجموعات بصفة عامة وما عدا عناصر من الطائفة المزابية التي كانت تضم بعض التجار الأثرياء، فإن بقية الطوائف كانت تقوم بنشطات ثانوية ومكملة كما شكلت يد عاملة لخدمات مختلفة ونشير هنا على سبيل المثال إلى السود حيث كان الرجال يشتغلون في الحمامات والفنادق والمقاهي والنساء في المنازل[28] وشكلت هذه المجموعات نواة للبروليتاريا وأحثائها فيما بعد.

فهذه الشرائح الإجتماعية بتنوعها وتعددها وجدت بمختلف المدن المدروسة، فكل من تناولوا بالدراسة الجانب الإجتماعي لجدهم قد تعرضوا لهذا التنوع، نشير هنا على سبيل المثال لوصف مدينة مستغانم في هذا المجال: لقد كانت مدينة مستغانم من الناحية الإجتماعية يتشكل سكانها من: الأتراك، والكراغلة، واليهود، والأندلسيين والحضر[29] ويصف المدينة مؤلف آخر في هذا المجال فيقول: كانت مدينة مستغانم تتكون من الحضر والكراغلة، حيث شكل هؤلاء الأغلبية لسكان المدينة وكان الفائض يتشكل وكباقي المدن الأخرى من المزابيين والزراوة والبدو الذين قدموا من القبائل المجاورة وفيما يخص مدينة مستغانم نشيرخاصة إلى قبائل مجاهر[30] التي هي بطن من بطون قبيلة السويد.[31]

---

(27) Kehl Camile; op- cit , P 64.

(28) Tourneau Roger- Le; op- cit, P 31.

(29) Cavaignac Eugène; de la Régence d'Alger, Paris, 1839. P 22.

(30) Priou Louis; Mostaganem et son arrondissement, P 22.

(31) أبوراس الناصري، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، ورقة رقم 23، مخطوط بالمكتبة الوطنية.

بخصوص مدينة تلمسان في هذا المجال، فلقد كان السكان موزعين على شريحتين: الكراغلة والحضر ذوي الأصول المتنوعة، إضافة إلى الأتراك واليهود[32]. وهناك من يعطينا التركيبة التالية لسكان تلمسان حيث كانت على النحو التالي: الحضر والكراغلة والمغاربة، والسود[33] وتتميز بقية الحواضر بنفس التنوع والتعدد فمن يصف لنا مدينة معسكر على سبيل المثال يقول كانت تتألف من: الأتراك، والعرب والبربر والكثير من الكراغلة.[34]

هذه أهم الميزات التي ميزت التركيبة الإجتماعية لهذه الحواضر وأهم عناصرها. ونحاول الآن أن نتعرض لأهم الطبقات والفئات الإجتماعية ويصبح هذا العمل واضحاً بعد أن تعرضنا لأهم أدوات التحليل في هذا المجال، لقد سبق أن تعرضنا للأنشطة الإقتصادية التي عرفتها حواضرنا وبعد ذكر العناصر الأساسية التي كونت هذه التركيبة الإجتماعية تجعلنا نضع الأصبع على الطبقات والفئات الإجتماعية التي شكلت هذه التركيبة الإجتماعية.

(32) Pimodon, le commandant De; op- cit, P 13.
(33) Piesse (L) et Canal (J); Les villes de l'Algérie Tlemcen, P 68.
(34) Hamdan khodja; op- cit, P 84.

II الطبقات والفئات الإجتماعية التي شكلت التركيبة الإجتماعية لهذه الحواضر:

إن الطبقات والفئات الإجتماعية التي عرفتها حواضرنا كانت كالآتي: لقد تقاسمت المجال الحضري لهذه الحواضر ثلاث طبقات رئيسية وكانت هذه الطبقات تحتوي على فئات متمايزة الوظائف لكن تتقارب من حيث الترتيب الإجتماعي ومستوى الدخل.

1 الطبقة الأرستقراطية الحضرية:(35)

الطبقة الأرستقراطية كانت ذات وظائف سياسية واقتصادية وعسكرية وحضرية وتترادف مع أرستقراطية ريفية ذات مهام حربية أكثر منها عسكرية وأيضاً دينية.

تشكلت الطبقة الأرستقراطية من الفئات الحاكمة بمختلف إنتماءاتها حيث كانت هذه الفئة تتشكل من الأقلية التركية إضافة إلى الكراغلة والبلدية ذوي الأصل الحضري؛ فهذه الفئات والمجموعات التي كانت تمثل الجهاز السياسي والإداري والعسكري على أعلى مستوى يطلق عليها الأرستقراطية الحضرية، وقد كانت هذه الطبقة بمختلف فئاتها تتمتع بامتيازات هامة نتيجة لدورها الإقتصادي والإجتماعي ومركزها في تسيير شؤون البلاد وكانت مشكلة من فئات واضحة المهام والمعالم تمثلت خاصة في:

---

(35) Gallissot René, "L'Algéric précoloniale" in "C.E.R.M", 1971, P 160.

أ الفئة الحاكمة:

مثلت الفئة الحاكمة ما كان يعرف بالخاصة ولم تكن هذه الفئة مرتفعة العدد، بل كانت محصورة في مجموعة معينة، وكانت هذه الفئة مشكلة في معظمها من العسكرين ذوي الأصل التركي واتصفت بصفة عامة بأنها فئة ذات أصل أجنبي، هكذا فهي فئة عسكرية وأجنبية تمارس وظيفة سياسية.(36)

لقد كانت الأرستقراطية التركية تتقاسم الوظائف مع الفئات الإجتماعية الأرستقراطية الأخرى، من كراغلة وحضر وأجواد وهكذا ضمن هذه الفئات نجد الفئة ذات الأصل التركي تحتل الوظائف الإدارية (37) العالية والهامة في تسيير شؤون البايلك، أما الوظائف الأخرى فقد كانت تقوم بها الفئات التي سبق ذكرها: كراغلة وحضر وأجواد.

وبعد أن أشرنا إلى مهام الفئة الحاكمة، أو ما يسمى بالخاصة نتعرض إلى الفئة الثانية ضمن الطبقة الأرستقراطية الحضرية.

ب الفئة المخزنية:

الأرستقراطية المخزنية: هذه الفئة هي ما كان يسمى بنبلاء السيف في الشرق ولقبت بالأجواد في الغرب الجزائري. كانت تقوم بقيادة أهم القبائل المخزنية.(38)

لقد كان لهذه الفئة وظائف منها: القيادية حيث تسمح بتحريك الرجال في حالة حمل السلاح داخل القبائل المخزنية، إضافة إلى الإستغلال الضريبي على قبائل الرعية.(39)

ولقد تمثلت هذه الفئات المتحكمة في الوظائف العسكرية والسياسية بالإضافة إلى الجهاز السياسي على مستوى البايلك وجود حاميات عسكرية إضافة إلى ممثلي الجهاز السياسي حيث تمثلو خاصة في القادة وأعوانهم، وقد كان القائد يقوم بإدارة المدينة، فعرف باسم الحاكم هكذا كان هناك حاكم تلمسان ومستغانم إلخ...(40)

---

(36) Stambouli et Zghal. "La vie urbaine dans le Maghreb", in "A. A. N" no 11 1972, P 211.

(37) Stambouli Fredj: "Système social et stratification urbaine" P 75.

(38) Berque Jaques, "Esquise d'une histoire de la seignerie Algériènne", in "R. de la méditerannée" T.7, no 29, 1949, P 19.

(39) Vatin Jean Claude, l'Algérie politique histoire et société, Paris, A. Colin, 1974, P 99.

(40) Haido Diego-De, op-cit, P 499.

ضمن هذه الطبقة والفئات المشار إليها لقد شغل الكراغلة والحضر بعض المناصب الإدارية الهامة، بالإضافة إلى قيادة المخزن، حيث إستطاعت بعض العناصر الكرغلية بفضل موقعها وإمتيازاتها أن تصل إلى بعض المناصب العالية في السلطة وقيادة البايلك، حيث تربع بعض الكراغلة على عرش البايلك، أي بايلك الغرب ونشير هنا إلى الباي مصطفى الأحمر الذي كان كرغلياً وحكم في الفترة الممتدة ما بين 1738- 1748، كما سيطر الكراغلة على الحكم وذلك إبتدأ من عهد الباي محمد الكبير[41] أي من 1779 إلى 1830، إن وصول هذه المجموعة من الكراغلة إلى مراتب عليا في السلطة على مستوى بايلك الغرب لا يعني أن جلهم كانوا يتمتعون بنفس الحقوق التي كان يتمتع بها الأتراك، بل كان الحكم المركزي يرى فيهم مساعدين وأعوانا لإدارته، وقد لعبت هذه الشريحة دور الوساطة بين الفئة الحاكمة وبقية السكان[42] وهذه الأدوار ناجمة عن إرتباطاتها وانتماءاتها.

جـ الأرستقراطية الدينية:

لعبت الأرستقراطية الدينية المتمثلة في الأشراف والمرابطين دوراً هاماً على مستوى بايلك الغرب، حيث وقفت هذه الفئة إلى جانب الفئة المخزنية والباي في الجهاد ضد الإسبان خاصة في عهد الباي محمد الكبير أثناء محاربته للوجود الإسباني، كانت هذه الفئة متمركزة بضواحي معسكر ومازونة؛ وشكلت الرباطات قلعاً وزوايا ومدارس متنقلة.[43]

إن خصوصية بايلك الغرب المتمثلة في الوجود الإسباني جعلت هذه الفئة أي الأرستقراطية الدينية تلعب دوراً هاماً وتحتل مكانة معتبرة، ضمن هذا الإطار لكن زوال العامل المشترك الذي كان يحرك الفئات المخزنية والدينية جعل التحالف يضعف ويتلاشى لأنه فقد سبب وجوده ألا وهو الوجود الإسباني؛[44] هذا الوضع الجديد جعل بل عمل على تداخل وتضارب المصالح بين الفئة المخزنية والفئة الدينية مما جعل الفئتين في صراع وتناقض نتيجة تداخل المصالح.

---

(41) Desfontaine (R.L), Fragments d'un voyage, P. 184.

(42) Gallissot René, "Abdelader et la nationalité Algérienne", in "R.H", T. 89, 1965, P343.

(43) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ج I ص. 272

(44) Boyer Pierre; "Contribution à L'étude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger; (XVI- XIX -S), in "ROMM", 1966, P 37.

لقد كانت الطبقة الأرستقراطية بمختلف إنتماءاتها وفئاتها هي التي تتحكم في تسيير شؤون البايلك، كما أنها كانت المالكة لأهم وأخصب الأراضي الموجودة بمحاذاة أحواش الساحل.(45)

كما نشير إلى أن هذه الفئات كانت تملك كل أحواز مازونة(46) على سبيل المثال. إن ممتلكات الفئات الأرستقراطية لم تكن تقتصر على أخصب أراضي فحوض وأحواز المدن بل كان للفئة الحاكمة والفئة المخزنية ممتلكات هامة بالمدن حيث أن نصف بنايات مدينة معسكر كانت تابعا للعائلات المخزنية.(47)

إضافة إلى الأراضي والمنازل، شملت هذه الممتلكات كلا من المحلات التجارية والحرفية والحمامات.(48)

كما امتدت إملاك الطبقة الإستقراطية، خاصة أملاك الفئة الحاكمة لتشمل مدن خارج البايلك ونشير هنا إلى ممتلكات الباي محمد الكبير وعائلته بكل من المدن الآتية: البليدة ومليانة حيث كانت لهذه العائلة ممتلكات هامة بهذه المدن .(49)

هذه أهم الفئات التي شكلت الطبقة الأرستقراطية الحضرية، وتعتبر الأقلية التركية خاصة والفئة الحاكمة عامة على رأس هذه الطبقة نتيجة نفوذها وسلطتها، حيث إنه على مستوى البايلك، كانت ممتلكات عائلة الباي بوشلاغم والباي محمد الكبير هامة ومنتشرة عبر المدن الهامة بالبايلك وخارجه إضافة إلى ما يملكه كبار الإداريين(50) وموظفي البايلك بصفة عامة. ومن خلال دراسة وتحليل عينة تتضمن اوقاف مدينة مستغانم، والوثيقة تحتوي على 126 عقدا نستنتج مايلي: 80٪ من أصحاب هذه الممتلكات سواء الحضرية أو خارج المدينة هم ينتمون إلى عائلات البايات وحاشيتهم، وأصحاب ألقاب إدارية هامة مثل: وكيل، خوجة، قائد، وشاوش، أما الباقي مثله الحرفيون والتجار، حيث نجد جماعة الكواشين والخياطين، ونسبة ضئيلة جداً ضمن هذه العينة طبعا تشير إلى عائلات دينية مثل السنوسي، وابن عبد الله.(51)

وبصفة عامة سجلت الألقاب الإدارية أكبر حصة للمتلكات سواء داخل المدن أو خارجها، ومن خلال هذه الوثائق نلاحظ سيطرة وهيمنة الفئة الحاكمة والمخزنية على مصادر الثروة.(52)

بعد التعرف على الطبقة الأرستقراطية الحضرية، نحاول الآن أن نتعرض لطبقة ثانية هي الطبقة البرجوازية الحضرية.

---

(45) Emerit Marcel; "La situation économique de la Régence d'Alger en 1830", in "I -H", 14 année, no 2, 1952, P 169.

(46) Berque Jacques; "Retour à Mazouna", in "Annales, E.S.C", 1972, P 150.

(47) Emerit Marcel; L'Algerie à L'époque d'A.E.K, P 97.

(48) الأرشيف الوطني، سجلات المحاكم الشرعية، علبة 108-109، رقم الوثيقة 30- 47.

(49) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبة 16، رقم السجل 74-104.

(50) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبة 80-85، رقم السجل 167، الرقم القديم 82.

(51) نفسه.

(52) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبة 205 - 206، رقم السجل 311، الرقم القديم 216. السنوات (1760-1765) و (1808-1809).

2 الطبقة البرجوازية:

شكلت البرجوازية الحضرية، الطبقة الهامة التي كان لها دور فعّال في حواضرنا، شكلت ن هذه الطبقة بورجوازية ناشئة تعادل ما كان يعرف بالأعيان وكانت تضم كلا من فئة العلماء لإداريين حيث شكل هؤلاء الجهاز الإداري والتعليمي ولعبوا أدوار الوساطة بين السلطة وباقي كان الحواضر. أما الفئة الثانية ضمن هذه الطبقة فهي فئة التجار والحرفيين وتعتبر هذه الفئة ثلة الرئيسية للنشاط الحضري.[53]

إن المقصود بالطبقة البرجوازية هنا، طبقة عريقة التحضر وصاحبة مداخيل إقتصادية اجمة عن أملاك عقارية، ونشاطات تجارية وحرفية[54] وفئة مثقفة تعيش من مردود خدماتها إدارية والتعليمية.

لم تشكل الطبقة البورجوازية طبقة متجانسة، إنما شكلت طبقة متعددة الفئات[55] حيث ى على الأقل فئتين.

تميزت البرجوازية الحضرية بالإضافة إلى سيطرتها على ركائز الإقتصاد أو النشاط قتصادي الحضري آنذاك: النشاط التجاري والحياة الحرفية، لقد كانت هذه الطبقة صاحبة ملاك عقارية هامة وهذه ميزة من ميزات البرجوازية الحضرية آنذاك ألا وهي سيطرتها على ناطق الزراعية.[56] وتوسعت هذه الممتلكات بتوسع الطبقة وإنضمام شرائح آخرى إليها حكم نشاطاتها وممارساتها وكان هذا التوسع بمثابة حدث عام على مستوى الإيالة حيث إضافة ى البلدية أي الحضر والكراغلة أصبح الرياس يشاركون في الملكية العقارية الحضرية[57] وظفوا أموالهم في أملاك عقارية وهذه ميزة القرن الثامن عشر في هذا المجال، حيث حدثت غيرات ثلاثة كبرى في التشكيلة الإجتماعية الجزائرية أثرت بصفة عميقة على القاعدة لإقتصادية وتمثلت هذه في ندرة وقلة مردود البحر والتجارة العالمية، الأهمية المعطاة للإستغلال ضريبي لقبائل الرعية ونمو الملكية الخاصة للأرض[58] وتوسعها.

---

(53) Stambouli et Zghal, op-cit, P 212.

(54) Stambouli Fredj, op cit, P 75.

(55) Ibid, P 76.

(56) Gallissot René, "l'Algérie précoloniale", P 166.

(57) Merad Boudia (A), La formation sociale, P 101.

(58) Djaghloul (A), "La formation sociale Algérienne à la veille de la colonisation", in "La Pensée", 185, Fev 1976, P 71.

كما تمتع الكراغلة بامتيازات هامة جعلت منهم بورجوازية حضرية[59]، حيث أن توسع لإمتيازات سمحت بتمايز بعض الشرائح عن بعضها البعض، كما ساهمت في هيكلة الفئات لإجتماعية وبلورتها.

لقد كانت الطبقة البرجوازية تشكل طبقة وسطى، من الصناع والتجار وأصحاب دخل، فئة تساير نوعا جديدا للإقتصاد حيث تعتبر التجارة الحضرية العامل الأساسي.[60]

نحاول الأن أن نتعرض لهذه الفئات ونبدأ بفئة الإداريين والعلماء، ثم فئة التجار والحرفيين.

أ - العلماء و الإداريون:

لقد كانت الفئة الأولى من البرجوازية الحضرية تشكل الجهاز الإدراي والتعليمي، حيث ممارسة المهام الإدراية كانت توكل للبلدية من ذوي الأصل الحضري والكراغلة. مثل بعض المهام: قائد السوق[61] وقائد الباب وهذا الأخير مكلف بجمع حق الجمارك والبراح وهو الذي كان يقوم بالإعلان عن قرارات الباي في الأسواق وأخيراً قائد الدار.[62]

هذه الفئة هي التي تمثل علاقة ربط في المجال الإدراي بين الفئة الحاكمة وباقي السكان، فهذه المناصب منحتها إمتيازات هامة، إضافة إلى دور الوساطة، مثلت فئة العلماء بممارستها للوظائف الدينية والتعليمية دور الوسيط بين الفئة الحاكمة والأرستقراطية الحضرية التي بين يديها السلطة، وباقي سكان الحواضر.[63]

مثلت فئة العلماء فئة منغلقة على نفسها وهي بذلك تدافع عن إمتيازاتها، فلقد كان أغلبية العلماء يمتلكون أملاكا عقارية ويشتركون في المصالح التجارية والحرفية وإضافة إلى ذلك فهم يحتكرون حق المعرفة، خاصة المهن التي تسمح بذلك: التدريس، حيث هذه المهن أصبحت بالنسبة لهم تقريباً وراثية، فالمدارس كانت تعتبر مخصصة لهم تقريباً[64] وكان إحتكار المعرفة مدعما بعلاقات القربى بين العلماء ويعد ذلك مع الفئة الحاكمة.[65]

---

(59) Raymond André, Grandes villes arabes, P 78.

(60) Berque Augustin, "La bourgeoisie algérienne", in; "Hesperis", T.XXXV, 1948, P 3.

(61) قائد السوق هو ما كان يلقب بالمحتسب بالمدن العربية بالمشرق.

(62) Golvin Louis, Aspects de l'artisana, P 30.

(63) Stambouli et Zghal, op- cit, P 212.

(64) Stambouli Fredj, op- cit, P 81.

(65) Idem.

لقد شكل العلماء نخبة دينية ذات إمتيازات فكانت تحتل بذلك مكانة هامة في حياة المدينة، حيث هذه النخبة هي التي كانت تؤمّن المهام الرئيسية لإدراة المدينة.[66] وإذا كانت هذه الفئة مكملة للجهاز الإدراي، فهي التي تشرف على تكوينه وترجيهه.

إذا كان العلماء يشكلون مجموعة منغلقة، فهم يحاولون عن طريق سيرورة حركية أن يندمجوا أو يراقبوا مهام أخرى حكومية وإدراية و تجارية، هكذا فإن للعلماء مهاما أخرى حكومية وإدراية أو تجارية، فهم يشكلون تحالفا في نفس الوقت مع النخبة الحاكمة والبرجوازية التجارية والحرفية.[67]

لقد شكل العلماء والإداريون فئة من البرجوازية الحضرية قاعدتها الإقتصادية ناجمة عن خدماتها للطبقة الحاكمة، إنها تشكل فئة عليا من البرجوازية وتحتل مكان الوساطة ما بين هذه الأخيرة والطبقة الحاكمة.[68]

من جهة أخرى كانت فئة العلماء ذات مصالح إقتصادية تمثلت في ممتلكات عقارية وتجارية وحرفية، كما كانت تربطهم علاقات القربى بالفئات الثرية بالمدينة من تجار وحرفيين وكانت لهم مع هذه الفئة مصالح موضوعية يعملون على الدفاع عنها ضد السلطة كالإستغلال الضريبي.[69]

ولم تكن فئة العلماء تشكل فئة منسجمة من حيث الثراء والمكاسب بل كانت هناك شرائح تختلف من حيث الدخل، فبالإضافة إلى شرائح متوسطة أو بسيطة الدخل تتشكل من العلماء الذين يمارسون وظائف ثانوية في هذا المجال مثال على ذلك المعلمون والعدول، والموثقون والكتاب وهذه الشريحة أقل إمتيازاً.[70]

(66) Stambouli et Zghal, op -cit, P 205.
(67) Stambouli Fredj, op-cit, P 83.
(68) Ibid, P 76.
(69) Ibid, P 80.
(70) Stambouli et Zghal, op- cit, P 211.

إن المهنة هي التي تحدد الوضعية في السلم الإجتماعي وبما أن المهن السياسية والعسكرية والقضائية والدينية هي التي كانت تسيطر على نمط الإنتاج في المغرب العربي آنذاك عامة، فقد كان الإداريون والعلماء خاصة يتخذون من الهيئة القضائية والدينية مرتبة عليا في السلم الإجتماعي حتى ولو كانوا أقل ثراء من كبار التجار والحرفيين وذلك لكونهم يشكلون مجموعة قانونية.[71]

ومثلما كان الإدرايون يعيشون من خدأماتهم للسلطة الحاكمة، كان العلماء كذلك يعيشون من مردود تبليغ العلم والدين والمعرفة، وعرفت هذه الفئة مستويات مختلفة من الناحية المادية إضافة إلى ما سبق ذكره، لقد كان هناك بالإضافة إلى أصحاب الأملاك العقارية العامة، العامل الذي يعيش من محصول كراء الأوقاف كالطلبة والشيوخ.[72] ونشير هنا إلى عهد الباي محمد الكبير حيث أصبح العلماء ينتفعون من محاصيل الأحباس وذلك تشجيعاً منه للحركة العلمية[73] بصفة عامة.

ففيَ البنية العامة للمجتمع، كان رجال الدين والعلم يشكلون الوسيط الطبيعي بين السلطة وباقي السكان، حيث هذه الفئة هي التي تعطي الصبغة الأخلاقية والقانونية لكل قرارات السلطة الحاكمة، وهي التي تترجم مطالب سكان المدينة.[74]

ويمكن أن نشير هنا إلى دور رجال الدين والعلم ودورهم الإشهاري لأعمال الباي محمد الكبير وكيف ساهم هذا الأخير في ثراء هذه الفئة، كما كان لكل البايات في مجلسهم رجال علم ودين من أجل إعطاء كلّ القرارات السياسية والإدراية صبغة شرعية.

الفئة الثانية من الطبقة البرجوازية الحضرية بعد الإداريين والعلماء، هي فئة التجار والحرفيين.

---

(71) Stambouli Fredj, op-cit, P 81.
(72) Raymond André, op-cit, P 78.
(73) ابن سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 68
(74) Stambouli et Zghal, op- cit, P 208.

ب فئة التجار والحرفيين:

ضمن فئة التجار والحرفيين نجد أنه تقاسم كل من الحضر والإندلسيين والكراغلة واليهود هذه الحرف، حيث أن نسيج الصوف والقطن إضافة إلى الطرز والصناعة الفخارية كانت أنشطة مخصصة للحضر بصفة عامة وتقاسم هؤلاء مع اليهود نشاطات حرفية أخرى مثل صناعة الجلود وصناعة الأحذية إضافة إلى الصناعات الخشبية والخياطة(75) كما كان لليهود مساهمة واسعة في صناعة المعادن الثمينة.

لقد شكل التجار والحرفيين القاعدة الإجتماعية الأكثر إتساعاً لطبقة البرجوازية، والممثلين الرئيسيين للنشاط الحضري.(76) كانت هذه الفئة تحت سيطرة الفئة الحاكمة، وذلك بطرق شتى منها الضغط الضريبي، كما كان للوضع السياسي دور هام وتأثير كبير على نشاط التجار والحرفيين.(77)

حيث ساهم عدم الإستقرار في عدم إزدهار واتساع المنتوج الحرفي وتوسع التجارة، لكن رغم التناقضات والعراقيل فقد وجدت برجوازية تجارية وحرفية حيث أن جل الأبحاث التي تناولت إقتصاد المجتمع الحضري المغاربي تكشف عن وجود مجال حرفي على المستوى التقني كان متطوراً وتجارياً رائجاً تنشطه بورجوازية تجارية وحرفية متفتحة على العالم، هكذا نلاحظ وجود بورجوازية نامية نسبياً وذات رفاهية في جل المدن الكبرى.(78)

لقد كانت البرجوازية التجارية كذلك بورجوازية حرفية حيث نلاحظ في قطاعات عديدة بجل حواضرنا هذه الظاهرة ونشير هنا إلى مدينة تلمسان، كما كانت هذه الفئة ذات أملاك عقارية وهذا حدث هام يتمثل في هيمنة البرجوازية وتحكمها في الحياة الزراعية كانت هذه الظاهرة بمدينة تلمسان قوية الوجود.(79)

---

(75) Grand Guillaume Gilbert, Nédroma, P 5.
(76) Stambouli Fredj, op- cit, P 75.
(77) Ibid; P 85.
(78) Ibid, P 87.
(79) Gallissot René, "L'Algérie précoloniale" P 166.

كما أستمرت هذه الظاهرة طويلاً، وكانت أكثر إنتشاراً بجل المدن[80] وكانت تعتبر العائلة حضرية إذا كانت ممثلة في واحد من بين النشاطات الثلاثة للمدينة: التجارة والحرف والزراعة.[81] ويكون توظيف الأموال الناجمة عن الحرف والتجارة في امتلاك أملاك عقارية هو ناجما عن عدم الإستقرار السياسي وخوفاً من سلب أموالهم.

كما نلاحظ غالباً ما شكلت فئة التجار فئة تسيطر على المجال الحرفي، خاصة النسيج حيث هذا يعطينا ظهور بورجوازية مانيفاكتورية أي صاحبة ورشات حرفية عرفت درجة من التوسع والنمو الحرفي، وكانت هذه الفئة على نمط البورجوازية الأوروبية وذلك لوضع النشاط الحرفي تحت إشرافها.[82] وكان هذا النموذج أكثر وضوحاً خاصة بمدينة تلمسان، كما عرفت المدن الأخرى هذه الظاهرة لكن بدرجات متفاوتة.

كانت فئة التجار والحرفيين مهيكلة على شكل وحدات حسب الحرف حيث نجد الحدادين، والعطارين، والنجارين إلخ. وهناك الوحدات التي كانت مهيكلة على أساس أثني مثل اليهود والحضر والمزابيين[83] بالإضافة إلى الحضر واليهود نجد أن عدداً هاماً من الأتراك كانوا أولاً إنكشاريين أو بحارة تعاطوا التجارة لأن هذا النمط من الحياة بدا لهم أكثراستقراراً وأخطاره قليلة[84] ونلاحظ نفس الشيء بالنسبة للحرف حيث إضافة إلى الحرفيين الحضر والأندلسيين واليهود كانت مدينة تلمسان على سبيل المثال تضم صناعا ذوي أصل ندرومي، ومن مدينة كاشرو[85] كما نلاحظ عددا كبيرا من الصناع والحرفيين جاؤوا، من المغرب[86] وخاصة من مدينة فاس.

---

(80) Gallissot René, op-cit, P 160.

(81) Grand Guillaume Gilbert, op- cit, P 31.

(82) Djaghloul (A), op-cit, P 79.

(83) Emerit Marcel, "les tribus privilégiées en Algérie", P 44.

(84) Haido Diego- De, "Topographie et histoire d'Alger", in "R.A", T. 15, 1871, P 52.

(85) مدينة كاشرو تقع بالقرب من مدينة معسكر، وعرفت هذه المدن: كاشرو فكان والبرج رواج الحرف والتجارة، واستفادت في هذا المجال من مدينة معسكر.

(86) Bel (A) et Ricard (P), Le travail de la laine à Tlemcen, P 220.

لقد كانت جل المدن المدروسة تعكس هذا التعدد والتنوع وكانت فئة التجار والحرفيين خاصة الفئة الأكثر تمثيلاً لهذا التعدد والتنوع. ففي كل المدن المدروسة من تلمسان ومازونة ومستغانم ومعسكر وندرومة كانت تعكس هذا التعدد وذلك نتيجة تعدد إنتماءات هذه الفئة.

كما نلاحظ ضمن هذه الفئة بين شريحة الحرفيين والتجار تتقدم النشاطات التجارية على النشاطات الحرفية، وهكذا فالتاجر يحتل مرتبة عالية بالمقارنة مع الحرفي سواء من ناحية الإعتبارات الإجتماعية أو الإقتصادية[87] ولقد اتصفت هذه الفئة المتشكلة من التجار والحرفيين بأنها ذات ممتلكات عقارية وريفية وكانت لا تطمح إلى مناصب سياسية رغم أن عدداً هاماً من الحضر والكراغلة كانوا يشغلون مناصب إدراية وسياسية هامة.

وبصفة عامة سواء الفئة الأولى أي فئة الإدرايين والعلماء، أو فئة التجار والحرفيين كانت موجودة بكل حواضرنا وكل من يتناول بالوصف والدراسة التركيبة الإجتماعية لمدينة ما من بين المدن المدروسة يذكر لنا هذه الشرائح، مثل وصف لمدينة تلمسان. «عرفت مدينة تلمسان مهنا راقية كتلك التي عرفتها مدينة فاس من القضاة والمحاماة وهناك الأساتذة إضافة إلى التجار والحرفيين والنبلاء».[88]

عندما نتناول بالدراسة مختلف الفئات والشرائح التي شكلت الطبقة البرجوازية الحضرية يبدو لنا فرق بين مختلف الشرائح: بين الأستاذ المعلم والحرفي والموظف السامي والتاجر ومعلم المدرسة رغم أن لهم نفس صعوبات الحياة، ينتمون إلى نفس الطبقة[89] لكن مع ذلك، ضمن الشريحة نجد تفاوتات وفوارق تعمق الهوية الإجتماعية وأساس هذا؛ الفوارق الإقتصادية.

بالإضافة إلى تميز هذه الطبقة بموارد دخلها، إتسمت بميزات ثقافية ميزتها عن غيرها، بل كانت الميزات الثقافية تتدخل بالإضافة إلى العوامل الإقتصادية لتحديد الإنتماء إلى هذه الطبقة.

وبعد التعرض إلى أهم فئات الطبقة الثانية والتي هي البرجوازية الحضرية والتعرض إلى مواردها وميزاتها نتعرض إلى الطبقة الثالثة والأخيرة وهي ما يعرف بالطبقة السفلى.

---

(87) Raymond André, op-cit, P 88.
(88) Marmol (C.L), op-cit, P 330.
(89) Tourneau Roger Le, op-cit, P 27.

3 الطبقة السفلى: أو ما يعرف بالعامة

تشكلت هذه الطبقة من بقية سكان المدينة من حضر وكراغلة وأندلسيين ويهود دوي المستوى الإقتصادي البسيط، فإضافة إلى الفئات التي توافدت على المدينة عبر فترات تاريخية، هناك من استقر وهناك من أقام بصفة مؤقتة، ولقد إلتحقت هذه الفئات بالمدينة بحثاً عن العمل، هكذا شكلت العامة بروليتاريا حقيقية كانت تعيش على هامش المجتمع(90) أي لم تكن لها أي مساهمة في الحياة السياسية.

نلاحظ في الطبقة العامة على الأقل ثلاثة مستويات، أي شرائح رئيسية: شريحة غير مستقرة وشريحة مستقرة لكن احتفظت بأصولها ولم تندمج بصفة نهائية، والشريحة الثالثة هي شريحة من الحضر أو ما كان يسمى بعامة المدينة(91) إضافة إلى هذا عرفت المدن فئة متنقلة من مدينة إلى مدينة بحثاً عن العمل حيث الظروف المادية التي تعيش فيها كانت رديئة جداً.

لقد كانت العامة تشكل طبقة حضرية وهي مقسمة إلى فئات إجتماعية نتيجة الفوارق المهنية وكانت هذه الفئات من حضرية ومستقرة ومؤقتة الإقامة ومنتقلة تميل إلى بعض التخصص في ممارسة النشاطات واحتراف المهن، هكذاغالباً ما كان المتعلمون في الوحدات الحرفية ينتمون إلى الكتلة الحضرية. وأصحاب المهن البسيطة والثانوية سواء بالمنازل أو المحلات العمومية ينتمون إلى الفئة الدخيلة فعلى سبيل المثال المتعلمون في الوحدات الحرفية بمدينة تلمسان من بين 35 متعلما نجد 33 من أصل تلمساني.(92)

كما كان السود بالإضافة إلى ممارسة الخدمات والمهن البسيطة، يتخصّصون في أعمال البناء(93) وكانت هذه الشريحة موجودة بكل المدن، وقد عرفت مدينة تلمسان نسبة هامة منهم وقد قدموا من منطقة التوات والسودان.(94)

---

(90) Raymond André, op-cit, P 99.

(91) Tourneau Roger Le, op-cit, P 27.

(92) Bel (A) et Ricard (P), op-cit, P 220.

(93) Lacoste (y), Nouschi (A) et Prenant (A), l'Algérie passé et présent, P 163.

(94) Piesse (L) et Canaal (J), op-cit, P 69.

وكانت هذه المجموعات الدخيلة على المدينة أو ما يسمى بالبرانية مجتمعة حسب إنتماءاتها الجغرافية على شكل جماعات صغيرة تحت مراقبة واحد منهم، كان يلقب بالأمين.(95)

و بالإضافة إلى الشرائح السابق ذكرها نجد بهذه المدن كذلك المزابيين من بين هذه المجموعات وإن كانت بعض العناصر من هذه الجماعة هم عبارة عن تجار أثرياء، فإن الغالبية كانت تشتغل بالمطاحن والمخابز أو الحمامات(96) إضافة إلى العمل في بعض المحلات التجارية.

وبصفة عامة، البراني عامل يتقدم لسوق العمل مجرد من كل أدوات الإنتاج التقليدية، حيث لم يسبق له أن ملك قطعة أرض أو كسب محلا حرفيا، ليس له إلا مجهوده العضلي يعرضه في سوق العمل(97). تتوافد هذه المجموعات على المدينة عبر المراحل والفترات ساهم هذا الحدث في وجود يد عاملة.

لقد شكلت فئة البرانية خزانا بشريا لليد العاملة في مختلف الأنشطة الحضرية سواء التجارية أو الحرفية أو الأشغال العمومية، وكانت فترات الإستقرار وإنجاز المشاريع العمرانية والإقتصادية تساهم في جلب عدد هام من البرانية وذلك قصد الإنشغال بهذه المشاريع ونشير هنا إلى عهد الباي محمد الكبير حيث قيامه بإنجاز مشاريع كبيرة عمرانية واقتصادية ساهمت في جلب عدد هام من اليد العاملة، كما وجدت هذه الأخيرة في هذه الإنجازات مصدرا للكسب والثروة.(98)

وكان امتلاك العبيد عادة لدى الفئات الراقية حيث نجدها تمتلك عبيدا يتولون القيام هذه الأخيرة بالأعمال سواء في البساتين وحدائق هذه الفئات والنساء تقمن بالأعمال في المنازل. كما توسعت هذه العادة بين فئات الطبقة البرجوازية.

---

(95) Boyer Pierre, la vie quotidienne, P 23.
(96) Venture De Paradis, op-cit, P 119.
(97) Merouche Lemnouar, "Les Berranis à l'époque Turque et au début de la période coloniale" Original d'une Communication présentée au colloque sur la classe ouvrière dans le monde arabe, organisé par L.O.A.T. 1979.
(98) Gorguos (A), "Notice sur le bey d'Oran", in "R.A", 1857, P 408.

هكذا كان صانع الأحذية وبائع اللحوم وصانع الحباك والتاجر وأثرياء آخرون يخدمهم السود.[99]

لقد شكلت هذه الشرائح بمختلف مستوياتها ما كان يسمى بالطبقة السفلى أو العامة، وكانت العامة غالباً هي الطبقة التي لا تملك مصادر ثروة كالأملاك العقارية أو المصانع وإنما كانت تعيش من الخدمات التي تقوم بها سواء في المجالات التجارية أو الحرفية أو الخدمات العمومية، أو في ورشات البناء والمصانع العمومية .

هذه بصفة عامة أهم الفئات التي كانت تشكل الطبقة العامة وأهم الممارسات والنشاطات التي كانت تقوم بها هذه الطبقة، وبصفة عامة لقد كانت هذه الطبقة في خدمة الطبقات السابق ذكرها: الأرستقراطية الحضرية، والبرجوازية الحضرية، ورغم الخدمات التي كانت الطبقة العامة تقوم بها إلا أنها كانت تمثل المجموعة الإجتماعية التي لا تشارك في ممارسة السلطة، بل مثلت الطبقة المستغلة والمسخرة لخدمة الطبقات العليا.

(99) Emerit Marcel, "les Tribus privilégiées", P 46.

III العلاقات التي سادت التركيبة الإجتماعية:

إن العلاقات التي سادت واتصفت بها هذه التركيبة الإجتماعية وطبعتها، كانت نتيجة عوامل وأسباب متعددة عملت على تحديدها ونذكرمنها:

أن الفوارق الإجتماعية والإقتصادية حددت شكل العلاقات وخلقت علاقات تضامن مبنية على أساس مصالح ما بين الفئات،سنحاول هنا أن نشير إلى بعض الأمثلة لتدعيم هذه الفكرة التي تنص على أن أساس العلاقات تحدده المصالح المختلفة.

هكذا نلاحظ أن التجار والحرفيين كانت رفاهيتهم تتوقف أساساً على الإستقرار السياسي للطبقة الحاكمة[100] حيث تبعية التجار والحرفيين لسلطة السياسة ميزت وطبعت العلاقات التي سادت بين الطبقة الأرستقراطية والطبقة البورجوازية، عكس ما عرفته بورجوازية المدن الإيطالية.[101]

هكذا فإن الطبقة البورجوازية الحضرية كانت تابعة وتحت نفوذ الطبقة الأرستقراطية. وبصفة عامة فإن الطبقة البورجوازية المغاربية لم تكن طبقة مستقلة تظهر كطرف منافس وقوي في وجه السلطة الحاكمة.

حتى وإن كانت الطبقة البورجوازية تراقب بنفسها قضاياها فقد بقيت تحت سيطرة السلطة المركزية بطرق شتى (منها الضرائب واحتكار السلطة).[102]

لقد كانت فئة الحرفيين تنشط تحت احتكار فئة التجار، وكانت مجموعة التجار الكبار تتحكم في النشاطات سواء الحرفية أو التجارية، لكن هذه الفئة كانت دوما تابعة لرجال السلطة ولا تستطيع الإستغناء عن هذه التبعية، بل كانت غير قادرة على إقامة سلطتها السياسية، وممارسة التجارة في حد ذاتها خاصة عندما تكون هامة تتطلب حماية من أصحاب السلطة السياسية.[103] وهيمنة السلطة على النشاطات الإقتصادية ميزة طبعت هذا المجال الحضري.

---

(100) Stambouli Fredj, op-cit, P 84.

(101) لقد شكلت البرجوازية الإيطالية طبقة منافسة ومستقلة عن الطبقة الأرستقراطية.

(102) Stambouli Fredj, cap-cit, P 85.

(103) Oumlil Ali, "Ibn Khaldoun et la société urbaine", in "La ville arabe dans l'islam" 1982, P 42.

أما علاقة فئة العلماء بالطبقة الأستقراطية: فقد لعبت هذه الفئة أدواراً هامة في علاقتها ما بين السلطة وباقي السكان، حيث قامت بإنجاز وظائف هامة وعن طريقها أنجزت أهم قرارات المجتمع، حيث كثيراً ما تستخدم الطبقة الأرستقراطية فئة العلماء، ففي مراحل تطورها وبعد إستخدام أهل السيف من أجل السيادة والسلطة، تستخدم أهل القلم من أجل أن تعطي لقراراتها وسلطتها الصبغة الأخلاقية والقانونية.

إن مختلف العلاقات التي تحكمت في التركيبة الإجتماعية حددتها الفوارق الإقتصادية والإجتماعية ووضحت، هذه الفوارق الخطوط العريضة لهذه العلاقات وعملت على ظهور نظام معقد للعلاقات يسوده التضامن والمصلحة، حيث المصالح المشتركة كثيراً ما دعمت العلاقات الإجتماعية وتناقضها كثيراً مما عمق الهوة بين الفئات الإجتماعية.

وفي هذا المجال نشير إلى الأرستقراطية المخزنية والفئة الدينية حيث اصطدمت المصالح وأصبح التنافس حاد لأن كل فئة كانت تريد أن يكون لها نفوذ أوسع. لقد ساد التضامن بين الفئتين أثناء محاربة الوجود الإسباني، وزوال هذا العامل أدى إلى اصطدام المصالح المتمثلة في توسيع مصادر الثروة أي امتلاك الأرض الخصبة خاصة .

هذا التنافس تجسد من خلال صراع القبائل المخزنية التي كانت تنعم بالقوة والجاه وقبائل الرعية، القبائل المضطهدة والتي استغلت الفئات الدينية غضبها لتمرد والحد من نفوذ الفئة المخزنية.

صراع المصالح واصطدامها وانسجامها أحيانا وتوافقها عكسته لنا المدينة والريف.

لم نتعرض إلى مختلف العلاقات، بل توقفنا عند أهم العلاقات، العلاقات التي حددت التركيبة الإجتماعية التي سادت آنذاك، أما بقية العلاقات ونقصد بها تلك التي سادت بين الطبقة الأرستقراطية والبورجوازية والطبقة العامة، فقد كان يحددها الإستغلال والتسخير لأن فئات الطبقة كانت في خدمة الطبقات الأخرى.

هذه بصفة عامة أهم الطبقات والفئات الإجتماعية وأهم العلاقات التي حددت التركيبة الإجتماعية التي سادت آنذاك.

أما أهمية العامل الإجتماعي فإنها تكمن في عمق التنوع وتعدد العناصر المكونة وتجلى هذا التنوع على المستوى الحضري، حيث أن التقسيم الجغرافي للمدينة وتفرقه السكان إلى أحياء واضحة الملامح، شكل هيكلة إجتماعية تجد مفهومها وشرحها في مخطط المدينة. إن تنظيم المجال الحضري تاريخيا أملته هيكلة العامل الإجتماعي وحياة هذا الأخير.

ومثلت الحياة الحرفية والتجارية والجمعيات والوحدات المهنية والحرفية أطر لهذه الحياة.[104] هكذا تناولنا للجانب الإقتصادي بجل وظائفه والجانب الإجتماعي بمجمل فئاته يجعل الأرضية التي عاشت عليها هذه الفئات ومارست أنشطة مختلفة أكثر تجسيدا والتماسا.

منطق العلاقة الطوبوغرافية تشرحه الظروف الإقتصاددية.[105] وتهيئة المجال الحضري يشرح جيدا شكل العلاقات ومتطلبات التجمعات الموجودة بالمدينة سواء كانت على شكل عائلي، قبلي، مهني، منطوية على نفسها، متجاورة أو حسب ترتيب تدرجي.[106]

تناولنا للوظائف الإقتصادية بمختلف فروعها والتركيبة الإجتماعية بمجمل فئاتها والعلاقات التفاعلية التي نجمت عن هذه العناصر كما تجلى عنها تنظيم وتهيئة معينة للمجال الجغرافي، التطرق إليه ومعرفته أصبحت أمرا ضروريا وسهلا نتيجة لتوفر الأدوات السابق ذكرها.

---

(104) Barkan Omer Lutfi, op-cit, P 302.

(105) Planhol Xavier, "Forces économiques et Composantes culturelles dans les structures Commerciales des Villes islamiques", in "La ville arabe dans L'islam", 1982, P 235.

(106) Chevallier Dominique, "Sang des villes, sang des peuples", in "La ville arabe dans L'islam", 1982, P 541.

الفصل الرابع

دراسة النسيج العمراني والحياة الثقافية لحواضر بايلك الغرب
خلال القرن الثامن عشر

I- دراسة النسيج العمراني

II- الحياة الثقافية

I - دراسة النسيج العمراني:

سنحاول في هذا الفصل التعرض لأهم مكونات النسيج العمراني لهذه المدن، المراكز والأحياء، وأهم المؤسسات الحضرية ودورها في إبراز تنظيم معين خاص بشكل المدينة العربية الإسلامية، كما نحاول التعرض إلى طبيعة العلاقات الموجودة بين مركز المدينة والأحياء، ثم نحدد دور الأحياء محللين الأسس التي إرتكزت عليها هذه الأخيرة، فهل كانت أسسا تعكس فكرا عشائريا أم عرقيا أو مهنيا ؟

تهدف دراستنا لهذه الحواضر إلى التركيز على الخصوصيات التي تميزت بها هذه إذ انفردت بخصوصيات مع إبراز الميزات والخطوط العامة للمدينة العربية الإسلامية "النموذج".

بنية المدينة العربية الإسلامية:

إن محاولتنا لدراسة النسيج العمراني لهذه الحواضر، وقبل أن نتعرض لأهم الهياكل العمرانية التي شكلت حواضرنا نحاول أن نتطرق إلى ذلك من خلال تناولنا للمدينة العربية الإسلامية وذلك عن طريق القيام بدراسة تحليلية لنسيجها العمراني من خلال أهم هياكلها ومميزاتها ويكون ذلك إنطلاقا من الشكل «النموذج» الذي يضم جل مقومات وهياكل المدينة العربية الإسلامية.

لقد إتصفت المدينة العربية الإسلامية بعدة سمات والتي شكلت قواعد وثوابت أساسية لهذا الشكل الحضري، ونشير هنا إلى أنه بدون جدل في الطرح فالمدينة العربية الإسلامية أساسها السوق كما تتشكل من مختلف الوحدات الحرفية.[1]

لقد إنفرد النسيج الحضري العربي الإسلامي بثوابت شكلت ميزات أساسية لهذا النمط عن باقي الأنماط الحضرية الأخرى. تمثلت خصوصيات هذا النمط في بنياته وخاصة منها البنية الوظيفية لأحيائه علما أن الميزة الهامة لهذا النموذج هي السوق، أما الميزات الأخرى فهي موروثة عن حضارات الشرق القديم.[2] كما نجد أنها تشترك في مواصفات مدن الشرق القديم مدن المغرب العربي والمشرق العربي معا، وبصفة عامة فإن المدينة العربية الإسلامية إستفادت من التراث الحضاري سواء ذلك الذي ورثت مخلفاته أو الذي إحتكت به.[3]

لقد كانت المدينة العربية الإسلامية مهيكلة على الشكل التالي: مركز المدينة يتشكل من المسجد والسوق المركزي والحمام وتحيط به الأحياء الحرفية بمختلف تخصصاتها خاضعة لترتيب وتنظيم محكم، حيث نجد لمحاذاة المركز أسواقا وأحياء الحرف النبيلة أو الهامة وهي تشمل صناعة المعادن الثمينة والشموع والعطور وبائعي الكتب ومجلديها والصناعات النسيجية وصناعة الجلود بمختلف فروعها خاصة الأحذية، ويخضع التركيب إلى التدرج حسب القيمة الممنوحة للصناعة والسوق، وهكذا كانت أحياء الأطراف أو الضواحي تضم الحرف الأقل إعتبارا أي الثانوية وهو ما كان يسمى بالحرف السوقية مثل صناعة الخشب، وصناعة لوازم الحيوانات منها صفائح الحيوانات، والحدادة والصناعات المعدنية والصوف غير الجاهز وعصر الزيوت، ثم دبغ الجلود والصناعات الفخارية، فهذه الصناعات والأسواق تتميز بموادها الخشنة والتي مجملها يؤتى بها من الفحوص والأرياف المجاورة للمدينة أو من المناطق البعيدة، كما توجد بالإضافة إلى ما سبق أسواق الحبوب والخضر وأسواق مخصصة للحيوانات.

---

(1) Massignon Louis, Opéra Minora, T.I, P 370.

(2) Wirth Eugène, "Villes islamiques, Villes Arabes", in "La Ville arabe dans L'Islam", Tunis, 1982, P 198.

(3) ورثت المدينة العربية الإسلامية كل المخلفات الحضارية للمجال الجغرافي الذي أنتشرت عبره، كما احتكت بحضارات منها حضارات الإغريق والرومان وبصيغة عامة كانت هناك علاقات، بل كثيرا ما تداخلت الأنماط وذلك على كافة ضفاف حوض البحر المتوسط، شمال جنوب وشرق غرب.

كانت هذه الصناعات والأسواق تحتل ضمن ترتيب أحياء المدينة أحياء الضواحي والمجاورة للأبواب نظرا لإستعمالها لمواد خشنة ينجم عنها روائح كريهة كعملية غسل الجلود ودبغها، ودخان أفران لصناعة الفخارية وضجيج الحدادة فضلا عن أوساخ المذابح.

إن هذا الترتيب للأسواق يرافقه ترتيب للفئات الإجتماعية، حيث إن الفئات الراقية إجتماعيا وإقتصاديا كانت تحتل أحياء يتوفر فيها الهدوء والراحة والأمن، أما الفئات الأخرى أي المتوسطة والفقيرة فهي تتوزع ما بين الأحياء الحرفية وأحياء الضواحي ، ثم تأتي الفئات التي قدمت إلى المدينة من أجل العمل حيث تقيم بـ القرب من الأبواب.

هكذا كانت الأحياء الحرفية والأسواق ضمن المدينة العربية الإسلامية تخضع لترتيب: من المواد الكمالية إلى المواد الثانوية إلى السوقية وإبتداء من المركز إلى الضواحي.

غالبا ما تكون تلك الثوابت التي تشكل مركز المدينة تلتقي والوسط الجغرافي للمدينة وفي الضواحي نجد سور المدينة فيه فتحات وهي تشكل الأبواب التي كانت تربط المدينة بالعالم الخارجي سواء القريب أو البعيد، ولقد كان سور المدينة يرسم حدودها وما بين المركز والحدود أي سور المدينة مناطق أي مجالات مختلفة الوظائف ونجد هذا التنظيم في جل الحواضر وإن كان تطبيقه بصفة كاملة ومحكمة يعتبر عملية صعبة. في تاريخ كل مدينة هناك جانب عفوي وجانب خضع لإرادة الإنسان، والتفرقة ما بين الجانب المخطط له والجانب العفوي ليست من صلاحيات الهندسة بل غالبا ما تتطلب فكر حاد النظر.(4)

إن تنظيم وتخطيط المدن غالبا ما يخضع لظروف جغرافية وتاريخية تعرقل هذا الترتيب مما يجعلنا نعثر على إستثناءات أو شواذ لأن إحترام المخطط العام للمدينة وهيكلته بصفة دقيقة ومحكمة أمر صعب تطبيقه وإحترامه.

إنطلاقا مما سبق نحاول الآن أن نقوم بدراسة تحليلية للنسيج العمراني للحواضر المدروسة.

---

(4) Pauty Edmond, "Villes Spontanées et Villes crées en Islam", in "A.I.E.O" T.IX, 1951, P 58.

1 المراكز:

لقد كان المركز يتشكل من الثوابت الآتية: المسجد الكبير الذي يوجد بجوار السوق المركزي إضافة إلى الميزة التالية والتي هي ليست بثابت من الثوابت التي تشكل مركز المدينة العربية الإسلامية وهي وجود القصر أو مقر الحاكم[5]. فهذه الميزة الثالثة لا نجدها إلا في المدن الكبرى أو الهامة التي تشكل مقرا و مركزا سياسيا أو إداريا هاما. وهذه المجموعة المدروسة أي تلمسان، ومازونة، ومستغانم، ومعسكر وندرومة تصنف ضمن المدن العربية الإسلامية الهامة والمتوسطة وكانت تتوفر بها الثوابت كاملة، كما ترتب هذه النواة المركزية بصفة أكثر دقة وتفصيلا في شكلها الكامل كالآتي: السوق يمثل المركز الأول، المركز الثاني القلعة والثالث سوق الغزل حيث تسوق النساء ما ينتجنه أو يقتنين ما هن بحاجة إليه والمركز الرابع هو المسجد وملحقته المدرسة.[6]

نحاول فيما يلي التعرض إلى كيفية ترتيب مراكز حواضرنا، وذلك من أجل ملاحظة وتطبيق ما سبق الإشارة إليه: أي توفر كل مركز على الثوابت التي أشرنا إليها، إضافة إلى كيفية هيكلته، ونبدأ بمدينة تلمسان.

مركز مدينة تلمسان:

لقد كان مركز مدينة تلمسان مشكلا كالآتي: يوجد بوسط المدينة المسجد الكبير وهو أكبر بناية تقابله القيصرية وهي تقع في شمال المسجد، والقيصرية سوق يوجد به دكاكين عديدة وجلها مخصص للمنتوجات الصوفية والنسيجية من حياك وأغطية وزرابي إضافة إلى البرانيس[7]. ويعتبر هذا المركز مستقلا نوعا ما عن المراكز الأخرى لكونه مخصصا لنساء[8] ويوجد المسجد الكبير أو الأعظم شمال المدرسة التاشفينية التي أسست في القرن 14م إضافة إلى المكتبة[9] وشرق المسجد يوجد بيت البايلك[10] إضافة إلى مؤسسات حضرية أخرى تعتبر ضرورية لمركز المدينة العربية الإسلامية، منها الحمامات والفنادق، حيث كان يوجد به فندقان وحمامان.[11]

---

(5) Tourneau Roger.Le, Les villes musulmanes de l'Afrqiue du Nord, P 12.
(6) Gardet Louis, La cité musulmane, P 244.
(7) Ministère de la Guerre, Tableau des établissements, 1839, P 289.
(8) Massignon Louis, op- cit, P 372.
(9) Piesse et Canal, Les villes de l'Algérie, Tlemcen, Paris, Barbier, 1889, P 74.
(10) Cocq André Le, Histoire de Tlemcen, P 238
(11) Emerit Macel, l'Algérie à l'époque d'A.E.K. P 19.

مركز مدينة مازونة:

لقد كان يجسم مركز مدينة مازونة المسجد الكبير ومدرسة مازونة الشهيرة وهي ملحقة بـ المكتبة، كما كان السوق المركزي أي السوق الإقتصادي والرسمي يتداخل مع المركز الجغرافي، حيث أنه فضلا عن وظيفته الإقتصادية كان مركزا للحياة الثقافية والدينية والإدارية.[12]

مركز مدينة مستغانم:

كان البلد أي حي البلد نجد به المسجد الكبير وبجواره السوق الكبير، كما يوجد مقر القائد التركي، حاكم المدينة غير بعيد عن النواة المركزية أي المسجد والسوق، حيث يوجد بالمنطقة السفلى بالقرب من حي الأرستقراطية والحي اليهودي.[13]

مركز مدينة معسكر:

أما مدينة معسكر فكان مركزها يتألف من المسجد والسوق القديم إضافة إلى الفندق الجديد وحمام الأدهم ومقر البايلك، كما نشير إلى أن المسجد المركزي كان يطلق عليه إسم المسجد العتيق والمعروف عند سكان مدينة معسكر بجامع سيدي حسن.[14]

مركز مدينة ندرومة:

كان مركز مدينة ندرومة يتشكل من المسجد الكبير إلى جانب السوق المركزي والمسمى بالتربيعة. كان المسجد المركزي بمحاذاة حي التجارة وهي ميزة ثابتة بجل المدن حيث نجد المسجد والسوق الكبيردائما جنبا إلى جنب[15]. إضافة إلى المسجد والحي التجاري التربيعة نجد سوق الصوف في زواية مستقلة عن التربيعة القريبة من المسجد الكبير وتتردد عليه بصفة خاصة النساء،[16] كما كان يوجد بجوار المسجد حمام قديم مثلما يتضح من تسمية "الحمام البالي".[17]

لقد كان حي التربيعة يشكل الحي المركزي، ويضم كلا من المسجد الكبير والسوق والحمام وسوق الصوف المخصص للنساء،[18] أي مركز بكامل مؤسساته.

---

(12) Sari Djilali, les villes précoloniales, P 51.

(13) Bodin Marcel, Traditions indigènes de Mostaghanem, P. 17.

(14) سعيدوني نصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، ص 248.

(15) Tourneau Roger Le, op- cit, P 35.

(16) Sari Djilali, op- cit, P 45.

(17) Grand Guillaume Gilbert, Nédroma, P 78.

(18) Bel Alfred, "Nédroma", in " B.S.G.A.A", N 140,1934, P 511.

هكذا لقد مثل مركز المدينة الحي المركزي بمؤسساته واحتل المسجد الكبير بثقله المركز الروحي للمدينة لكونه مكان علم ومعرفة، ومقر مدرسة[19] وبيت المؤمنين وجهاز السلطة السياسية ومركز إشعاع ثقافي بملاحقة من المدرسة والمكتبة ومركز النشاطات الإقتصادية أو في علاقة وطيدة بهذا النشاط[20]، لم تلتق هذه المؤسسات في مركز المدينة بصفة عفوية، إنما تنظيم الحياة ومتطلبات الأنشطة هي التي أملت هذا التقارب ونسجت هذه العلاقة وأملت هذا التجاور لهذه المراكز ونلاحظ بين مختلف هذه الموسسات علاقات تكامل وانسجام، علما أن مركز المدينة كان يجسد كل النشاطات التي تقوم بها المدينة ويعكس مستواها وقوتها على مستوى جميع الأنشطة.

بعد إلقاء نظرة على المراكز والمؤسسات التي تشكل هذه النواة المركزية ضمن النسيج العمراني لهذه الحواضر، نحاول أن نتعرض إلى مجالات حضرية أخرى بمختلف فئاتها ونشاطاتها الحرفية والتجارية ضمن هذا الحيز الحضري كما نشير إلى الطرقات التي تخترقها.

2 الأحياء والطرقات:

تتميز الأحياء سواء من خلال أصل سكانها أو من خلال نشاطاتهم. حيث توجد أحياء إجتمعت وتشكلت على أساس عرقي وأخرى على أساس وظيفي[21]، كما نلاحظ فرقا ما بين الأحياء: فهناك الرسمية منها والسكنية والحرفية والتجارية.

لقد كان الحي الرسمي يوجد غالبا بعيدا عن المركز وغالبا ما يكون قريبا من أحياء الضواحي، ويمثل الحي الرسمي مدينة كاملة المرافق، حيث تكون له أسوار وأبواب لحماية الفئة القاطنة به[22] ونشير هنا على سبيل المثال إلى حي المشور بمدينة تلمسان، وحي عرقوب إسماعيل بمدينة معسكر.

(19) Stambouli et Zghal, "La Vie Urbaine dans le Maghreb précolonial", in "A.A.N", no XI, 1972, P206

(20) Marçais Georges, "La conception des Villes dans L'Islam", in "R d'Alger", no 10, 1945, P 529.

(21) Marçais Georges, "L'Urbanisme musulman", in V. congès de la fédération des sociétés savantes d'Afrique du Nord, Alger, Soc-H, 1940, P 18.

(22) Ibid, P 229.

إن تقسيم وتنظيم الأحياء الذي عرفته المدينة العربية الإسلامية أملته التشكيلة الإجتماعية وحياة هذه الأخيرة، ويظهر ذلك من خلال تهيئة المجال الحضري، حيث يشرح لنا هذا الأخير بصفة أوضح شكل العلاقات ورغبات المجموعات السكانية سواء كانت منطوية على نفسها، أو مركبة، متجاورة أو متدرجة.[23] وبين هذه العوامل التي تداخلت وتحكمت في تشكيل النسيج الحضري وتشكيل الأحياء، بين العرقي والوظيفي، نستطيع أن نقر بأن المدينة حدث إجتماعي وواقع ثقافي: غالبا ما كانت الأحياء تخضع لتقسيم قبلي وليس إقتصادي[24]، لكن كثيرا ما أذاب العامل الإقتصادي العامل الإثني والقبلي لأن شكل التجمع في المدينة فإنه يخضع إمّا لأسباب تقارب عائلي أو لأسباب جغرافية، حيث نلاحظ إمتدادا للتجمع الجاري في الريف أي إستمراره في المدينة. كل هذه العوامل التي تحكمت في عملية التمركز بـ المدينة.

إن الأحياء كأطر للحياة سواء كانت منغلقة ، أو مفتوحة على الخارج ساهمت في تجاوز الفكر العشائري أو المهني بزوال العلاقات الضيقة بمرور الزمن.

إن التنظيم العمراني للمدينة كان يعكس تنظيما إجتماعيا معينا وذهنية أيضا. وقد شكلت العلاقات الإجتماعية العائلية أو القبلية أساس التشكيلة البنيوية لمخطط المدينة، حيث كان المخطط يعيد الإنسجام الداخلي للمجتمع.[25]

إن التقارب على مستوى المجال المكاني، أي الإقامة في الأحياء، وضروريات الحياة تخلق نوعا من التضامن ما بين العناصر المختلفة الأصول. والنمو والتطور العادي والطبيعي للمدينة يعطي الأولوية والأسبقية لتباين على أساس وظيفي بدل التباين العرقي والجغرافي وهكذا نلاحظ أن التباين الوظيفي كان أكثر وضوحا بالمدن العربية الإسلامية[26] وغالبا ما كانت هناك علاقة ما بين تقسيم العمل والتقسيم العرقي والجغرافي للأحياء والأسواق والوحدات الحرفية والطرقات حيث كان لكل حرفة طريقها، كما كانت من إحتكار مجموعة معينة هكذا نجد على سبيل المثال الحضر يحتكرون صناعة النسيج والطرز، واليهود يحتكرون صناعة المعادن الثمينة[27] وبني مزاب يحتكرون المطاحن والمخابز والحمامات والفنادق.

---

(23) Chevalier Dominique; "la ville arabe, notre vision historique", in Espace social et culturel de la ville arabe, Paris, Maisonneuve, 1979, P 8.

(24) Ibid, P 28.

(25) Ibid, P 11.

(26) Marçais Georges, "la conception des villes dans l'Islam", P 229.

(27) Valensi Lucette; Le Maghreb avant la prise d'Alger, Paris, Flammarison, 1969, P 52.

إضافة إلى ذلك لقد عرفت هذه المدن تجمعات غير المسلمين ونذكر منها اليهود خاصة، بينما عرفت مدن المشرق العربي بالإضافة إلى اليهود تجمعات مسيحية. كما نجد تجمعات تعيش منغلقة على نفسها ليس لأسباب دينية، إنما لدوافع عرقية.[28]

إن الأحياء تتميز فيما بينها على النطاق التقني من خلال نمط المعيشة وعلى المستوى الإثني من خلال أصل السكان الذين يعيشون فيها.[29]

وهناك ميزة هامة ميزت المدن العربية في هذه المرحلة وهي وجود الأقليات على شكل طوائف تحت رئاسة أمين. أو شيخ؛ وتتمتع بنوع من الإستقلال، نلاحظ بصفة عامة أن الإختلاف العقائدي شكل عامل تفرقة، كما أن التباين في اللغة كان ملموسا لكن أقل درجة، والإختلاف في الإنتماء الجغرافي كان أقل وضوحا إن لم يدعم بالإختلاف في اللغة والدين[30].

إن إجتماع هذه العوامل الثلاثة: الدين واللغة والإنتماء الجغرافي في فئة معينة كعوامل مشتركة كثيرا ما كانت تعمق الفارق بين مختلف الفئات، وتساهم في تشكيل طوائف، كثيرا ما تجسد هذا في النسيج العمراني للمدن المدروسة، ونشير هنا إلى الطائفة اليهودية التي كانت موجودة بكل الحواضر المدروسة، حيث أن هذه الطائفة كانت تجمع العناصر الثلاثة وهناك فئات أخرى غالبا ما كانت تجتمع على شكل جاليات منغلقة على نفسها ومنطوية وذلك لتوفر عامل أو عاملين كفئة زواوة، وبني مزاب وكانت الصفة الغالبة هي التجمع على أساس الإنتماء الجغرافي، كونها جاءت إلى المدينة من منطقة جغرافية معينة فهذا العامل المشترك كان يمثل عنصر إلتفت حوله وإجتمعت بفضله فئات وفدت سواء من مناطق بعيدة أو من مناطق قريبة سواء كانت هذه المناطق حضرية أو ريفية و كانت النزعة الجغرافية قوية ولهذا شكلت عاملا قويا إلتفت حوله الفئات التي تنتمي لنفس المنطقة.

---

(28) Tourneau Roger Le, op-cit, P 19.

(29) Ibid, P 15.

(30) Raymond André, Grandes Villes Arabes à l'époque Ottomane, Paris, Sindbad, 1985, P 101.

أحياء مدينة تلمسان:

بعد هذه الملاحظات نبدأ بدراسة الأحياء والطرقات التي تضمنتها المدن المدروسة، ونربط ذلك بتوزيع الحرف والأسواق والفئات السكانية. لقد عرفت مدينة تلمسان، أربعة أحياء رئيسية[31] وهناك من يقسم تلمسان إلى ثلاثة أحياء رئيسية وهي: حي الكراغلة في الجنوب يشمل المشور وحي اليهود في المنطقة الوسطى وأحياء الحضر في المنطقة الشمالية الشرقية والجنوب الشرقي، وكانت أحياء الحضر تضم أهم المؤسسات الحضرية من مساجد وفنادق إضافة إلى القيصرية[32] أي السوق الشهير.

وكانت هذه الأحياء تتضمن بصفة أكثر تفصيلا ما يلي: كان حي المشور الذي يحتل المنطقة الجنوبية له بابان وسور ويوجد به ما يزيد عن 100 منزل وبه مسجد[33]. كان يقيم بالمشور الموظفون الأتراك والكراغلة أيضا. أما الحضر فقد كانوا يتمركزون عبر كل المنطقة الشمالية للمدينة، وكان الحضر جلهم تجارا وحرفيين[34] وكان يوجد بحي الحضر طريق يدعى السويقة أي السوق الصغير، وكان يوجد على طوله عدد هام من المحلات والورشات لكل الحرف كما نجد محلات تجارية، تباع بها الأسلحة، ولوازم الخيل والملابس والأحذية والمنتوجات الصوفية والنسيجية وكان يقصده جل سكان المدينة وأحوازها لشراء وإقتناء لوازمهم، وكان هذا الشارع ضمن حي الحضر أكثر من أي شارع آخر يعكس لنا وبصورة صادقة مظاهر الحياة الإجتماعية لهذه المدينة، كما نستطيع من خلاله أن ندرس ميزات، الملابس، والعادات لكل الطبقات ولكل المهن[35] كما كان هذا الحي يضم أهم المساجد والفنادق وتتميز طرقاته الملتوية والضيقة بمنازلها المنخفضة ومحلاتها التجارة.[36]

---

(31) Desfontaines (R.L), voyage dans Les régences de Tunis et d'Alger, Paris, Gide, 1838, P 161.
(32) Piesse et Canal, op- cit, P 72-73.
(33) Ministère de la Guerre, op- cit, 1839, P 290.
(34) Bargès (J.J. Abbé-L). Souvenirs d'un voyage à Tlemcen, P 204.
(35) Ibid, P 216.
(36) Piesse et canal, op-cit, P 73.

أما الحي اليهودي بالمدينة العربية الإسلامية فيعد ظاهرة عادية[37] هكذا تجمع اليهود بحي يخضع لهذه القاعدة والفوارق الدينية واللغوية والعرقية التي تتميز بها هذه الجالية، كما كان الحي اليهودي يوجد دائما قريبا من المركز الإقتصادي ومن هنا نفهم أهمية وتأثير الجالية اليهودية [38] على الحياة الإقتصادية، علما أن جزء هاما من الجالية اليهودية كان يمارس نشاطات حرفية وتجارية. بالإضافة إلى القرب من المركز الإقتصادي وذلك نتيجة التحكم في بعض النشاطات، فلقد كان الحي اليهودي غير بعيد عن مقر الحاكم وذلك من أجل كسب حماية السلطة وخوفا من غضب الحضر[39] ففي مدينة تلمسان كان الحي اليهودي يقع بالقرب من الحي الرسمي، مقر إقامة الجهاز الإداري والعسكري وكان يوجد بمحاذاة المشور[40] عرف حي اليهود لمدينة تلمسان بأهميته حيث كان يضم تقريبا 500 منزل وكان جل سكانه من أثرياء [41] ويعتبر الحي الأكثر سكانا[42] وكان ذا موقع هام، يتوسط المدينة، ما بين المشور والأحياء العربية الأخرى.

لقد كانت مدينة تلمسان بالإضافة إلى توزع الفئات السكانية تعرف توزع الحرف والأسواق عبر أحيائها ،فكان كل طريق له محلاته التجارية وورشاته الحرفية الخاصة، كما كانت كل حرفة تتمركز بحي معين[43]، حيث التمايز بين الأحياء على أساس وظيفي عمق ودعم التخصص إلى درجة أن كل حرفة أصبحت تتمركز في طريق معين وخاص بها.

كما نلاحظ نوعا من التسلسل والتدرج في الأسواق[44]. بالإضافة إلى الأسواق والطرقات التي سبق الإشارة إليها والتي عرفتها مدينة تلمسان. لقد عرفت بعض المناطق والطرقات تمركز بعض الحرف. ونشير هنا مثلا إلى: "خروجا من الباب الرئيسي للمسجد الكبير على يساره نجد أنفسنا في طريق طويل يوازي طول المسجد هذا الممر الضيق بأقواسه نجد به الطرازين بخيوط الذهب على الجلود[45] هذه الصناعة العريقة والرائجة بمدينة تلمسان، وإذا تقدمنا في هذا الطريق الضيق والمعطر بروائح العطور ونشير هنا إلى تمركز بائعي العطور وصانعيها بالقرب من المسجد المركزي وذلك لكون هذه الحرفة والتجارة تعد من المواد الكمالية والمفضلة إي النبيلة، كما نجد بهذا الطريق الكروم تتعانق وتغطي الأقواس كما تتميز هذه الطرقات بهدوئها رغم كثرة المارة، علما أن أغلبهم نساء.[46]

---

(37) Norbet Bel-Ange, Les juifs de Mostaghanem, Paris, L'harmattan, 1990, P. 49.

(38) Raymond André, op- cit, P 113.

(39) Marçais Georges, op- cit, P 229.

(40) Lorral (E De), "Tlemcen". in. "Revue tour du monde", 1875, P 310.

(41) Léon l'Africain Jean, Description de l'Afrique, T.II, P 310.

(42) Marmol Carvajal Louis, Histoire de l'Afrique, T. II, P 328.

(43) Bargès J.J. Abbé-L, op-cit, P 218.

(44) Marçais Georges, op -cit, P 230.

(45) Bel Alfred, Tlemcen et ses environs, P 6.

(46) Idem.

ونجد بصفة عامة خلال هذه المرحلة التاريخية جل التجار والحرفيين مجمعين بالسويقة، قليلة هي الحرف والأنشطة التجارية التي إحتفظت بأماكنها. كانت مطاحن الحبوب توجد في شرقي المدينة[47]، فالمياه التي تنزل من لاله ستي كانت تدير مطاحن عديدة[48] كما نجد معصرة الزيت بالقرب من باب زير والبعض الآخر يوجد بداخل المدينة، حيث أن مادة الزيتون كانت جد متوفرة بالحقول والبساتين المجاورة للمدينة.[49]

أما دباغة الجلود فقد كانت تحتل المنطقة المجاورة لأحياء المنطقة الشمالية الشرقية أي أغادير سابقا وكان عددها هاما جدا، حيث كان يتردد على هذا السوق من جميع النواحي والمناطق المجاورة والبعيدة لشراء الجلود [50]

هذه بصفة عامة محاولة مسح لأهم الحرف والأسواق وتوزعها عبر الأحياء والطرقات لمدينة تلمسان وتوزيع الفئات السكانية. إذ تركز الحرف والأسواق كان يخضع لقوانين وعوامل، كما أن من المركز إلى أحياء الضواحي، كانت النشاطات الحرفية والتجارية منظمة حسب الأهمية، فالنشاطات الهامة بالمركز والثانوية تحيط بالمركز وتحتل الأنشطة الأقل أهمية الأحياء الفقيرة أحياء الضواحي حيث نلاحظ في نهاية أحياء الضواحي أي الأنشطة الموجودة عند الأبواب وخارجها، غالبا ما تتداخل الأنشطة الحضرية والأنشطة الريفية، أي يصبح إقامة الفرق ضئيلا نتيجة التداخل، كما تصبح الأنشطة الحرفية والتجارية خاصة تعرض المنتوجات الريفية عامة: منها أسواق الحيوانات وأسواق المنتوجات سواء الحبوب أو الخضر أو منتوجات أخرى.

أحياء مدينة مازونة:

لقد كانت المدينة تتشكل من أربعة أحياء، حيث كان لكل حي مسجده الذي تقام به الصلاة الأسبوعية[51] والأحياء الأربعة هي: في الشمال حي أولاد السايح، في الشرق حي بومعطة في الجنوب حي تيسارة، في الغرب حي القصبة، لقد كان يوجد ضمن هذه الأحياء الكبيرة أحياء صغيرة، كان واحد خاصا بالأتراك وآخر خاصا باليهود.

---

(47) Léon l'Africain Jean, op- cit, P 339.
(48) Ministère de la guerre, op- cit, 1839, P 287.
(49) Bargès J.J Abbé. L., op -cit, P 411.
(50) Cocq André - Le, op- cit, P 309.
(51) Berque Jacques, "Retour à Mazouna" in "Annales, E.S.C," n 1, 1972. P 153.

عرفت مدينة مازونة صناعات ثرية وإشتهرت خاصة بالصناعات النسيجية، وتميزت بناتها بغزل الصوف كما أن عملية دبغ الجلود كانت منتشرة عبر كل أحياء مازونة وكانت أسواقها دائمة الحركة، حيث كان سوقها الأسبوعي يقام يوم السبت والأحد.[52]

كانت الفئات السكانية التي تتقاسم أحياء مازونة هي: في الشمال العنصر العربي، في الشرق الكراغلة وفي الجنوب حي تيسارة للحضر خاصة التجار والحرفيين وفي الغرب القصبة التي أقامها الأتراك تضم الفئة التركية ومنزل القائد حاكم المدينة.[53]

أحياء مدينة مستغانم:

كانت أحياء مدينة مستغانم منظمة ومرتبة على النحو التالي: كان حي مدينة مستغانم وحي المطمر يشكلان مدينتين واضحتي المعالم، حيث كان لكل واحد منهما سوره ويفصل بين الإثنين واد عين الصفراء، الذي يخترق المدينة طولا. ويساهم هذا الأخير في نموها وثرائها[54]، يقع حي مستغانم على الضفة الشرقية لواد عين الصفراء، وحي المطمر على الضفة الغربية، كما يوجد حيان آخران جميلان هما: حي تجديد ودار الجديد[55]، خروجا من المطمر عن طريق باب مجاهر نصل إلى حي تجديد وهو مدينة قائمة بذاتها والطريق المؤدي من باب مجاهر إلى تجديد يسمى قادوس المداح وتعود تسميته إلى تجمع المياه عند الواد الذي يسقي هذا الحي حيث كان المداحون والشعراء يجتمعون وحولهم جمهور من الهواة للإستماع إلى الشعراء.[56]

يمثل حي تجديد الحي العربي من خلال بناياته وطرقه الضيقة والملتوية ويقطنه الحضر، وبعد تجديد يوجد حي السويقة حيث كان يقيم بهذا الحي أرقى وأقدم العائلات العريقة بالمدينة، فالسويقة تمثل الحي الأرستقراطي الهادي.[57]

أما الحي المركزي والمسمى بالبلد حيث يوجد المسجد الكبير والسوق الكبير الذي يحتوي على محلات تجارية ومخابز وغير بعيد عن السوق الكبير يوجد سوق الحبوب وهو يقع في مقر الكنيسة حاليا[58] وبمحاذاة الحي المركزي يوجد حي إقامة الأتراك والكراغلة.

---

(52) Ministère de la Guerre, op -cit, 1839, P 283.
(53) Belhamissi Moulay, Mazouna, une petite ville, une longue histoire, Alger, SNED, 1982, P 17.
(54) Bodin Marcel, op- cit, P 34.
(55) Pellissier (E), Annales Algériennes, Vol I, P 243.
(56) Bodin Marcel; op- cit, P 65.
(57) Ibid, P 85.
(58) Le vieux Mostaganem, in journal d'économie politique, Juillet 1920, N 13.

بجوار الحي المركزي وحي الأتراك والكراغلة يوجد الشارع الكبير والذي كان يسمى سابقا درب اليهود، حيث كان هذا الحي،-حي إقامة اليهود-، وكان يعرف حياة شعبية نشيطة وجل الحرف متمركزة به فضلا عن المحلات التجارية[59] بل كان أكبر تمركز للمحلات بهذا الحي، وبلغت 124 محلا، وضم حي البلد أي السوق الكبير 57 محلا، كما ضم الحي اليهودي معبدين تمارس العبادة في واحد منهن فقط [60] وكان الحي اليهودي يقع بالقرب من مقر البايلك وحي الأرستقراطية المحلية.

أما حي المطمر فيقيم به الحضر الذين يمارسون التجارة وخاصة تجارة الحبوب[61] علما أن تسميته بالمطمر راجع لكثرة مطامر الحبوب بهذا الحي.

أما في جنوب المدينة فيوجد الحي المعروف بـ"دار الجديد" وهو حي بيمرة حاليا، بالإضافة إلى هذه الأحياء كانت المدينة تضم حيا صغيرا يدعى بالعرصة حيث كان يقيم فرسان المخزن.[62]

وعرفت مدينة مستغانم حرفا وصناعات مختلفة، منها الطرز والنسيج ودباغة الجلود وصناعة الأحذية وكانت هذه الحرف من إختصاص الحضر واليهود الذين كانوا يحتكرون صناعة الصياغة[63]، وكانت مياه وادي عين الصفراء تشغل عددا هاما من المطاحن، تقدر بـ7 مطاحن[64] كانت تقع خارج المدينة[65]، لقد عرفت أحياء وضواحي أنشطة حرفية وتجارية نشيطة ومكثفة ونتيجة لهذه الأهمية الحرفية والتجارية إعتبرت مدينة مستغانم منذ مطلع القرن 16م إلى غاية نهاية القرن 18م المدينة الثانية بعد مدينة تلمسان على مستوى بايلك الغرب.[66]

---

(59) Bodin Marcel, op-cit, P 17.

(60) Mostaganem, Situation état et Tableaux, Archives de la Wilaya d'Oran, Mostaganem le 16 Janvier 1834.

(61) Belhamissi Moulay, Histoire de Mostaganem, Alger, C.N.E.H, 1976, P 118.

(62) Priou Louis, Mostaganem et son arrandissement, Mostaganem imp de Mostaganem, 1892, P 9.

(63) Ministère de la Guerre, op-cit, 1838, P 343.

(64) Belhamissi Moulay, op-cit, P 96.

(65) Léon Lafricain Jean, op-cit, P 343.

(66) Bodin Marcel, op-cit, P 9.

أحياء مدينة معسكر:

أما مدينة معسكر، فلقد كانت تتألف من خمسة أحياء، حيث نجد في الشمال الغربي حي بابا علي، وفي الغرب حي عرقوب إسماعيل، كما نجد في الشرق حي الباب الشرقي وحي العين البيضاء في الجنوب، وحي سيدي علي محمد على الهضبة الشرقية للوادي الذي يشق مدينة معسكر، والحي المركزي هو مدينة معسكر القديمة.[67] الوادي الذي كان يخترق مدينة معسكر هو واد عين السلطان الذي كان يسقي مدينة معسكر وأحيائها.[68]

لقد توزع عبر أحياء المدينة إضافة إلى الحضر والكراغلة والأتراك والجالية اليهودية التي كانت معتبرة كما ضمت المدينة عددا هاما من عائلات أهل المخزن وذلك لما توفره المدينة من أمن أثناء الحروب وكانت هذه الفئة الحاكمة تقيم بحي عرقوب إسماعيل الذي شيد في العهد العثماني من طرق أهل المخزن، كما كان حجم هذا الحي معتبرا.[69]

إن وجود أحياء مخصصة للعائلات المخزنية نستطيع أن نقول أنها ميزة عامة شملت جل المدن المدروسة.

كانت الفئات السكانية الأخرى موزعة على باقي الأحياء كما كان أكبر طريق لتمركز الأنشطة الحرفية والتجارية يتمثل في الطريق الرابط بين مركز المدينة وباب بابا علي، حيث عرف هذا الطريق تمركزا هاما للمحلات التجارية والحرفية التابعة للحضر واليهود، وتتواصل هذه المحلات إلى خارج باب بابا علي إلى غاية نهاية الطريق وعرف السوق القديم، أي مركز المدينة حياة تجارية وحرفية نشيطة حيث تجمعت به جل الصناعات الصوفية ومنتوجاتها النسيجية خاصة البرانيس والزرابي والحياك وكان يوجد بهذا المركز سوق الحبوب، أما الصناعات الفخارية فكانت توجد على ضفاف وادي عين السلطان خارج المدينة.[70]

وكانت دباغة الجلود منتشرة عبر حي سيدي علي محمد نتيجة لتوفر المياه[71] وبحي عين البيضاء وبالإضافة إلى دباغة الجلود التي عرفها الحي فقد ضم أيضا عددا من المصانع ومسجدا جميلا.[72]

---

(67) Rapport de Mascara, Archives de la wilaya d'Oran, Juillet 1876.
(68) A.M.G. H. 226, Expedition à Mascara, par St. Hypolite, Août 1835.
(69) Ministère de la Guerre, tableau, 1840, P 23.
(70) Emerit Marcel, l'Algérie à l'Epoque d'A.E.K, P 93.
(71) Ibid, P 90.
(72) Ministère de la Guerre, Tableau, 1840, P 24.

إن الأهمية التجارية والحرفية لمدينة معسكر أصبحت تفوق أهميتها السياسية[73] حيث بالإضافة إلى سوقها الأسبوعي الذي كان يعقد عند "باب بابا علي" أيام الجمعة والسبت والأحد نجد سوقا هاما تباع فيه المواد المختلفة منها البرانيس السوداء ذات الشهرة الواسعة والحياك والزرابي إضافة إلى الصوف والحيوانات، وكان يعتبر من أكبر أسواق البايلك، حيث كان يقصده التجار للبيع والشراء من 30 منطقة.[74]

لقد أشرنا إلى هذا السوق نتيجة لأهميته وأهمية المنطقة التي يعقد بها، حيث أصبحت هذه المنطقة تعد المركز الثاني بعد المركز الإقتصادي الأول للمدينة.

وبالإضافة إلى الصناعات والحرف التي سبق ذكرها، عرفت المدينة الصناعات الكمالية وذلك لكونها عاصمة، حيث تجدر الإشارة إلى الطرز على الجلود والقماش، والمناديل الحريرية والبرانيس ذات الشهرة الواسعة وسروج الفرسان المطرزة. إن هذه الصناعات والحرف كانت متواجدة بالمدن الأخرى المدروسة مثل تلمسان ومستغانم ومازونة وندرومة، لكن كون معسكر عاصمة القرن الثامن عشر ووجود وإستقرار الفئة الحاكمة بها يساهم في توسيع الطلب على ماهو كمالي.

أحياء مدينة ندرومة:

أما أحياء مدينة ندرومة إلى جانب حي التربيعة والذي شكل الحي المركزي للمدينة[75] نجد أربعة أحياء حسب تقسيم قديم، كما تلتقي حدود الأحياء عند سوق الصوف الذي يحتل زاوية من زوايا التربيعة، لقد كانت المنطقة الجنوبية تضم حي بني عفان في الغرب وحي بني زيد في الشرق، أما المنطقة الشمالية فكانت تضم حي الخربة في الشرق وحي السوق في الغرب[76]. علما أن تسمية الأحياء تعود إلى أصول المدينة.[77]

كان يقيم بهذه الأحياء كل من الأتراك والكراغلة والحضر والجالية اليهودية، نلاحظ إلى أن حي بني عفان كان يقيم به السود[78] وكان هناك حي مخصص لليهود.[79]

---

(73) Piesse Louis, Histoire de l'Algérie, Paris, Hachette, 1885, P 250.
(74) Rapport de Mascara, Archives de la Wilaya d'Oran, Juillet 1876.
(75) Bel Alfred, "Nédroma", in, "B.S.G.A.A" n 140, 1934, P 511.
(76) Grand Guillaume Gilbert, Nédroma, P 78.
(77) Janier Emile, "Némoure et sa région", in "B.S.G.A.O", T.73, Fasc, 228, 1950, P 5.
(78) Idid, P 7.
(79) Geniaux Charles, "Nédroma" in "R des deux Mondes" 1921, P 673.

كانت الحرف والأسواق في مدينة ندرومة مهيكلة حسب الهيكلة العادية للمدينة العربية الإسلامية،حيث شكلت التربيعة السوق المركزي للمدينة، كما نجد بالقرب من المسجد الكبير سوق الصوف المخصص للنساء، وكان سوق الحيوانات يوجد في المنطقة الشماليةخارج أسوار المدينة.[80] وكانت الصناعات الفخارية ذات الشهرة الكبيرة بمدينة ندرومة متمركزة ومنذ زمن طويل في المنطقة الجنوبية الشرقية بعد القصبة[81]، كما كان سوق الحبوب بمحاذاة أسوار المدينة بالمنطقة الشمالية من المدينة.[82]

أما الحرف المتمركزة بمركز المدينة والطرقات الضيقة التي تحيط به[83] فتمثلت في الصناعات النسيجية وصناعة الجلود والطرز. لقد إشتهرت مدينة ندرومة من حيث قدم وانتشار الصناعات النسيجية وصناعة الفخار إلى جانب الحرف الأخرى، وخاصة الطرز.

إن تقسيم المدينة إلى أحياء تتوزع عبرها فئات وشرائح إجتماعية مختلفة وحرف وأسواق، فإن هذا التوزيع يخضع لعوامل إثنية ودينية ومهنية، وقد ساد هذا التقسيم الأحياء والطرقات. ومثل مركز المدينة نقطة إلتقاء المحاور الكبرى ونهايتها.[84] عبر هذا النسيج وزعت الحرف والأسواق حسب أهميتها، والذهنية السائدة متسلسلة من الحرف الكمالية والنبيلة إلى الثانوية ثم السوقية.

هكذا من خلال محاولة دراسة هذه الأنسجة الحضرية ووظائفها، تظهر المدينة متميزة عن باقي التجمعات وذلك من خلال وظائفها الحضرية.

حيث يصبح التجمع حضريا عندما تمارس المدينة وظيفة واحدة أو عددا من الوظائف الحضرية، فالوظيفة الحضرية هي التي تملي عليها نمط الحياة، وعبر كل المراحل التاريخية كانت التجارة هي الوظيفة الحضرية، بل تظهر التجارة مرتبطة بالمدينة إلى درجة أنه أثناء تحديد مفهوم المدينة تؤخذ بعين الإعتبار هذه الوظيفة. هكذا فالمدينة السوق أقدم من المدينة القلعة.[85]

كما نضيف الإستنتاج الآتي: إن النمو غير المتساوي للمدن المغاربية عامة أساسه مستوى غير متساوي للحركة التجارية والأنشطة الحرفية، حيث كان العمران ذا أهمية، المدينة تتوسع في المساحة وأين تكون الحياة الحرفية أقل نشاطا تكون المدينة متواضعة وإذا عرفت المدينة فترات إزدهار أنشطتها الحرفية والتجارية، وإذا زالت وتقهقرت هذه الأنشطة تبقى المعالم المعمارية تشهد على ذلك.[86]

(80) Sari Djilali, op- cit, P 45.
(81) Bel Alfred, op- cit, P 517.
(82) Grand Guillaume Gilbert, op- cit, P 78.
(83) Bel Alfred, op- cit, P 515.
(84) Grandet Denis, Architecture et urbanisme islamique, Alger, O.P.U, 1986, P 68.
(85) Chabot Georges, les villes, Paris, A. Colin, 1948, P 30.
(86) Noushi André, "Observations sur les villes" in "C.M.M.C", N 23, 1981, P 16.

من هنا نفهم العلاقة الوطيدة الموجودة بين الأنشطة والنسيج العمراني وكيف أن دراسة هذا الأخير تفسر وتشرح لنا أهمية ودرجة نمو هذه الأنشطة، هكذا شكلت التجارة والحرف أهم وظائف المدينة ورتبت هذه الوظائف عبر النسيج الحضري للمدينة العربية الإسلامية وفق منطق وعقلية سائدة، حيث كان يعتبر ضمن الصناعات الخشنة كل من الدباغة وعصر الزيوت والحدادة وصناعة الفخار وكانت هذه الحرف توجد بعيدة عن المركز، قريبة من الأبواب، حيث من هذه الأخيرة كانت تتلقى موادها الأولية، إضافة إلى ذلك ينتج عنها روائح وأوساخ ولهذا فهي تتمركز بمناطق قليلة السكان، بل البعض منها يتمركز خارج أبواب المدينة.

الصناعات الفخارية كانت تتمركز في مناطق معرضة للهواء، أي في مجرى الهواء حتى تعمل الرياح عن طرد الدخان خارج المدينة، كما أن عملية دبغ الجلود، أثناء غسلها ينجم عنها روائح كريهة ولهذا فهي تقع بالقرب من المجاري المائية، قريبة من باب أو عدة أبواب تلك التي تأتيها منها موادها الأولية، وهذا الترتيب يعمل على قلة التنقل عبر المدينة، كما تحتل الحدادة أحياء الضواحي نتيجة الأصوات المزعجة التي تنجم عنها.[87]

كما كانت المذابح تقع خارج المدينة بالقرب من الأبواب، لأنها تشكل نشاطا مجاورته مزعجة نتيجة مرور الحيوانات، والأصوات والروائح إضافة إلى دماء المذابح، هكذا ففي مدينة معسكر على سبيل المثال، كانت المذابح تتمركز عند باب بابا علي على ضفة الوادي المقابلة.[88]

كما أن تسمية باب المذابح بمدينة تلمسان ناجم عن قربها من المذابح المجاورة لهذا الباب، وهذا الباب يوجد بالناحية الشرقية.

أما الحرف الأخرى فقد سبقت الإشارة إليها في تمركزها وتوزيعها عبر نسيج المدينة، كما نشير إلى أن هذا الترتيب والتوزيع يخضع بالإضافة إلى الإعتبارات السابقة، إلى: تسهيل عملية البيع والشراء لأن زبائن هذه المنتوجات هم من سكان الريف خاصة.

لكن هذا التخصص للأحياء والطرقات في تمركز الحرف والأسواق والفئات السكانية، غالبا ما لا نجده متطابقا بين الشكل النظري والواقع في ترتيب وتنظيم المجالات المختلفة للمدينة إنطلاقا من المركز إلى الضواحي خاضعة للتدرج سواء في عملية ترتيب الحرف والأسواق أو الفئات الإجتماعية.[89]

---

(87) Tourneau Roger- Le, op- cit, P 15.
(88) Emerit Marcel, P. 91.
(89) Raymond André, op- cit, P 206.

في الواقع فإن نمو المدن يخضع لظروف معقدة ولهذا تبرز بعض الإختلافات بالمقارنة مع الترتيب النظري، غالبا ما يعيق الموقع توسع المدينة في بعض الإتجاهات نتيجة وجود وادي أو عوامل أخرى، فلا تجد أية مدينة مطابقة بصفة تامة للشكل النظري والمخطط الكامل للمدينة، هناك دائما شواذ وإستثناءات، وممكن أن تؤخذ هذه الشواذ والإستثناءات بعين الإعتبار في عملية التحليل من أجل إبراز أسباب وجودها ضمن العوامل التي سبق ذكرها.(90)

من بين هذه الشواذ نذكر بعض العينات الموجودة بالحواضر التي نحن بصدد دراستها حيث نلاحظ أنه لا يوجد أي حي مخصص للحرف، فغالبا ماتحتوي الأحياء الحرفية على عدد هام من المنازل، فالتخصص الدقيق للأحياء ليس ميزة الحواضر المغاربية بصفة عامة.(91) كانت أهم الحرف بمدينة تلمسان تتمركز بحي الحضر كما تتمركز أهم المحلات التجارية والحرفية بمدينة مستغانم بحي اليهود.

كما سجلت الحواضر المدروسة بعض الإستثناءات في تمركز الصناعات والحرف التي تميزت بها حواضرنا، نبدأ بمدينة تلمسان ونشير إلى بعض العينات لشرح هذه الملاحظة، فبالإضافة إلى تمركز عصر الزيت عند باب زير، كانت هذه الصناعة منتشرة عبر المدينة(92) كما عرفت مدينة مازونة إنتشار دباغة الجلود عبر كل أحيائها.(93)

كما نجد بمركز مدينة ندرومة بالقرب من الحمام البالي معصرة زيت.(94)

كما تمركزت أسواق الحبوب بمدينة مستغانم ومعسكر بالقرب من مركز المدينة حيث نجدها بمستغانم قريبة من الحي المركزي وحي إقامة الأتراك والكراغلة في مكان الكنيسة حاليا(95) أما بمدينة معسكر فلقد تمركز سوق الحبوب بالقرب من مركز المدينة، بل بمحاذاة المركز إلى جانب سوق الصوف.(96)

هذه بعض الإستثناءات وقد أشرنا إليها حتى نبين أن المخطط العادي للمدينة نادرا ما يكون متطابقا بصفة كاملة، كما يجب الرجوع إلى الظروف الإقتصادية والجغرافية والتاريخية لشرح وفهم هذا التنظيم وتفسير هذه الإستثناءات.

---

(90) Raymond André, op- cit, P 207.
(91) Toumeau Roger -Le, op- cit, P 16.
(92) Cocq André-Le, op- cit, P 309.
(93) Belhamissi Moulay, Mazouna, P 39.
(94) Grand Guillaume Gilbert, op- cit, P 79.
(95) Le vieux Mostaganem, in Journal d'économie politique, Juillet 1920, N 13.
(96) Emerit Marcel, op- cit, P 91.

3 المنازل والأسوار والأبواب:

أ. المنازل:

لقد كان الشكل العام للمنازل التي عرفتها مدن: تلمسان ومازونة ومستغانم ومعسكر ندرومة هو الشكل العربي، فهي منازل ذات أقواس داخلية وساحة مركزية[97] مفتوحة، غير مغطاة، لقد كان يغلب على المنازل الشكل المعماري التالي: المنزل ذو الشكل المربع ولونه أبيض ولايتوفر على نوافذ تربطه بالعالم الخارجي حتى وإن وجدت تكون عالية، وباب المنزل عريض ومن مادة خشبية[98] وكانت هيكلة المنزل كالآتي: دخولا من الباب المركزي يوجد مدخل يسمى بالسقيفة توجد به مقاعد مبنية، هذا الممر يقود إلى الساحة المركزية غير المغطاة، مربعة الشكل ويحيط بها أقواس بداخلها نجد مختلف الغرف[99]. والمرافق الأخرى. بصفة عامة فإن ساحات منازل الجزائر وتونس غالبا ما هي مربعة الشكل[100] كما إتصفت المنازل العربية إلى جانب الشكل المربع بالساحات المستطيلة الشكل.[101]

كانت المنازل لا تتعدى طابقا واحدا[102] وفي بعض الحالات يكون لها طابق أرضي، كما كانت السطوح إما مغطات بالقرميد أو مكيفة للإستعمال، خاصة للأشغال المنزلية.

لقد تميزت المنازل بكونها منغلقة على نفسها ومفترحة على الساحة المركزية، فالمنزل منظم ومهيكل من أجل عزل المرأة والعائلة، كما يسمح باستقبال الجار والغريب والأجنبي.[103]

لقد تميزت المنازل بقربها من بعضها البعض، إضافة إلى ضيق الأزقة التي تفصل بينها، كما كانت أغلبها تتوفر على بئر.

إن التقارب بين المنازل يسهل عملية الإتصال ما بين السكان، خاصة النساء، حيث كانت تستطعن الإتصال مع المدينة عبر السطوح.[104]

غالبا ما كانت المنازل تعكس تراثا عائليا ثريا وهذا ناجم عن الإستقرار وإستمرار السلالة العائلية بهذا الهيكل، ولم تكن المنازل تعكس شكلا عمرانيا ونمطا في الحياة فقط بل كان منزل العائلة حاملا لذاكرة عائلية.[105]

---

(97) Piesse et Canal, op- cit, P 75.
(98) Bel Alfred, Tlemcen et ses environs, P 34.
(99) Marçais Georges, l'Art musulman, Paris, P.U.F, 1981, P 163.
(100) Raymond André, op- cit, P 307.
(101) Chevalier Dominique, "La ville arabe", P 9.
(102) Emerit Marcel, op- cit, P 19.
(103) Chevalier Dominique, op- cit, P 9.
(104) Haldo Diegi De, "Topographique et histoire générale" in "R.A", T. 14, 1870, P 432.
(105) Bouhdida Abdelwahab, "Durée et changement dans la ville arabe" in "La ville arabe dans l'islam", Tunis, CERES, 1982, P 20.

شكلت الدروب والطرقات الضيقة ما بين المحاور الرئيسية والساحات المركزية المفتوحة على السماء ميزات هذه المدينة إلا أن هذه المواصفات كانت موجودة بمدن الشرق القديم.(106) إلا أننا نشير إلى أن الدروب متوفرة بالمدن المغاربية أكثر منها بمدن المشرق، حيث أكبر نسبة من الدروب تسجلها مدينة فاس وأقل نسبة تسجلها المدن العراقية، وعلى هذا الأساس فهذه الظاهرة مغاربية أكثر منها مشرقية ومتوسطية أكثر منها عربية.(107)

جل هذه المواصفات توفرت بمدننا ونشير هنا إلى منازل مازونة المتداخلة في بعضها البعض، ومنازل حي تجديد بمدينة مستغانم التي تفصلها طرقات ودروب ضيقة، ومنخفضة.(108) ومنازل حي الحضر بتلمسان التي لا تتعدى طابقا واحدا.

كانت الدروب والطرقات الضيقة تلتقي بالطريق الرئيسي الذي كان يقود نحو الخارج أي إلى الأبواب الرئيسية حيث غالبا ما يكون للطريق الرئيسي باب وينتهي بدرب.(109)

ب الأسوار والأبواب:

كانت لهذه الحواضر أسوار تفصلها عن العالم الخارجي ولها أبواب الإتصال بهذا العالم، كانت وضعية الأبواب محددة حسب تنظيم المدينة، حيث كان لكل واجهة هامة لها باب، إن وضعية الأبواب تحدد الإتجاه وترسم الممرات الرئيسية التي تجمع ما بين الأبواب، علما أن الممرات الرئيسية هي كذلك طرق تجارية.(110) كانت هناك علاقة بين الواجهات والأبواب وتسهيل العملية الإقتصادية، إضافة إلى كون الأبواب تربط بين الممرات الرئيسية، و تربط المدينة بالعالم الخارجي عبر ربطها بالطرقات الرئيسية نلاحظ هنا أبواب مدينة تلمسان كان يلتقي عندها الطريقان الهامان: فاس وهران والصحراء رشغون.(111) ولهذا كانت الأبواب تأخذ تسمية ناجمة عن الإتجاه الذي يربط بها مثال أبواب تلمسان: باب فاس وباب وهران، وباب الغرب وباب الشرق بمدينة معسكر.

---

(106) Grandet Denis, op- cit, P 62.
(107) Raymond André, op- cit, P 186.
(108) Mostaganem, Situation, état et tableaux.
(109) Raymond André, op-cit, P 135.
(110) Marçais Georges, "l'urbanisme musulmane", P 17.
(111) Emerit Marcel, op- cit, P 11.

ما يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن الأبواب لم توضع بصفة عشوائية وإنما هناك علاقة بين المركز الإقتصادي والطريق الرئيسي والطريق الخارجي وتكون الأبواب في خدمة وتسهيل الحركة والنقل، لقد مثلت الأبواب نقاطا هامة في العملية الإقتصادية وذلك ناجم عن كون المدينة تصدر فائض إنتاجها وتستورد ما هي بحاجة إليه عبر هذه النقاط والتي مثلت نقاط ربط وإتصال على جميع المستويات، إن دراسة موقع الأبواب والحركة التي تشهدها هذه الأخيرة، تساعدنا على تفسير وفهم ظواهر إجتماعية متعددة الجوانب.

لقد كان لكل مدينة أسوار تحيط بها، كما كان للأحياء أسوار كذلك وكان سور الحي يشبه سور المدينة.[112] كما كانت الأبواب الرئيسية تغلق ليلا.[113]

كانت أبواب مدينة تلمسان وهي: في الزاوية الشمالية الشرقية باب فاس وفي الشمال باب وهران، وفي الجنوب باب الجديد وفي الشرق باب الجياد وباب زير وهذان البابان هما ما يعادل حاليا باب سيدي بومدين وباب المدافع[114]. إضافة إلى أسوارها وأبوابها لقد إتصفت طرقاتها ودروبها بكونها ضيقة وملتوية مغطاة أي مبلطة كما كانت المدينة تحتوي على عدد هام من العيون والينابيع التي تسقي المدينة.[115] وكان يوجد خارج أسوارالمدينة ما بين باب فاس وباب وهران سهريج كبير خاص بجمع المياه[116] وعملية تنظيم المجاري المائية بتلمسان عملية قديمة وبلغ عدد عيون مدينة تلمسان 200 عين[117] كما إشتهرت المدينة بحدائقها وبساتينها.

أما أسوار وأبواب المدن الأخرى، فنشير إلى أن سور مدينة مازونة كان عاليا وقويا[118] وكانت الأبواب تقود نحو طرقات ضيقة، كالباب الجنوبي نفس الشيء بالنسبة للباب الذي يقود نحو طريق سيدي محمد بن علي.[119] كما إشتهرت المدينة بعيون ومياه وافرة[120]، وكانت بساتينها جميلة ونجد بها فواكه مختلفة[121].وهذا ناجم عن وفرة المياه التي اشتهرت بها المدينة.

---

(112) Shaw thomas DR, op- cit, P 243.
(113) Emerit Marcel, op- cit, P 82.
(114) Cocq André-Lc, op-cit, P 232.
(115) Marmol (C.L), op-cit, P 328.
(116) Piesse et Canal, op-cit, P 74.
(117) Desfontaines Louis, op- cit, F 164.
(118) Marmol (C.L) op-cit, P 396.
(119) Sari Djilali, op-cit, P 53.
(120) Brelhamissi Moulay, Mazoima, P 13.
(121) Ibid, P 75.

أما مدينة مستغانم، فلقد كان لكل من مستغانم والمطمر سور يفصل بينهما وادي عين الصفراء، كما نشير إلى أن سور مدينة مستغانم شيده الباي مصطفى الأحمرالمسراتي سنة 1748 [122] حيث لم يكن للمدينة سور قبل هذا التاريخ، ونجد هنا تقرير القائد الإسباني والمؤرخ بتاريخ 25 جانفي 1741 يتناول مدينة مستغانم بالوصف، فتعرض من بين ما تعرض أليه، إلي خصوبة فحوصها ويذكر عدم وجود سور حولها.[123]

لقد كانت أسوار مدينة مستغانم محروسة كبقية المدن الأخرى بقلاع وأبراج،مثل برج الترك وبرج المحال[124]

وكانت هذه المدينة تتصل بالعالم الخارجي سواء القريب منه أو البعيد عبر أبوابها الخمسة وهي: باب الشلف في الشمال، وباب أرزيو وباب البحر في الغرب، وباب مجاور في الشرق وباب معسكر في الجنوب.[125]

كما أن كل الأحواز المجاورة لهذه المدن كانت مغطاة بالمساكن والبساتين الغنية كانت بساتين أحواز مدينة مستغانم تجعل المنطقة والمدينة من أحسن حواضر الإيالة.[126]

أما مدينة معسكر، فلقد كان لها سور مربع الشكل تقريبا، وأبواب بين الأحياء بلغت الستة أبواب، أما أبواب المدينة الرئيسية فبابان اثنان، يسمى الأول الباب الشرقي وهو يتوجه إلى القلعة والباب الثاني هو باب الغرب ويربط معسكر بمدينة تلمسان ومدينة وهران، وهناك باب آخر صغير يؤدي نحو الجنوب.[127] كانت الأسوار تحيط فقط بمدينة معسكر وحي عرقوب إسماعيل وكان سور حي عرقوب اسماعيل مربع الشكل وله أربعة أبواب، واحدة نحو الشرق وأخرى نحو الغرب واثنان صغيرتان وتطلان على وادي عين السلطان.[128] كما كان عرقوب اسماعيل يتصل بمدينة معسكر أي المدينة القديمة عن طريق باب الغرب.

---

(122) walsin Esterhazy, De la domination Turque, P 176.
(123) Amamburn Don joseph-De, Oran et Ouest Algérien, P 52.
(124) Primaudaie F Elie de la, Commerce et navigation , P 229.
(125) Belhamissi Moulay, Mostaganemm, P 117.
(126) Association Française, "Pour l'avancement des sciences", "Congrès d'Oran, 1887, T.I, P 211.
(127) Emerit Marcel, op-cit, P 90.
(128) A.M.G, H-226, Expédition à Mascara, par St Hypolite, Août 1835.

كما كان يحيط بالمدينة بساتين خاصة منها تلك التي تقع على الطريق المتوجه إلى القلعة إضافة إلى بساتين وحدائق الباي.[129]

مدينة ندرومة، وكان لها سور قديم[130] وربما هو السور الذي ذكره الإدريسي في وصفه حيث قال:" مدينة ندرومة مدينة كبيرة عامرة ذات سور وسوق ولها مزارع كثيرة" [131]

كما كان للمدينة أبواب تربطها بالعالم الخارجي ونذكر منها الباب الجنوبي القريب من القصبة[132] وكان يحيط بها بساتين هامة.[133]

هكذا كانت مدننا ذات مراكز تتوفر على كل المقومات والتجهيزات الضرورية، كما كان لها أسوار وأبواب رئيسية تربطها بالمحاور التجارية الهامة، فكل حي كان له أجهزته الضرورية للمقيمين به من مساجد وحمامات ومخابز ومحلات تجارية[134] إضافة إلى مرافق الحياة الضرورية.

عرفت بعض الأبواب نتيجة لموقعها الإستراتيجي نشاطات ميزتها عن غيرها، حيث شهدت بعض الأبواب نمو ورواج نشاطات إقتصادية متنوعة، فنتجم عن هذه الظاهرة ظهور مراكز إقتصادية ثانوية وموازية للمراكز الإقتصادية من حيث الحركة والنشاط، كما كانت هذه الظاهرة تعتبر ردّ فعل على مركزية المركز، وغالبا ما تكون هذه الظاهرة ناجمة عن التوسع الطوبوغرافي للمدن[135]. ونشير هنا إلى أهمية باب"بابا علي" كمركز إقتصادي[136] هام وباب وهران بمدينة تلمسان[137]. إن هذه الأبواب تضم كل المرافق الضرورية للحياة التجارية والإقتصادية عامة من مراكز للبيع والشراء لكلّ ما يأتي من خارج المدينة وتسويق ما تنتجه هي إضافة إلى وجود الفنادق للتجار والمنتوجات التجارية وهذا ناجم عن موقعها الإستراتيجي وكونها تربط المدينة بطرق تجارية هامة، إضافة إلى كون هذه الظاهرة تفسر لنا التوسع في النسيج العمراني وتشرح لنا هذه الظاهرة.

---

(129) Emerit Marcel; op- cit, P 94.
(130) Canal Jean, "Monographie de l'arrondissement de Tlemcen" in "B.S.G.A.O" T. VIII, 1888, P 268.
(131) الإدريسي، الشريف، وصف إفريقيا الشمالية والصحراء مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، ترجمه هنري بيريس، الجزائر، (I.E.S.I.A) 1957 ص 111.
(132) Bel Alfred, "Nédroma". in "B.S.G.A.A", N 140, 1934, P 511.
(133) Canal Jean, op- cit, P 264.
(134) Tourneau Roger- Le, op-cit, P 19.
(135) Raymond André; op-cit, P 192.
(136) Emerit Marcel; op- cit, P 91.
(137) Cocq André-Le, op-cit. P 326.

4 المؤسسات الحضرية:

لقد ضمت مدننا مؤسسات حضرية تعتبر ميزة المدينة العربية الإسلامية، ونشير هنا إلى كل من الفنادق والحمامات والمساجد وملاحقها من مدارس ومكتبات، فلقد كانت هذه المرافق ذات أدوار إقتصادية وثقافية ، حيث لعبت دورا هاما في إنعاش الحياة الإقتصادية والثقافية.

1 الفنادق:

لقد لعبت الفنادق دورا هاما في الحياة الإقتصادية للمدينة وذلك من خلال إستقبالها للتجار والمنتوجات. وكانت الفنادق الرئيسية توجد بوسط المدينة أي بالحي المركزي حيث من بين الفنادق المتعددة لمدينة تلمسان كان هناك إثنان مخصصان للتجار الجنوبيين والبنادقة[138] وعرفت المدن الأخرى كذلك فنادق المركز ونشير هنا إلى الفندق الجديد لمدينة معسكر.[139]

إضافة إلى فنادق المركز التي كانت ذات أهمية نتيجة موقعها، نجد فنادق بالأحياء، ونشير هنا إلى فنادق كانت تقع بحي الحضر[140] بمدينة تلمسان حيث كان الحي يضم فندقين واحد للتجار المغاربة وتجار المدن الأخرى وآخر لحيوانات الركوب[141] حيوانات التجار القادمين من الأرياف من أجل الشراء والبيع، كما تشير إلى أن الفنادق المخصصة للأجانب كان يقيم بها التجار الرسميون، ذوو جوازات السفر.[142]

بالإضافة إلى ما سبق نجد هناك فنادق بالقرب من الأبواب، وذلك لتسهيل عملية إستقبال التجار والبضائع، كما نجد بالقرب من هذه الفنادق عددا من المحلات التجارية، وجدت هذه الفنادق خاصة بالقرب من الأبواب الهامة، التي أصبحت تأخذ صبغة مركز ثانوي ونشير هنا إلى باب وهران بمدينة تلمسان ، حيث كان هذا الباب يستقبل القوافل القادمة من وهران ومن الجنوب.[143] بعد الإشارة إلى أهم الأماكن التي تمركزت بها الفنادق متناولين ذلك من خلال نموذج مدينة تلمسان، نحاول أن نشير إلى تمركز هذه المؤسسات بالمدن الأخرى. لقد كانت فنادق مدينة ندرومة تلبي الرغبات الإقتصادية سواء المحلية أو الجهوية[144] أمّا فنادق مدينة معسكر فكانت تلعب دورا هاما في تنشيط الحياة الإقتصادية وكان أهمها الفندق الجديد الذي سبقت الإشارة إليه وقد شيده الباي محمد الكبير[145] إضافة إلى الفنادق التي كانت تقع عند باب "بابا علي" وعددها إثنان خاصان بالتجار المغاربة وتجار تلمسان، والمنتوجات التجارية منها المناديل الحريرية والأحذية.[146]

---

(138) Piesse et Canal; op-cit, P 60.

(139) سحنون الراشدي، أحمد بن محمد، الثغر الجماني، ص 132

(140) Piesse et Canal; op-cit, P 73.

(141) Emerit, Marcel; op-cit, P 82.

(142) Marmol (C); op-cit, P 328.

(143) Cocq André-Le; op-cit, P 326.

(144) Bel Alfred, op-cit, P 503.

(145) Gorguos (A); "notice historique sur le bey d'Oran," in R.A. 1857, P 410.

(146) Emerit Marcel; op-cit, P 91.

2 الحمامات:

لقد كانت الحمامات عديدة ومنتشرة عبر جل حواضرنا وذلك لكونها مؤسسة ضرورية في المدينة العربية الإسلامية، رغم إنتشار الحمامات بالمدن الإغريقية والرومانية إلاّ أن الحمامات بالمدن العربية الإسلامية إختلفت عن حمامات الحضارات السابق ذكرها وذلك نتيجة تعدد تجهيزاتها المخصصة للتجميل والنظافة ومنها طاولات الدلك وقاعات إزالة الشعر.[147]

وقد انتشرت عبر مدننا انتشارا واسعا ونشير إلى البعض منها: حمام الأدهم الذي شيده الباي محمد الكبير بمركز مدينة معسكر، والحمام البالي بمركز مدينة ندرومة، وإشتهرت مدينة تلمسان بعدد حماماتها[148] كما وجدت هذه المؤسسات بكل من مازونة ومستغانم، حيث عرفت هذه المدينة حمامات عديدة.[149]

بالإضافة إلى حمامات المراكز والأحياء، نلاحظ أن عدد حمامات الأحياء كان يتفاوت من حي إلى آخر، علما أن التردد عليها كان يعتبر من الكماليات في هذه المرحلة ولهذا فهي أكثر تواجداً بالأحياء الثرية منها في الأحياء البسيطة[150] ونشير هنا إلى حمامات حي حضر بمدينة تلمسان.

فبالإضافة إلى حمامات الأحياء، فإن حمام مركز المدينة كان وجوده ضروريا في النسيج العمراني للمدينة، لأن وجود المسجد يتطلب وجود الحمام، بل يعتبر الحمام ملحقه ضرورية للمسجد كمكان للنظافة والطهارة وهكذا كانت المراكز تحتوى على حمامات، وكثيراً ما تكون متعددة ونشير هنا إلى مركز مدينة تلمسان الذي كان يضم حمامين[151]، هكذا يعتبر الحمّام من المؤسسات الضرورية في خطة المركز.

لقد كانت النساء بصفة عامة يترددن على الحمامات بكثرة ويحببن العطور[152] ولهذا كانت هذه المراكز وهذه الصناعة متوفرة في جل مدننا، وبكافة المدن العربية بصفة عامة، بل وجود الحمامات غالبا مايساهم في تنشيط هذه التجارة وتوسيعها، لأن كثرة الطلب يكون حافزا على رفع الإنتاج وتوسيعه وتنويعه قصد تلبية الطلبات والرغبات والأذواق.

---

(147) Ragon (M), L'homme et les villes, Paris, Berger, levrault, 1985, P 102.

(148) Cocq André-Le; op-cit, P 315.

(149) Primaudaie, Elie de la; op-cit, P 228.

(150) Raymand, André, "Signes urbains et études de la, Population", in " B.E.O", No XXVII, 1975, P 191.

(151) Emerit, Marcel; op- cit, P 83.

(152) Blismon (R), Notice topographique sur le royaume de la ville d'Alger. Paris, Castenux, 1830, P80.

يعد الفنادق والحمامات، عرفت مدننا وجود منازل جميلة وقصور فاخرة[153] فبالإضافة إلى ماعرفته مدينة تلمسان في هذا المجال نشير إلى القصر الذي شيده الباي محمد الكبير بمدينة مستغانم لقضاء عطلته[154] أو لأولاده.[155]

كما ضمت مدننا بعض المنازل الفاخرة، من حيث شكلها والمواد المستعملة في بنائها، من رخام ومواد أخرى ثمينه ومنها المنازل الحديثة والقديمة. ففيما يخص المنازل القديمة نشير إلى منزل جميل كان يوجد بمدينة مستغانم، وهو منزل حميدة العيد قائد المحال وكل المنطقة الموجودة مابين مدينة تنس ومستغانم خلال القرن 16 م، وكان هذا المنزل يوجد في الزاوية التى أقامها طريق الحدائق والمسماة بالطبانة[156] مع طريق موسى، طريق الحي اليهودي.[157]

بعد الفنادف والحمامات والإشارة إلى المنازل والقصورنتطرق إلى المراكز الأخرى من مساجد ومدارس ومكتبات لكن بصفة مختصرة لأن المحور الثاني من هذا الفصل مخصص للحياة الثقافية ومؤسساتها.

عرفت مدننا انتشار المساجد والمدارس المشهورة على مستوى بايلك الغرب، بل إن شهرة بعض المؤسسات الثقافية تجاوزت حدود الإيالة مثل مدرسة مازونة الشهيرة، كما لا ننسى التذكير بأن دور تلمسان العلمي والثقافي قد تجاوز حدود الإيالة.

عرفت حواضرنا تعدد المساجد والمدارس ولم تقتصر هذه المؤسسات الثقافية على الحواضر بل إمتدت إلى الأحواز، حيث كان عدد المساجد مرتفعا فقد بلغت مساجد مدينة تلمسان وضواحيها مايزيد عن 60 مسجداً، كما أن عددها بمدينة ندرومة بلغ 12 مسجداً وكان عددها هاما بكل من مازونة ومستغانم ومعكسر هذا فضلا عن الانتشار الواسع للمكتبات.

كل هذه المعطيات تدفعنا للتعرض للحياة الثقافية من أجل معرفة دور هذه المؤسسات في هذا المجال.

---

(153) Emerit Marcel; op- cit P 94.
(154) Bodin Marcel; op- cit, P 44.
(155) Ibid, P 47.
(156) الطبانة معناه (Top Hane) دار المدفعية والكلمة عثمانية.
(157) Bodin Marcel; op- cit, P 34.

II الحياة الثقافية:

من خلال هذا المحور المخصص للحياة الثقافية نعمل على التعرض للعناصر التالية: كيفية تنظيم التعليم. ونشير إلى بعض المظاهر الفنية التي ميزت هذا العصر، ثم نتعرض إلى المؤسسات الثقافية من مساجد ومدارس وزوايا، كما نتطرق إلى كيفية تنظيمها وتمويلها.

إن الغاية من التعرض لهذا المحور أي الحياة الثقافية هو إبراز دور المؤسسات الثقافية في توسيع العلاقات الإجتماعية بين مختلف الفئات، حيث شكلت هذه المؤسسات مراكز يلتقي ويتبادل من خلالها الأفراد والجماعات الأفكار، بل هي، مراكز للحياة الإجتماعية عمومًا، وما يجب التركيز عليه هو كيف ساهمت هذه المؤسسات أو ساهم العامل الثقافي في إبراز وبلورة الحياة الإجتماعية، وقبل أن نتعرض لهذه الأفكار نحاول أنّ نشير إلى بعض العوامل التي ساهمت في هذا الجانب، بل نحاول أن نعطى لمحة عن الجو العام الذي كان موجودا آنئذ.

لقد ساهمت، عوامل مختلفة في اثراء الحياة الثقافية فبالإضافة إلى كون منطقة بايلك الغرب منطقة عبور لجماعات ومنتوجات وأفكار متعددة في إتجاهات مختلفة، حيث نجم عن هذه الحركات إحتكاك وترسبات استفادت منها المنطقة، كما أنّ هذه التيارات لم تعبر أرضا قاحلة، إن الماضي الثقافي لمدينة تلمسان، وتراث مدينة ندرومة وفيما بعد مازونة ومستغانم ومعسكر يشرح لنا الأدوار التي قامت بها هذه المراكز في التأثير والتأثر كما إستفادت المنطقة من عوامل وتراث ثقافي غنى نحاول أنّ نتعرض لأهم جوانبه.

لقد استفادت هذه المدن من تراث الأندلس وذلك عن طريق الهجرات البشرية التي عرفتها المنطقة حيث تلقت المنطقة أكثر من غيرها على مستوى الإيالة نتيجة القرب. ثانيا تأثرت المنطقة بالحياة الثقافية التي كانت سائدة بالمغرب الأقصى، وأخيراً المشاركة والمساهمة بصفة فعالة في الحركات جنوب-شمال وشرق- غرب، حيث المبادلات المختلفة التي عبرت المنطقة كان لها تأثير على هذا المجال الحضري سواء منها تلك الحركات البرية أو البحرية، وأمام تعدد هذه العوامل المؤثرة والتي ساهمت في هذا الجانب نحاول أنّ نركز على أهم العوامل.

بحكم الموقع إستفادت المنطقة من تراث الأندلس حيث قصدها الكثير من المهاجرين، كما استفادت من ثقافتهم وأدبهم.[158] وتكمن أهمية هذا العامل في كونه رافق ابتداء من القرن 16 م نشاطات ثقافية عرفتها جميع حواضرنا ونشير هنا خاصة إلى كل من مستغانم ومازونة وتلمسان بل إن تأثير هذه الجاليات لم ينعكس فقط على المدن وإنما استفادت منه حتى الأحواز والمناطق الريفية ولم تنتعش بسببه فقط الحرف والتجارة فحتى الزراعة عرفت انتعاشًا وذلك نتيجة إدخال منتوجات جديدة ساهمت في اثراء الجانب الزراعي، والمعرفة الفلاحية؛ مثال ذلك ما عرفته سهول وادي مينه من ازدهار نتيجة تمركز قبيلة بنيّ غدو الأندلسية والتي عملت على إدخال ونشر زراعة القطن والأرز بهذه السهول.[159]

كما أنّ وجود مراكز ثقافية وعلمية على مستوى الوطن العربي: الأزهر والزيتونة والقرويين قدأثر في مدارس حواضرنا ونخبتها المثقفة سواء عن طريق الإحتكاك بخريجى هذه المعاهد عبر رحلات الحج أو عن طريق إرسال البعثات خاصة تلك التي أرسلها الباي محمد الكبير تشجيعا منه للحركة العلمية.[160] إضافة إلى هذه العوامل نقول إنّ وجود فئة جديدة في المجتمع الجزائري وهي الفئة التركية، التي من المؤكد أنها حملت معها إلى المنطقة عادات وتقاليد شرقية أثرت هذا الجانب.[161]

---

(158) سحنون، الراشدي، نفس المصدر، ص 58.

(159) Yacono Xavier, La Colonisation des plaines du Chelif, T. I, P 194.

(160) سحنون، الراشدي، المصدر السابق ص 69.

(161) سعد الله، أبو القاسم، تاريخ الجزائر الثقافي، ج 1، ص 143.

أما على المستوى المحلي والداخلي، فإن هذه الحياة الثقافية الثرية والمتنوعة كانت نتيجة للإستقرار السياسي والنهوض الإقتصادي الذي عرفه البايلك خاصة في الربع الأخير من القرن 18م. علما أن بايلك الغرب أو المنطقة الغربية من البلاد سادها عبر المراحل المختلفة جو ثقافي وساهم في ذلك من بين العوامل المختلفة الإستقرار الحضري والحياة المدنية.

وتعتبر إصلاحات الباي محمد الكبير أكبر حافز للنهوض بهذه الحياة، إن إصلاحات الباي محمد الكبير موضوع مستحق الدراسة وذلك نتيجة الأهمية التي أولاها هذا الباي للجانب الثقافي وتشييد مؤسساته الثقافية خاصة. إذ لم تقتصر أعماله على جمع الكتب واقتنائها وإيفاد البعثات من أجل الدراسة والمعرفة بل شيد انجازات حضارية ساهمت في دفع حركة التعليم والثقافة، كما لم تقتصر أعماله الحضارية على مدينة معسكر بصفتها عاصمته، بل مدّ مشاريعه الثقافية إلى العاصمة الثانية، وهران.ومن أهم ما أنجزه بوهران في هذا المجال مسجد الباشا. [162] أكبر مساجد المدينة آنذاك.

وبالإضافة إلى الإنجازات التي عرفتها مدينة معسكر من مساجد ومدرسة ومكتبة وماحبسه، على هذه المؤسسات، نشير هنا إلى أن ماحسبة الباي محمد بن عثمان والباي مصطفى بوشلاغم كان هامًا وشمل جل مدن بايلك الغرب وخاصة مدن: مازونة ، ومستغانم ومعسكر[163] بل إمتدت هذه المؤسسات إلى خارج البايلك لتشمل مدنا أخرى مثل مدينة البليدة وضواحيها. [164]

إضافة إلي ما استفادت منه المدن التي سبق ذكرها من اصلاحات وانجازات الباي محمد الكبير في هذا المجال، استفادت مدينة تلمسان من إصلاحاته الثقافية[165] وتكفي الإشارة هنا إلى إعادة الحياة لمدارس تلمسان المشهورة سابقًا.

---

(162) Lespés René, Oran, P. 96.

(163) الأرشيف الوطني ـ سجلات البايلك علبة 80 - 85، رقم السجل 167، رقم القديم 82.

(164) الأشيف الوطني، سجلات البايلك علبة 16 رقم السجل 74 - 104، سنة 1009 - 1175 هـ .

(165) Gorguos (A); op- cit, P 410.

لم يقتصر عمل الباي محمد الكبير على المدن الكبرى بل شمل حتى المدن الصغري، حيث شيد بمدينة البرج الموجودة بضواحي مدينة معسكر مسجداً.[166] كما شجع حركة التأليف والتدريس.[167]

ومن بين العوامل الآخرى نشير إلى دور الجاليات الأجنبية خاصة اليهودية منها نتيجة إرتفاع عددها وتمركزها و إستقرارها بجل حواضرنا، حيث كان لهذه الجالية حياة حرفية وتجارية وثقافية، وكان أكبر تمركز لها في مدينة تلمسان، حيث أيام ازدهار هذه الجالية كانت تملك بالقيصرية 1500 محل تجارى وحرفي و 17 معبداً[168]، وأصبحت مدينة تلمسان منذ القرن 16م ناديا ثقافيا لليهود[169]، حيث أنّ كل الجالية اليهودية بمختلف أنحاء الإيالة تتلمذت على أيدي يهود جاؤوا من تلمسان[170] إضافة إلى إشتغال نسبة هامة منهم بالحرف الصياغة والخياطة والطرز والعطارة.[171]

لقد ساهمت الجالية الأجنبية الأخرى في إدخال تقنيات و أزياء جديدة سواء من خلال منتوجاتها الحرفية أو تسويق بضائع مختلفة لأن الحياة الثقافية ليست فقط المدرسة والمسجد بل كل ماكان يصل المنطقة على شكل سلع وأفكار ومهارات ساهم في إثراء الجانب المعرفي وتوسيع الرصيد الثقافي.

نتيجة لتأثير كل هذه العوامل عرفت حواضرنا حركة ثقافية وشكلت مراكز علمية هامة، وحتى نلقى نظرة عامة على الحياة الثقافية نبدأ بوضعية التعليم بهذه الحواضر.

---

(166) Raoul; "Notice historique d'El Bordj"; in "B.S.G.A.O" TXX, 1900, Oran. P 148.

(167) سحنون، الراشيدى، المصدر، السابق، ص 68.

(168) Darmon; "Origine et constitution de la communauté Israéite de Temcen"; in "R A, T"; 14 1870, P 378.

(169) Rouche Isaac; "Un gnand Radbbin à Tlemcen ou XV Siéde" in "B S G A O", T 57, Fasc 204, 1936; P 284.

(170) Darmon, op-cit, P 376.

(171) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ص 146.

1 التعليم:

لقد عرف التعليم بصفة عامة مستويين :مايسمى بالمستوى الأول وهو ما يعادل الإبتدائي وكان يتم تلقينه عبر المدارس الصغيرة أي ما يسمى بالكتاتيب، و المستوى الثاني تشرف عليه المدارس على المستوى الحضري والزوايا في الأوساط الريفية، ونلاحظ هنا أنّ التعليم كان مرتبطا بالحركة الدينية، كما أنّ الطابع الديني كان ميزة المرحلة وعاملا أساسيا في ثقافة العصر.

تلمسان:

لقد إنتشرت المدارس عبر هذه الحواضر، حيث بلغت بمدينة تلمسان 50 مدرسة أغلبها صغيرة وكان يتردد عليها ما يقارب 2000 تلميذ و 800 طالب بالمدرستين، مدرسة المسجد الكبير ووادي الإمام. (172)

عبر مراحل مختلفة إتصفت مدينة تلمسان بنخبتها المثقفة من القضاة، والعدول ، والموثقون، حيث ساهمت هذه الفئة المثقفة في تسيير شؤون المدينة، إضافة إلى الأساتذة والطلاب. (173)

---

(172) Emerit Marcel; Op cit P 13.
(173) Léon L'Africain Jean, op-cit, P 334.

مازونة:

كان التعليم بمدينة مازونة على درجة من الأهمية، حيث شهرة مدرسة مازونة تجاوزت الحدود الإقليمية، كما إستفادت من كل المناخ الثقافي الذي ساد المنطقة، خاصة تلمسان والقرويين بالمغرب الأقصى والزيتونة بتونس.

لقد كانت مدرسة مازونة على درجة كبيرة من الأهمية فمن حيث الحجم، كانت قاعة مدرستها تسع ما بين 60 إلى 80 طالبا ويعتبر هذا العدد مقياس المراحل الزاهرة(174) كما عرفت المدرسة قدوم طلبة من مدن عديدة لاسيما ندرومة ومستغانم وتنس وتلمسان، بل حتى من المغرب الأقصى(175) وخاصة من منطقة الريف، تخرج من مازونة الكثير من الأعلام من أبرزهم الكاتب والمؤلف أبوراس الناصري.(176)

مستغانم:

أما مدينة مستغانم فقد عرفت هي أيضا إشعاعا ثقافيا خاصة عندما أصبحت مقر البايلك في عهد الباي بوشلاغم بعد سقوط وهران 1732، حيث عرفت المدينة عددا هاما من رجال القضاء والفقهاء اهتموا بدراسة القضاء والعلوم الإسلامية. ومن بين الشخصيات الثقافية للمدينة نشير إلى إبن حواء الذي توجد قبته عند مخرج المدينة في مكان يشرف على هضبة الجنانات التى أشار إليها في شعره(177) وكان عدد المدارس الموجودة بمدينة مستغانم سنة 1834، ثمانية واحدة لليهود وآخرى ألجزت في العهد الإستعماري والباقي يعود إلى المرحلة السابقة(178) لتدريس التلاميذ الدين وعلوم اللغة كبقية مدارس المدن الأخرى، ونشير هنا إلى أنّ ما نطلق عليه مدرسة أبتدائية أو مستوى أول هو كل ما كانت تقوم به المدارس الحضرية وملاحق المساجد أو الزوايا في المدن والريف حيث يتلقي الأطفال مبادئي القراءة والكتابة ويكون الحفظ طريقة التلقين، فغياب الكتاب أو ندرته حفز الذاكرة بل كان لها دور هام في عملية التعليم.(179)

(174) Berque Jacques, " Retour à Mazouna, " in "Annales, E S C" n 1, 1972, P 153.
(175) Geniaux Charles; "Mazouna", in "R des deux Mondes", 1921, P 452.
(176) Belhamissi Moulay; Mazouna, P 50.
(177) Bodin Marcel; op- cit, P 13.
(178) Mostaganem 1834, Situation etat et Tabeaux, Archives d'Oran
(179) Faure - Biguet, (G); "Notice sur le cheikh Abou RAS en NASIRI", in "J. A", Sept - dec,TXIV, 9 série, 1899, P 418.

معسكر:

وعرفت مدينة معسكر التعليم من خلال مدارسها ومساجدها التي عرفت أيام الباي محمد الكبير إصلاحات عديدة على مستوى تنظيم سلك التدريس، كما شيد الباي المدرسة المحمدية التي ألحقها بمسجدها فأصبحت هذه المدرسة من بين المدارس الكبرى التي عرفها البايلك، إضافة إلى عدد هام من المدارس التي تكون بها عدد هام من الطلبة والعلماء [180] إن عدد المترددين على طلب العلم بمدن: تلمسان ومعسكر و مازونة كان هامًا جداً مما جعل هذه المدن تشكل مراكز علمية وثقافية [181] إضافة إلى المدن الأخرى.

ندرومة:

ولم تكن مدينة ندرومة تضم مدرسة فقهية مشهورة كتلك التي عرفتها مازونة ، إلا أن التعليم نال بها مكانة هامة في الثقافة المحلية، لقد شكلت ندرومة العاصمة الدينية و الثقافية، وتعود شهرتها الدينية إلى القرن 15 حيث ظهرت المدينة كعاصمة دينية [182]. فمثلت بعد تلمسان المدينة الثانية لعدة قرون، حيث كانت تستفيد من تأثير تلمسان على المستوى السياسي والديني. [183]

بعد القاء نظرة على التعليم خاصة في مستواه الأول نحاول أنّ نلقي بعض الأضواء على التعليم من خلال مدارسه الكبرى.

لقد كان الالتحاق بالمدارس الكبرى يتم بعد إنهاء المستوى الأول، أي أن الطلبة المتخرجين من المدارس الأبتدائية القرآنية. لقد كان مستوى هؤلاء الطلبة المادي بسيطا مما جعل أغلبهم يتمتع بالنظام الداخلي ونشير هنا على سبيل المثال إلى طلبة مدارس تلمسان[184] ونفس الشيء بالنسبة لمدارس المدن الأخرى، حيث كانت مدرسة مازونة تعرف إقبالاً واسعًا إلى درجة أنّ كل عائلة كانت تتكفل بالإيواء والإنفاق على عدد من الطلبة، والباقي كانوا يتمتعون بالنظام الداخلي والمجاني بالمدرسة من انفاق العائلات، كما يتم اطعامهم من طرف العائلات الثرية. [185]

---

(180) Emerit Marcel, op-cit, P 92.

(181) Feure Bignet (G), op-cit. P 418.

(182) Grand Guillaume Gilbert; "Une Médina de L'Ouest Algérien, Nédroma", in "R.o.M.M", no 10, 1970, P 60.

(183) Bel Alfred, "Nédroma" , in "B.S.G.A.A", no 140, P 508.

(184) Pimodan, (Le Commondant De), Oran, Tlemcen, Sud Oranais, (1899-1900), Paris, Champignon, 1902, P 53.

(185) Fiori Bennaut, "Premenade Sociologique une médersa déchue" , in "R.A" T. X.C.I. 1947, P 53.

ساهمت الأحباس في تحمل ودفع نفاقات المدارس، وبما أنّ التعليم مرتبط بالحركة الدينية فإن مردود المؤسسات الدينية والأحباس كان يساعد على توظيف الأساتذة والعناية بالمؤسسات الخاصة بالتعليم [186] وفي هذا المجال كانت أحباس، مازونة هامة [187] كما استفاد التعليم من مردود هذه الأحباس بالمدن الأخرى كمعسكر مثلا وخاصة تلك التي حبسها الباي محمد الكبير، كما إشتهرت بذلك كل من مستغانم وتلمسان [188] وشملت هذه الأحباس ميادين عديدة منها داخل المدينة، وخارجها، تمثلت في كل من بساتين، وأراضي، وحمامات، ومحلات تجارية، ومخابز إضافة إلى مخازن ومحلات حرفية. [189]

لقد كانت كل مؤسسات البايلك سواء السياسية أو الثقافية أو الإجتماعية أو القضائية تلجأ إلى خريجي هذه المدارس حيث كان الموظفون يختارون من بين الفقهاء الذين تكونوا في المدارس الحضرية أو الزوايا الريفية، وهكذا اشتهرت مدرسة مازونة ومدارس تلمسان وندرومة ومعسكر وساهمت في تكوين النخبة المثقفة.

---

(186) Bontems Claude, institution algérienne, P 80.

(187) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبه 205 - 216 - رقم السجل 311، رقم القديم 216 السنة 1760 - 1765.

(188) الأرشيف الوطني سجلات البايلك، علبة 23، رقم السجل 233 رقم القديم 146 - السنة 1701، 1702، 1704، 1705.

(189) الأرشيف الوطني سجلات البايلك، علبة 217، 245، رقم السجل 328، رقم القديم 233 و السنة 1741، 1742، 1746 1785.

2 جوانب من المظاهر الثقافية:

لم تعرف هذه الحواضر إزدهار علوم الدين وفقه اللغة والقضاء فقط بل إلى جانب هذه المواد التي كانت المدارس تسعى لتلقينها نجد مواد أخرى، ومنها الشعر، حيث إضافة إلى الشعر الفصيح ظهر الشعر الملحون.[190]

هكذا عرفت هذه الحواضر شعراء بارزين من بينهم إبن حواء وهو محمد بن حوا ءالأديب والناظم من مؤلفاته كتاب في «الحكمة» والغوثية الكبرى»[191] وعرفت هذه الحواضر شعراء في الشعر الفصيح افتخرت بهم حواضر الغرب كلها وفي هذا السياق نشير إلى ابن سحنون الراشدي ومؤلفه «الأزهار الشقيقة» وأبو راس الناصري «الدرة الأتيقة».[192] ونال مدح الباي محمد الكبير وفتح وهران جزء هاما مما ألفه أبن سحنون وأبوراس الناصري.

كما انتشرت حلقات المداحين كظاهرة ثقافية وذلك لازدهار الشعر الملحون، ويكفي أنّ نشير إلى أنّ طريق قدوسي المداح الموجود بمدينة مستغانم ترجع تسميته إلى تجمع المداحين حول مياه الوادي ويجتمع حولهم جمهور من الهواة للإستماع إلى الشعر.[193]

---

(190) Belhamissi, moulay; Mazouna, P 52.

(191) نوهيض، عادل: معجم أعلام الجزائر، بيروت، منشورات المكتب التجاري، 1971، ص 177.

(192) سعد الله، أبو القاسم، نفسي المرجع، ج 2، ص 248.

(193) Bodin Marcel; op-cit; P 65.

نال الشعر مكانة هامة في الحياة الثقافية لهذه الحواضر ويسجل هذا القرن أسماء بارزة، نضيف الشاعر التلمساني ذي الأصل الأندلسي وهو ابن عبد الله محمد بن احمد إبن مسايب والذي توفي سنة 1768. لقد اشتهر في نظم الموشحات وتلحينها وأغلبها في المدائح النبوية.(194)

كما تميز القرن الثامن عشر بأحداث تاريخية ألهمت الكثير من الكتاب والشعراء للتأليف عن هذه الأحداث و صانعيها، ومنها: لقد ألف ابن ميمون للفتح الأول كتابه «التحفة المرضيه في الدولة البكطاشية» كما ألف مفتي تلمسان الشيخ محمد بن أحمد الحلفاوي قصيدة طويلة وصف فيها الحدث(195)، وشكل الفتح الثاني لوهران حدثًا «هامًا» مجده الكثير ومجد صانعه ونشير لبعض المؤلفين وأعمالهم، كما أنّ هذا الإنتاج الأدبي والعلمي، كان نتيجة تشجيع الباي محمد الكبير وإصلاحاته. وهكذا كلف كاتبه الخاص محمد المصطفى بن عبد الله المعروف بابن زرفه بتقييد الحواديث المتعلقه بالفتح، هكذا ألف أبن زرفه مؤلفه «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» وكاتبه الثاني أبن سحنون الراشدي حيث يعتبر من أبرز من خلد فتح وهران الثاني ومناقب الباي محمد الكبير وسمى شرحه الأدبي لقصيدته «الثغر الجماني في إبتسام الثغر الوهراني، كما وضع أبوراس قصيدته في فتح وهران «نفيسة الجماني في ثغر الوهراني» أما شرحه لها فقد سماه «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار»(196) إضافة إلى مؤلفات أخرى، جعلت من أعمال الباي محمد الكبير وانجازاته موضوعها ونشير هنا إلى كاتبه الذي رافقه أثناء خروجه إلى الجنوب الوهراني لاخضاع القبائل المتمردة في كل من الأغواط وعين ماضي، والكاتب هو ابن هطال التلمساني ومؤلفه «رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الوهراني» وانتاج عبد القادر بن عبد الله المشرفي الغريسي الذي توفى سنة 1778 وأهم أعماله «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبنى عامر.(197)

---

(194) سعيدوني، نصر الدين، نفس المرجع، ص 144.

(195) سعد الله أبو القاسم المرجع السابق، ص 355.

(196) نفسه، ج 2، ص 248.

(197) سعيدوني، نصر الدين، المرجع السابق، ص 250.

بعد التعليم والإنتاج الأدبي، لقد كانت المنتوجات الحرفية تعكس مستوى ثقافيا وذوقا فنيا راقيا، لقد عرفت صناعة الزرابي كصناعة فنية تطورا في الأشكال وكانت النساء هن الاتي يمارسن هذه الصناعة الفنية بصفة عامة [198] واشتهرت على مستوى البايلك بل حتى على مستوى الإيالة الزرابي القلعية التي كانت تمون أهم الأسواق وكانت منتوجات تلمسان وندرومة والمدن الأخرى في هذا المجال قد وصلت مستوى راقيا.

كما كان تعاطي الطرز ذوقا من أذواق سكان المنطقة سواء الرجال أو النساء [199] واشتهرت بذلك كل من تلمسان وندرومة إضافة إلى مستغانم و مساهمة مازونة ومعسكر في هذا المجال كانت معتبرة سواء في مجال الطرز بخيوط الذهب أو الفضة، على القماش أو الجلود.

اشتهرت تلمسان كبقية مدن المنطقة بفن النسيج، وامتازت بتقنيات فنية، عريقة في فن النحت والنجارة [200] ولم تكن الأعمال الفنية تتصف بالإنغلاق بل كان لعلاقات التبادل دور هام في التأثير على مجالات عديدة، حيث شملت هذه التأثيرات كل من مواد البناء والزخرفة كاستعمال الرخام الإيطالي ومواد بأخرى ونشير هنا إلى أنّ فن البناء رافق فن التأثيث [201] وفن العمارة يستحق كلّ التقدير. [202]

إضافة إلى عمل الوحدات الحرفية التي سبقت الإشارة إليها حيث أنّ شهرة بعض المواد وصلت الصعيد، المتوسطي نشير هنا إلى حرير الإيالة والأحزمة و الأوشحة. [203]

إنّ الأعمال الفنية على مستوى العائلات كانت ذات مستوى عال، علمًا أنّ هذه المنتوجات لم يكن الغرض منها المتاجرة. [204]

كما أنّ التفنن في الصناعات الخشبية عرف مستوى راقيا و استطاعوا من أن يسخروا ويستفيدوا من هذه المادة وإنّ وجدت هناك بعض التشابهات مابين فن المغرب والأندلس في عملية التحت إلاّ أننا نلاحظ فوارق على دقّتها. [205]

لقد أشرنا لهذه الجوانب التي أدرجناها ضمن الحياة الثقافية لأن الإنتاج الحرفي ميزه ذوق فنى خاص بالمنطقة والمجال الجغرافي المدروس لذلك فهذه الجوانب تدعم وتميز حياتنا الثقافية.

---

(198) Berqu Jecques, L'intérieur du Maghreb, P 73.

(199) Venture de Paradis; Voyages dans les Réjences de Tunis et d'Alger, P 139.

(200) Bel et Ricard; le travail de la laine à Tlemcen, P 54.

(202) Ricard Pierre, "l'Artisanat indigène en Oranie" in, "B.S.G.A.O", T 61, Fasc, 214. Janv-Mars 1940, P 104.

(202) Shaler William, op-cit, P 91.

(203) Berque Jacques; op - cit, P 399.

(204) Golvin, Louis; "Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, P 35.

(205) Ricard Pierre, La menuiserie maures que dans les mouments arabes de Tlemcen, P 32.

3 المؤسسات الثقافية:

تمثلت هذه المراكز الثقافية حضرية كانت أم ريفية بتعددها عبر بايلك الغرب، فلم تقتصر الحياة الثقافية على المدينة بل شملت أيضا الأحواز، كما إحتضنت نوادي ثقافية تمثلت في مساجد وزوايا ونحاول الآن التعرض إلى توزيع هذه المؤسسات عبر الحواضر المدروسة، ثم نشير بعد ذلك إلى أهم العينات التي احتضنتها الأحواز في هذا المجال.

أ المساجد:

عرفت هذه الحواضر مساجد متعددة، بلغ عددها في مدينة تلمسان 50 مسجداً أغلبها صغيرة [206] وهناك من يعطينا رقما إجماليا للمدينة وضواحها حيث بلغت 60 مسجداً [207]، وأهم مساجد تلمسان، المسجد العظيم والذي يوجد بوسط المدينة إضافة إلى هذا المسجد فلقد كان هناك مساجد الأحياء وهنا نشير إلى مساجد حي الحضر ومسجد المشور.

مساجد مازونة: تمثلت مساجد مازونة، بعد المسجد المركزي في مساجد الأحياء الأربعة، حيث أنّ كل حي كان يضم مسجدا. [208]

---

(206) Emerit Marcel; op-cit, P 82.

(207) Conal Joseph; " Monognaphie de L'arrondissement de Tlemen in "B.S.G.A.O", T.VII, 1887, P107.

(208) Berque Jacques; "Retour à Mazouna, P 153.

وبلغت مساجد مدينة مستغانم 11 مسجداً [209] وأهمها المسجد الكبير الذي يوجد بمركز المدينة بحي البلد حيث شيد هذا الأخير مابين (1340 - 1341) فوق صخرة على الطريق المؤدي إلى حي تجديد. [210] ويعود تاريخ أقدم مسجد بهذا الحي إلى 742 هجرية، أي إلى العهد المريني. [211]

أما مساجد مدينة معسكر فأهمها المساجد الثلاثة الرئيسية: مسجد السوق، والمسجد العتيق، المسجد الكبير وقد إستفادت هذه المساجد من اصلاحات الباي محمد الكبير العمرانية والثقافية، كما شيد المسجد الكبير في عهده وهو المعروف باسمه؛ ويعتبر هذا المسجد أروع وأهم مساجد الإيالة. [212] أما أهم مساجد الأحياء فنذكر منها حي عرقوب إسماعيل.

مساجد مدينة ندرومة:بلغ عدد مساجدها 12 مسجداً. [213] أهمها المسجد الكبير الذي يوجد بحي التربيعة والذي يعود تاريخه إلى القرن 11 م، أي إلى عهد المرابطين. [214]

ب المدارس:

سنكتفي بالإشارة إلى المدارس الكبري للتركيز عليها وتوضيح أهميتها باعتبارها مؤسسات ثقافية لعبت دوراً هامًا آنذاك.

لقد بلغ عدد مدارس مدينة تلمسان مدرستين، مدرسة الجامع الأعظم ومدرسة وادي الإمام علمًا أنّ مدارس مدينة تلمسان كان عددها 5 مدارس في مرحلة سابقة. [215]

كما استفادت مدارس مدينة تلمسان من إصلاحات الباي محمد الكبير وذلك من أجل إعطاء نفس جديد للتدريس بها. [216]

---

(209) Bodin Marcel; op-cit , P 41 - 42.
(210) Mostaganem, 1834, archive, d'Oran.
(211) Priou Louis, op-cit, P 42.
(212) Gorguos (A), op- cit, P 408.
(213) Janier Emile; "Némoure et sa région", P 5.
(214) Sari Djilali, op- cit, P 47.
(215) Marmol (C.L); op - cit, P 328.
(216) Gorguos (A); op- cit, P 410.

أما مدرسة مازونة ذات الشهرة المغاربية، والتي شيدت في نهاية القرن 16 م من طرف الشيخ محمد بن شريف الأندلسي (217) فقد لعبت دوراً هامًا في الإشعاع الثقافي، كانت مدينة مازونة مقر المدرسة وملتقى العلماء، ومقر مبادرات فكرية وسياسية (218) إستقطبت الطلبة، ودرس بها علماء بارزون منهم أبو راس الناصري (219) كما ساهمت في تكوين نخبة مثقفة، ويجدر التنويه هنا إلى أنّ الحركة السنوسية (220) قد إنطلقت من هذه المدرسة، وهي تعد من أقدم المدارس التي أسست في العهد العثماني و اشتهرت بوجه خاص بعلم الفقه والحديث وعلم الكلام. (221)

كانت علوم الفقه من ميزة إنتاج مازونة الفكري وصيغت ثقافتها (222) حيث تخصصت المدينة في هذا النوع من الدراسات مثل أعمال كل من أبي عمران المازوني صاحب «الدرر المكنونة» وابنه يحي بن موسى (223) المغيلي المازوني صاحب «الدرر المكنونة في نوازل مازونة».

لم تكن مدينتي مستغانم وندرومة تضما مدارس هامة، لكن لعبت المساجد وملاحقها دوراً هامًا في الحياة الثقافية، حيث أنّ التعليم بمدينة ندرومة حظي دائمًا بمكانة هامة في الثقافة المحلية (224) كما شكلت المدينة العاصمة الدينية بعد تلمسان على مستوى بايلك الغرب، (225) ولعبت المؤسسات الثقافية لمدينة مستغانم دوراً هامًا في تنشيط الحياة الثقافية.

وتجاوز دور مدرسة معسكر الثقافي حدود المدينة وأحوازها، حيث ساهمت وعلى رأسها المدرسة المحمدية في تكوين عدد هام من الطلاب والعلماء (226)، لقد شيد هذه المدرسة الباي محمد الكبير وألحقها بمسجده ورتب لها المدرسين والنظار. (227)

لقد كانت هذه المدارس ضمن النسيج العمراني بجوار أهم المساجد، وهذا التنظيم ميزة من ميزات المدينة العربية الإسلامية ، حيث كانت المدارس تحتل هذا الموقع. (228)

---

(217) Belhamissi Moulay; Mazouna, P 49.
(218) Berque Jacques, "En lisant les Nawazil Mazouna," in "Studia Islamica", TXXXII, Paris, 1970, P32.
(219) Belhamissi Moulay; op- cit, P 50.
(220) Idem
(221) سعد الله، أبو القاسم، المرجع السابق، ج 1، ص 286.
(222) Berque Jaques, "L'Algérie rurale", in "Annales, E.S.C", N 5, 1970, P 1341.
(223) نويهض، عادل، معجم أعلام الجزائر، ص (197 – 204).
(224) Grand-Guillaume Gilbert; Nédroma, P 53.
(225) Bel Alfred, "Nédroma", in "B.S.G.A.A", P 510.
(226) Emerit Marcel; op- cit, P 92.
(227) سعيدوني، نصر الدين، المرجع السابق، ص 249.
(228) Massignon Louis, op- cit, P 372.

ج. المكتبات:

ضمت هذه الحواضر بالإضافة إلى المساجد والمدارس عددا هاما من المكتبات وذلك لتسهيل عملية المؤسسات السابقة، حيث اشتهرت مكتبات تلمسان ومازونة ومعسكر بما تضمته من مخطوطات ومؤلفات وكانت المكتبة تقع بمحاذاة المسجد والمدرسة، كما شكلت المراكز الثقافية أي -تلمسان ومازونة وندرومة- وفيما بعد مستغانم، مراكز اشعاع ثقافي وحضاري حيث ضمت أكثر من 20 مكتبة [229] وإضافة إلى المكتبة الهامة التي أوقفها الباي محمد الكبير على المدرسة المحمدية بمدينة معسكر.[230] واشتهرت مكتبة مازونة بمخطوطاتها.[231]

د. الزوايا:

كانت الزوايا بصفة عامة تابعة للطرق الدينية، ويرأس الزاوية الشيخ وكان عددها في الغرب الجزائري أكثر انتشاراً من المناطق الأخرى وذلك يعود إلى إستمرار الجهاد في الغرب دون الشرق أو الوسط إضافة إلى القرب من المغرب الأقصى مقر الزوايا والمرابطين [232]، كما نشير هنا إلى أنّ جل الطرق الدينية انتشرت من الغرب إلى الشرق وليس هناك سوى الطريقة القادرية وهي الوحيدة التي جاءت من المشرق، أما الطرق الآخرى والتي نشأت في بلاد المغرب نلاحظ بصفة عامة ومستمرة هذه الحركة من الغرب إلى الشرق. ونشيرهنا إلى جل الطرق التي انتشرت في القطاع الغربي. إضافة إلى الطريقة القادرية و التجانية التي كان مهدها عين ماضي، فإن الطرق الأخرى كالطيبية والعيساوية والدرقاوية كان مهدها المغرب الأقصى.[233]

---

(229) Belhamissi Moulay; op- cit, P 37.

(230) سحنون الراشدي: المصدر السابق، ص 127.

(231) Geniaux Charles; "Mazouna"; in "Revue des deux Mondés", 1921, P 438.

(232) سعد الله، أبو القاسم: المرجع السابق، ص 268.

(233) Deneveu; Les Khouan, Ordres religieux chez les Musuimane de L'Algérie, Paris, Roi, 1845, P 101.

لقد شكلت الزوايا مقر عبادة ودراسة كتدريس علوم الدين والفقه ومبادىء القراءة والكتابة إضافة إلى كونها مقر نزول أبن السبيل حيث يجد المآوي والمآكل[234]، كما لعبت في المجال الإجتماعي دوراً هامًا في التوسط لقضايا قضائية بين السكان[235] وذلك في غياب تعدد وانتشار المحاكم خاصة في الأوساط الريفية كما لعبت أيضا في غياب المدارس دوراً هامًا في الحركة الثقافية و التعليمية، وساهمت في توطيد العلاقات والروابط الإجتماعية، وكان على مستوى المدن العديد من الوحدات الحرفية تخدم زاوية معينة ومنخرطة في طريقتها وكان بإحياء الحفلات، وممارسة تقاليد الزاوية تعمل هذه الظروف على تدعيم العلاقات. بين أعضاء الوحدات الحرفية وتقوية شعور التضامن والطاعة للقوانين واحترام روح وأخلاق التدرج في العمل.[236]

كما نضيف أنّ نفقات هذه الحفلات كانت على حساب العمال وتؤخذ من صندوق الوحدة، أي عن طريق الإشتراك.

وعمومًا فإن الدور السياسي والإجتماعي لهذه المؤسسات تجاوز الإطار الحضري ولعبت الزوايا كمركز لطرق الدينية وظيفة هامة في دمج الشرائح والجاليات الحضرية، حيث كان عدد هامّ من الزوايا ملتقى الحضر وفئات حضرية مختلفة بغض النظر عن الإنتماء العرقي أو الجهوي أو حي الإقامة، أو المهنة.[237]

وعلى مستوى الأحواز وفي الأرياف بصفة عامة، حيث انعدمت المدارس لعبت الزوايا دوراً هامًا في هذا الميدان، ونتعرض لهذا المجال بالربط بين المدينة و العالم المحيط بها، وذلك حتى نركز على الدور الذي لعبته الحواضر في التأثير على الريف، ونستطيع أن نقول إنه كان للزوايا دور هامّ ولهذا نبدأ بالتعرض لدور هذه الأخيرة.

في غياب المؤسسات الثقافية، بل ندرتها لعبت الزوايا دوراً هامًا على مستوى الأرياف في الحركة التعليمية إضافة إلى وظيفتها الدينية، لقد كانت تمثل معاهد للتعليم كما كانت تشمل مساجد. بها الشيخ المرابط ومبيتًا لطلبة الداخليين ومساكن للفقراء والغرباء.[238]

---

(234) Bodin Marcel; op- cit, P 17.
(235) Ibid, P 25.
(236) Barkan Omer - Lutfi; " Observations", P 303.
(237) Stambouli et Zghal; op-cit, P 207.
(238) سعد الله، أبو القاسم، مرجع السابق، ج 2، ص 267 .

قامت الزوايا بدور هام في نشر التعليم إذكانت منتشرة عبر أحواز كل مدننا ونشير هنا إلى أحواز كل من مدينة تلمسان حيث كانت تضم المنطقة أكثر من 30 زاوية وكانت زاوية عين الحوة هي الأكثر شهرة [239] واشتهرت أحواز معسكر بزاوية القطنة المشهورة ولم يقتصر التعليم بالزاوية على المواضيع الدينية بل عملت على صقل بعض الأذواق الأدبية، و الأمير عبد القادر ابن القطنه دليل على هذا المستوى. [240]

إضافة إلى الدور التعليمي والإجتماعي الذي قامت به الزوايا على مستوى الأرياف، فلقد رافق وجود الزوايا بعض المساجد الهامة. نذكر منها مساجد أحواز مدينة تلمسان:

مسجد سيدي حسين ومسجد سيدي الحلوي، حيث يحتل هذا الأخير المرتبة الثانية بعد المسجد الأعظم من حيث الثراء والجمال. [241] إضافة إلى هذه المساجد الخاصة بأحواز مدينة تلمسان كانت أحواز مازونة ومستغانم ومعسكر وندرومة تتوفر كذلك على مساجد.

من خلال هذا المسح لأهم المؤسسات الثقافية سواء تلك التي عرفتها الحواضر أو الأحواز، والتي لعبت دوراً هامًا في الحياة الثقافية والإجتماعية.

نلاحظ أنّ قضايا التعليم والتثقيف قد حظيت باهتمام وتعددت المؤسسات التي إهتمت بهذه القضايا، فأربعون (40٪) من السكان الرجال كانوا يحسنون القراءة والكتابة. [242]

لقد لعبت هذه المؤسسات الثقافية دوراً هامًا على مستوى العلاقات الإجتماعية كالتوسط في حل القضايا سواء المدنية أو الدينية، كما أنّها شكلت نقاطا يلتقي فيها ويتنقل إليها من أماكن مختلفة وخلق روابط، ونجم عنه علاقات وتبادل على مستوايات مختلفة.

بعد الإشارة إلى هذه الملامح من الحياة الثقافية والتعرض لأهم مؤسساتها، نحاول الآن أنّ نتعرض إلى كيفية تسييرها والإنفاق عليها.

---

(239) Emerit Marcel; op- cit, P 13.
(240) Gallissot René "Abdelkader et La nationalité Algérienne" in" R. H", T. 89, Paris 1965, P 366.
(241) Bargés (J. J Abbé) op-cit, P 413.
(242) Benachenhou Abdelletif; Formation Sous dévelo ppement en Algérie, P 37.

4 الإنفاق على مؤسسات الثقافية:

لقد كانت المؤسسات الثقافية: من مدارس و مساجد وزوايا فضلا عن المكتبات سواء في المدن أو الأرياف مستقلة عن السلطة المركزية وتابعة للآحباس الدينية [243] حيث كانت هذه الأخيرة هي التي تتحمل الإنفاق على هذه المؤسسات وسير وظائفها، وكانت الأحباس عبارة عن بنايات، أراضي، وبساتين ومحلات حرفية وتجارية اضافة إلى الحمامات والمخابز [244] وكان يديرها وكلاء معينون من طرف الداي والباي، ولم تكن لهم مرتبات محددة بل كانوا يتقاضون مبالغ رمزية، كما كانوا يأخذون من المداخيل التي يشرفون عليها المبالغ اللازمة لمصاريفهم. [245]

كانت مداخيل المؤسسات المحبوسة أو الموقوفة توظف في دفع رواتب الأئمة وقراء الأحزاب والمؤذن وشراء الزرابي والفراش، بعد دفع ثمن الترميمات وشراء الزيت للمصابيح وكان القاضي يشرف على إدارة ومراقبة هذه المصاريف [246] وكاتب إضافة إلى 10 أشخاص من أحسن سكان المدينة. كما وظفت مداخيل الأحباس في الإنفاق على انارة المدينة والعناية بها [247] والإنفاق أيضا على المؤسسات الثقافية. فبقدرما كانت المؤسسات الثقافية هامة ومتعددة بقدر ما إرتفعت وتعددت أحباسها، ونشير إلى أنّ مدينة تلمسان عرفت عددا هاما من المساجد كان لها مداخيل هامة. [248]

---

(243) Benachenhou Abdellatif; op -cit, P 37.

(244) الأرشيف الوطني، سجلات المحاكم الشرعية، علبه 108 - 109، وثيقة 30 - 47.

(245) Ministère de la Guerre, tableau, 1838, P 220.

(246) Bodin Marcel, op-cit, P 43.

(247) Stambouli et zghal; op -cit, P 205.

(248) Marmol (C.L); op- cit; P 328.

كانت مدرسة مازونة والمؤسسات الثقافية الأخرى من مساجد ومكتبة ملحقه بأحباس لعبت دوراً هامًا في إستمرارية الحياة الثقافية وتنشطيها والعناية بمؤسستها[249]. لقد كانت مساجد مركز المدينة تتمتع بصفة عامة بأحباس هامة، وغالبا ما كانت المؤسسات المحيطة بها من مكتبه وحمامات وفنادق ومحلات تجارية و مخابز موقوفة لصالح المسجد والمدرسة أو الزاوية ونشير هنا إلى أنّ المسجد الكبير، لمدينة مستغانم الذي يقع وسط المدينة كانت له أحباس هامة منها: محلات تجارية بالسوق الكبير ومخبزتان واحدة تقع جنوب المسجد و الثانية على يمينه.[250]

أما بمدينة معسكر فقد قام الباي محمد الكبير بعدةّ إنجازات عمرانيه هامة لتدعيم وتنشيط الحياة الثقافية فألحق بها أحباسا هامة، حيث حبس على المسجد الكبير خزانة كتب وبنى لها بيتا جعل منه مكتبة تابعة للمسجد والمدرسة المحمدية، كما حبس على هذه المؤسسات الحمام والفندق الجديد بالسوق القديمة[251] وأضاف لهذه المؤسسات مخبزة أوقفها لتلبية إحتياجات موظفي هذا السلك والمخبزة موجودة كذلك بالسوق القديمة إضافة إلى كل هذه الأوقاف أوقف حدائق وبساتين لصالحها.[252]

إنّ مداخيل الأحباس لم تستفد منها فقط هذه المؤسسات، بل لقد استفاد منها حتى العلماء وهذا تشجيعا من الباي محمد الكبير للحركة العلمية والثقافية.[253]

هكذا ساهمت الأحباس في الإنفاق على المراكز الثقافية والدينية والإنفاق على موظفي هذه المؤسسات، وكما سبقت الإشارة لقد كانت الأحباس إما بنايات أو أراضي[254] وبعد الإشارة إلى ادارة البنايات فإن الأملاك العقارية بإدارتها كثيراً ما ساهمت في افراز فئة إجتماعية أصبحت ذات ظروف ميسورة. ولقد كانت العائلات ذات الوظيفة الدينية غالبا ما تنتمي إلى أصل شريف وهي التي تشرف على إدارة هذه الأملاك العقارية لصالح هذه المؤسسات ونجم عنه أنّ العائلات ذات الوظيفة الدينية كانت تشرف وتراقب العائلات الريفية التي تشتغل بهذه الأراضي. هذه الوضعية جعلت العائلات الدينية تصبح ذات مستوى عالي بالمقارنة مع سكان الريف .[255]إن ظهور فئة ثرية على مستوى الأرياف ساهم في وجود منافس جديد للفئة المخزنية حيث أصبح لهذه المجموعة نفوذ قوى وتاثير كبير بالمقارنة مع العائلات المخزنية وذلك لكونها ترتكز على معتقدات وروابط تتمسك بها مجموعات هامة.[256]

---

(249) الأرشيف الوطني سجلات البايلك، علبه 205 216، رقم السجل 311، الرقم القديم 216، السنة 1760 1765 و 1808 1809

(250) Bodin Marcel, op- cit; P 42.

(251) الأرشيف الوطني، سجلات البايلك، علبة 80-85. رقم السجل 167، رقم القديم 82.

(252) Gorguos (A); op - cit, P 409.

(253) سحنون الراشدي، المصدر السابق، ص 68.

(254) Gallissot René; L'Algérie précoloniale,"in "C.E.R.M", Paris, 1971, P 153.

(255) Idem.

(256) Pascon Paul; "La situation Politique du HAUZ", in" Henodote", n 11, Paris, 1978, P 148.

أصبحت هذه العائلات أي مايسمى بالأرستقراطية الدينية مع الفئة المخزنية تتقاسم المجال الريفي بل أمام تقهقر العائلات المخزنية، شهدت الشريحة الدينية توسعًا.

إنّ إدارة هذه الممتلكات ساهمت في وجود فئة اجتماعية ذات ظروف إقتصادية جيدة كثيراً ما إستغلت هذه الشريحة غضب الرعية من أجل التمرد والبروز كقوة تنافس وتزاحم القوة المخزنية [257] لأن التحالف الذي كان موجودا سابقا بين الفئة الدينية والمخزنية زال بزاول الجهاد واسترجاع وهران، فلم يعد هناك دافع للتحالف بل ظهرت القوة الدينية كمنافس للقوة المخزنية.

إذا هكذا توسعت هذه المؤسسات والممتلكات سواء على مستوى الريف أو المدينة مما ساعد على ظهور فئة تعيش من مدخول هذه المؤسسات الدينية.

إنّ الاشارة إلى هذه النتائج الغاية منها الربط بين الجوانب المختلفة للموضوع: الثقافية و الإجتماعية والإقتصادية، لأن الغاية هي محاولة إبراز : كيفية مساهمة هذه الجوانب في بلورة العلاقات الإجتماعية وبروزها.

---

(257) Gallissot René; op- cit, P 153.

تناول البحث موضوع الحياة الحضرية لبايلك الغرب الجزائري خلال القرن الثامن وقد اتخذنا من أهم حواضره عينات للدراسة، وحاولنا من خلال هذا البحث إبراز الأدوار المختلفة التي قامت بها هذه المدن وذلك سعيا للكشف عن الأهمية التي اكتسبتها، ونبدأ بالأهمية الجغرافية والتاريخية التي حظيت بها هذه الحواضر حيث امتاز الإطار الطبيعي بثراء عناصره كما ساد هذا الأخير نوع من الإنسجام والتكامل، وسجل الإطار التاريخي لهذه المدن عبر مراحل تاريخية مختلفة فترات إزدهار وانتعاش وكان هذا الإطار خلال القرن الثامن عشر غنيا بأحداثه، حيث لعبت هذه الحواضر أدوارا هامة، منها العواصم السياسية، ومنها المراكز الإقتصادية والثقافية، ونتيجة لهذه الأهمية كثيرا ما استقطبت هذه المدن أنظار الرحالة والمؤرخين وذلك لكونها اكتسبت شهرة سواء على المستوى المحلي أو على مستوى الإيالة عامة.

بعد التركيز على أهمية الدور الطبيعي والتاريخي تناولنا الوظائف الإقتصادية لهذه الحواضر وذلك لإبراز دور النشاطات التي كانت تشكل موردا للكسب والعلاقات الناجمة عنها وأهم هذه النشاطات التي كانت تشكل الحياة الإقتصادية هي الحرف والتجارة بشطريها الداخلي والخارجي كما ركزنا على دور الحواضر وعلاقتها بالأحواز في هذا المجال وذلك للإحاطة بصفة كاملة بجل الميادين الحيوية لهذا المحور.

بعد أن أصبحت لدينا صورة واضحة عن هيكلة السوق ونقاط ضعفها وقوتها وأهم موارد الإقتصاد والثروة تناولنا علاقاتها بالفئات والطبقات الإجتماعية التي كانت تتحكم وتتوزع على هذه الأنشطة، وتطرقنا إلى علاقاتها المختلفة سواء العمودية أو الأفقية وذلك لتوضيح كيف أن كثيرا ما ساهمت المصالح الإقتصادية في تقارب اجتماعي والعكس صحيح.

ثم واصلنا التحليل بتناول دراسة النسيج العمراني مشرين إلى البنية التي سادت هذه الحواضر وميزت هيكلتها. والغاية من هذا المحور هي ربط الوظائف الإقتصادية والتشكيلية الإجتماعية بالنسيج العمراني أي تجسيد ما سبق ذكره في الفصول السابقة على الفضاء الحضري حتى تتضح العلاقة وتصبح أكثر التماسا والعمل على كشف أن النسيج العمراني كان يعكس لنا تنظيم يشرح دور الوظائف الإقتصادية ويفسر العلاقات الإجتماعية الناجمة عن هذا الترتيب والتنظيم. وفي الأخير تطرقنا للحياة الثقافية من خلال مؤسساتها ومستوياتها التعليمية وانتاجها الأدبي والعلمي.

هكذا تتكامل هذه المحاور المختلفة لتعطينا صورة كاملة عن الحياة الحضرية التي سادت المدن المدروسة.

كما تمثلت أهمية البحث في المساهمة والقيام بعملية جرد وإحصاء وقراءة لأهم مصادر موضوع البحث وتوظيف ما جاءت به سجلات الأرشيف، علما أن مادة هذه السجلات هامة وضرورية لإثراء ودراسة تاريخ هذه الفترة بتقنيات ومناهج جديدة.

كما نلاحظ أن التاريخ الحضري لا زال منهجا جديدا في بحوثنا التاريخية، ولحد الآن دراسات من هذا النوع لا زالت قليلة إن لم نقل نادرة خاصة فيما يتعلق بالمجال المكاني والزماني المختار للدراسة.

لقد ساهم البحث في الخروج عن الطرق المألوفة في الدراسات التاريخية ومحاولة توظيف ما جاءت به سجلات الأرشيف لأن العودة إليها بل الإنطلاق منها بصفتها مصادر المرحلة يعتبر أمرا ضروريا.

سمح لنا البحث استخلاص النتائج الآتية:

1 - امتاز بايلك الغرب خلال القرن الثامن عشر بوجود واستمرار حياة حضرية، تمثلت هذه الحياة وتجسدت من خلال الحواضر المدروسة خاصة والتي اتصفت بنياتها الحضرية بنوع من الإنسجام والإستقرار.

2 - خلال هذه المرحلة التاريخية عرف البايلك فترات تاريخية هامة تمثلت في: عهد الباي بوشلاغم، وكانت أكثر أهمية فترة الباي محمد الكبير أي الربع الأخير من القرن الثامن عشر، حيث شهدت هذه الحواضر عبر هذه المرحلة إنتعاشا لهياكلها الحضرية وذلك نتيجة لعدة أسباب منها:

-ميز القرن الثامن عشر نوع من الإستقرار السياسي سواء على المستوى المحلي أي (البايلك) أو الإيالة عامة، فعلى المستوى المحلي نذكر عهد الباي بوشلاغم (1700- 1732)، كما يعتبر عهد الباي محمد الكبير (1784- 1799) أكثر أهمية حيث عرفت هذه الفترة نوعا من الإستقرار السياسي واستكمل البايلك وحدته باسترجاع مدينة وهران، ورافق هذا الإستقرار توفر المواد الأساسية للإقتصاد.

-وعلى مستوى الإيالة بصفة عامة ساد الإستقرار منذ منتصف القرن الثامن عشر وساهم هذا الوضع في وجود نوع من الإزدهار والإنتعاش الإقتصادي.

3 - مثلت هذه المدن مراكز حضرية ساهمت في توسيع وتعميق التحضر ويكفي أن نشير للأدوار التي قامت بها كل من تلمسان وندرومة كما نضيف أهمية المدن الأخرى مازونة ومستغانم ومعسكر سواء كعواصم أو مراكز حرفية وتجارية وثقافية. ونلاحظ أن هناك نوع من التكامل والتواصل ساد بين هذه الحواضر.

4 - شهد القرن الثامن عشر وخاصة الربع الأخير منه انتعاشا إقتصاديا نتيجة الإزدهار والإنتعاش الإقتصادي الناجم عن: التوسع في الحركة التجارية علما أن حجم الصادرات تضاعف أربع مرات مقارنة بالمراحل السابقة.

ونشطت مجالات حيوية في الإقتصاد كالصوف والجلود ولعب المنتوج الزراعي دورا هاما في تنشيط الحركة التجارية علما أن الحياة الزراعية كانت مرتبطة بتربية المواشي، هذه ميزة ميزت حوض البحر الأبيض المتوسط والمنطقة التلية خاصة تعكس لنا ذلك، لذا كان لهذا المردود دورا فعالا، بل أساسيا في الحياة الإقتصادية.

5 - إضافة إلى المنتوج الحرفي وما ترتب عن الحياة التجارية فهذا الإزدهار الإقتصادي ساهم في وجود هيكلة اجتماعية منسجمة البنيات وفي نفس الوقت ساهم في إحداث إفرازات جديدة نتيجة التناقضات والتغيرات التي طرأت على التشكيلة الإجتماعية، فانفردت فئات التجار والحرفيين بمكانة مميزة لأنها هي التي كانت تتحكم في الأنشطة وتسيير الثروة ومصادرها، وكان لها دورا هاما في توجيه الإقتصاد وفروعه.

كما شهدت الطبقة العامة توسعا نتيجة تدفق اليد العاملة بمختلف دراجاتها سواء من حيث مدة الإقامة أو نوعية الخدمات وجاءت هذه الفئات سواء من المناطق المجاورة للمدن المدروسة أو البعيدة طلبا للعمل.

6 - تميزت التشكيلة الإجتماعية بثراء من حيث العناصر المكونة لها وكانت الطبقة البرجوازية خاصة فئة التجار والحرفيين أكثر تمثيلا وتجسيدا لهذا الثراء والتعدد فهذا الثراء والتنوع على المستوى الإجتماعي كانت له تأثيرات عديدة عكسها لنا النسيج الحضري متمثلة في التقسيم الجغرافي للمدينة إلى مقاطعات وأحياء ومناطق.

فهذه التشكيلة الإجتماعية والتنظيم الإقتصادي ساهم في ابراز ملامح المدينة العربية الإسلامية عامة والمغاربية خاصة حيث أن لكل مجتمع مجاله المكاني المميز، فهذه النسبية تشرحها لنا كيفية ترتيب وتنظيم النسيج العمراني من حيث الترتيب والتجاور للحرف والفئات الإجتماعية.

7 - هذا الترتيب والتنظيم يسمح لنا بالتماس على مستوى النسيج العمراني تباين ما بين المناطق: المركز مخصص للأنشطة الإقتصادية والمناطق المخصصة للإقامة فهذا التقسيم والتنظيم أفرزته سيطرة الوظائف الإقتصادية ومركزيتها، كما أنه يمثل ظاهرة اجتماعية وثقافية.

ففي العهد العثماني بصفة عامة، المركز الإقتصادي هو الذي يشكل في المدينة العامل المهيمن فيما يخص تنظيم المجال الحضري. فالمسجد المركزي كان يقوم بدور ثانوي، ومقر السلطة انتقل إلى خارج المدينة.

8 - امتاز بايلك الغرب بحياة ثقافية ثرية ومتنوعة من حيث الإنتاج والوظيفة، علما أن هذا الجو الثقافي والرصيد العلمي ناجم عن رخاء إقتصادي عرفه البايلك خلال هذا القرن وخاصة في عهد الباي محمد الكبير.

إن الميزة الثقافية والعلمية التي اكتسبها البايلك عرفت استمرارا وتواصلا بل تميز بايلك الغرب أو المنطقة الغربية عامة عبر فترات ومراحل تاريخية مختلفة بخصوبة في ميدان العلم والمعرفة وكان انتاجه في هذا المجال ثريا، وساهم في هذا الجو وجود مؤسسات ثقافية ذات شهرة تجاوزت حدود الإيالة، كما عملت هذه المؤسسات على تنمية الحياة الثقافية ونذكر هنا مدارس تلمسان ومدرسة مازونة ومؤسسات معسكر ومستغانم وندرومة.

شكلت المنطقة عامة مركز إشعاع ثقافي وعلمي لهذا سجلت المرحلة المخصصة بالدراسة أسماء لامعة ساهمت بإنتاجها وتعليمها في تقدم الحركة العلمية والثقافية ونركز هنا على بعض الأسماء التي ارتبطت بتاريخ وأحداث المنطقة أنذاك.

نتيجة لوجود هذه النخبة المثقفة فإن الأحداث البارزة التي عرفها البايلك لم تهمش وإنما حركت الأقلام وألف لها الكثير، فشكل الفتح الأول لمدينة وهران موضوع سجله العديد نذكر:

ابن ميمون ومؤلفه حول الموضوع والحدث، التحفة المرضية في الدولة البكطاشية، كما ألف مفتي تلمسان الشيخ محمد ابن أحمد الحلفاوي قصيدة طويلة وصف فيها الحدث.

وشكل الفتح الثاني لمدينة وهران حدثا مجده الكثير ومجد صانعه، حيث نال الباي محمد الكبير قسما هاما مما ألف ونذكر: لقد سجل مصطفى ابن عبد الله المعروف بابن زرفة حوادث الفتح في مؤلفه «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» وألف كاتبه الثاني سحنون الراشدي وهو أبرز من خلد فتح مدينة وهران مؤلفه «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» وهذا شرح لقصيدته المطولة والتي تحمل عنوان «الأزهار الشقيقة».

أما أبو راس الناصري فله قصيدة في فتح وهران «نفيسة الجماني في الثغر الوهراني» وشرحه لها «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار».

لقد شكلت الأحداث مصدرا وموضوعا للتأليف كما سبق أن ذكرنا ولهذا فالإنتاج الأدبي والعلمي ذو قيمة تاريخية كبيرة في تفسير وتحليل تاريخ المنطقة.

نضيف إلى ما سبق ما ألفه ابن هطال التلمساني كاتب الباي محمد الكبير أثناء خروجه إلى الجنوب الوهراني أي «رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الوهراني». كما نشير إلى عبد القادر بن عبد الله المشرفي الغريسي وأهم أعماله: «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر».

عرف البايلك شعراء وفقهاء ساهموا في الحياة الثقافية بإنتاجهم وتعليمهم ومن بين الشعراء نذكر الشاعر ابن حواء محمد ومؤلفه» الغوثية الكبرى» والشاعر ابن عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب ، الشاعر التلمساني الأندلسي الأصل له قصائد ومدائح دينية .

9 - تعمق الإنتاج حيث وصل درجة التخصص في الميدان الأدبي والعلمي لبعض الحواضر وربما التشكيلة الإجتماعية وخصوصياتها وذوقها الثقافي وميولها هو الذي يشرح لنا هذا التوجه ويفسر هذا المنحى، وهذا التخصص ميزة عريقة تواصلت وطبعت انتاج حواضر البايلك خلال العهد العثماني والقرن الثامن عشر خاصة.

ابن ميمون ومؤلفه حول الموضوع والحدث، التحفة المرضية في الدولة البكطاشية، كما ألف مفتي تلمسان الشيخ محمد ابن أحمد الحلفاوي قصيدة طويلة وصف فيها الحدث.

وشكل الفتح الثاني لمدينة وهران حدثا مجده الكثير ومجد صانعه، حيث نال الباي محمد الكبير قسما هاما مما ألف ونذكر: لقد سجل مصطفى ابن عبد الله المعروف بابن زرفة حوادث الفتح في مؤلفه «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية» وألف كاتبه الثاني سحنون الراشدي وهو أبرز من خلد فتح مدينة وهران مؤلفه «الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني» وهذا شرح لقصيدته المطولة والتي تحمل عنوان «الأزهار الشقيقة».

أما أبو راس الناصري فله قصيدة في فتح وهران «نفيسة الجماني في الثغر الوهراني» وشرحه لها «عجائب الأسفار ولطائف الأخبار».

لقد شكلت الأحداث مصدرا وموضوعا للتأليف كما سبق أن ذكرنا ولهذا فالإنتاج الأدبي والعلمي ذو قيمة تاريخية كبيرة في تفسير وتحليل تاريخ المنطقة.

نضيف إلى ما سبق ما ألفه ابن هطال التلمساني كاتب الباي محمد الكبير أثناء خروجه إلى الجنوب الوهراني أي «رحلة محمد الكبير إلى الجنوب الوهراني». كما نشير إلى عبد القادر بن عبد الله المشرفي الفريسي وأهم أعماله: «بهجة الناظر في أخبار الداخلين تحت ولاية الإسبانيين بوهران من الأعراب كبني عامر».

عرف البايلك شعراء وفقهاء ساهموا في الحياة الثقافية بإنتاجهم وتعليمهم ومن بين الشعراء نذكر الشاعر ابن حواء محمد ومؤلفه» الغوثية الكبرى» والشاعر ابن عبد الله محمد بن أحمد بن مسايب ، الشاعر التلمساني الأندلسي الأصل له قصائد ومدائح دينية .

9 - تعمق الإنتاج حيث وصل درجة التخصص في الميدان الأدبي والعلمي لبعض الحواضر وربما التشكيلة الإجتماعية وخصوصياتها وذوقها الثقافي وميولها هو الذي يشرح لنا هذا التوجه ويفسر هذا المنحى، وهذا التخصص ميزة عريقة تواصلت وطبعت انتاج حواضر البايلك خلال العهد العثماني والقرن الثامن عشر خاصة.

ونذكر في هذا الصدد بعض الأمثلة تجسد هذه الملاحظة وتدعمها:

إذا كانت مدينة مازونة قد امتازت واشتهرت بعلوم الفقه وانتاجها في هذا الميدان عبر مراحل تاريخية مختلفة فإن مدرستها وليدة بيئة ومحيط ثقافي. في هذا المجال نشير إلى أسماء لامعة في هذا الميدان اشتهرت بهما مدينة مازونة في مراحل سابقة لمدرستها الشهيرة ، نذكر أبو عمران المازوني وهو موسى بن يحي بن عيسى المازوني أبو عمران الذي عاش في مطلع القرن 15 م ومؤلفه «الذرر المكنونة» وابنه يحي بن موسى بن عيسى بن يحي أبو زكرياء المغيلي المازوني والذي عاش في نهاية القرن 15م. وهو صاحب المؤلف«الذرر المكنونة في نوازل مازونة».

واشتهرت مدينة مستغانم وأحوازها بانتاج الشعر ملحونا كان أو فصيحا يصف الجمال ويمدحه إلى غاية التجريد وتنسجم العلاقة بين الشاعر والموضوع لتصل درجة التصوف وفي هذا المجال نذكر شعراء عرفتهم مستغانم وأحوازها. فهناك الشاعر الذي عاش في القرن 16 م وهو الشاعر الأخضر بن خلوف صاحب القصائد المطولة الرائعة في وصف الجمال، إضافة إلى شعراء الملحون والمداحون نذكر منهم الشاعر محمد بن حواء وهو أديب وناظم أهم ما ألف «فن الحكمة» و«الغوثية الكبرى»

10 - إن التخصص والتوجه في الإنتاج الثقافي أملته وفسرته بصورة واضحة التركيبة الإجتماعية لهذه الحواضر ونمط الحياة الذي تعيشه وسلوكها. لقد كان تعاطي الشعر وتذوقه يندرج ضمن الإنشغالات والإهتمامات اليومية لسكان مدينة مستغانم بل يعكس ذوقا ثقافيا ، وصبغ الفقه ثقافة أدباء وعلماء مدينة مازونة.

تميزت مدينة تلمسان بإنتاج فكري وجو ثقافي شمل جل فروع العلوم وميادين المعرفة، كما مثلت مركز اشعاع ثقافي على المستوى المحلي و على نطاق واسع، وساهم في هذا الدور وفي تنشيط الحركة الثقافية وذلك منذ مطلع القرن الرابع عشر مدارسها الشهيرة؛ حيث تخرج منها ودرس بها علما، كان لهم تأثير ودور في الحركة العلمية. ألم تكن مدارس تلمسان إحدى المحطات العلمية التي مر بها ابن خلدون وعلماء آخرون؟

إن الوظيفة الثقافية لمدينة تلمسان ناجمة عن الإستقرار الحضري الذي تميزت به هذه المدينة.

كان النضج الحضري الذي ساده الإستقرار من أهم العوامل التي تميز بها بايلك الغرب. ولهذا عرف عبر مراحله التاريخية إنتاجا علميا ومساهمة في الحركة الثقافية.

11 - إن هذه الحياة الحضرية بجل المدن المدروسة نمت ذوق في الحياة تجلى من خلال التقاليد الحضرية التي اتسمت بها هذه المدن. إضافة إلى النشاطات الحرفية والفنية نضيف سلوكا في الحياة تمثل في:

طريقة وكيفية البناء، الملبس، إدارة الأمور وحتى طريقة الكلام بل هذا العنصر يترجم لنا المستوى الإقتصادي والذهنية السائدة كما يعتبر الكلام المتداول سواء من حيث الشكل أو المضمون مرآة تعكس لنا المستوى الحضاري والثقافة السائدة. ففي الدراسات الحضرية يعتبر عامل اللغة بجل جوانبه عنصرا هاما.

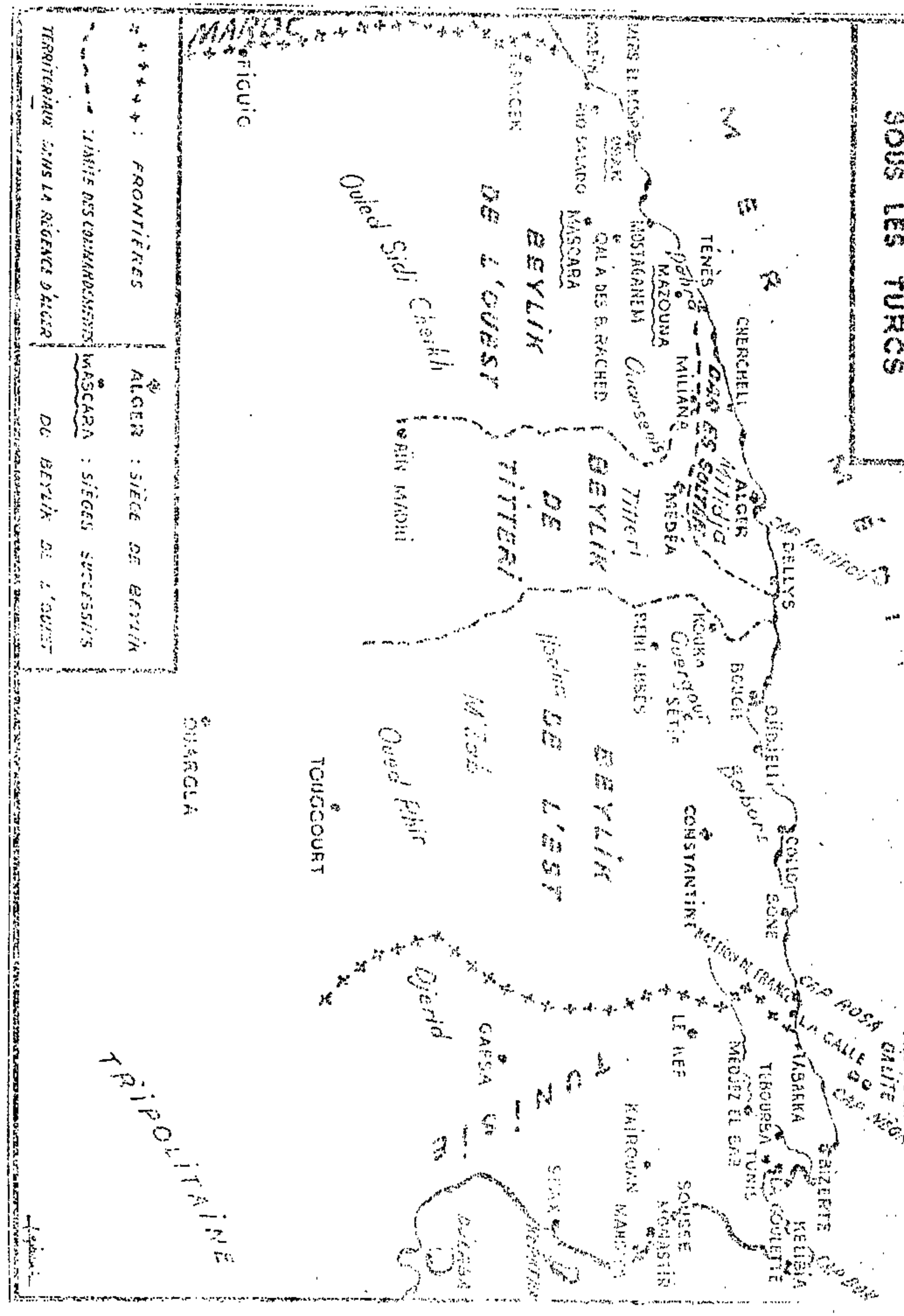
12 - نجم عن هذا الإزدهار الإقتصادي والإستقرار السياسي والهيكلة الإجتماعية والرواج الثقافي توسع الحركة العمرانية ونموها، حيث عرف القرن الثامن عشر عبر فترات مختلفة ابتداء من عهد الباي بوشلاغم وتوسعا في عهد الباي محمد الكبير أي الربع الأخير من القرن الثامن عشر، حيث شهد البايلك نموا عمرانيا نتيجة المشاريع التي قام بها الباي محمد الكبير، وشملت هذه الحركة العمرانية جل مدن البايلك.

وفي هذا الإطار نشير إلى مشاريع مدينة معسكر بصفتها العاصمة كما استفادت من هذا النمو الحضري مدن أخرى كتلمسان ومستغانم وحظيت مدينة وهران إبتداء من سنة 1792 بمخططات عمرانية هامة وذلك نتيجة انتقال مقر البايلك إلى هذه المدينة ولإعطائها صورة عاصمة الإقليم.

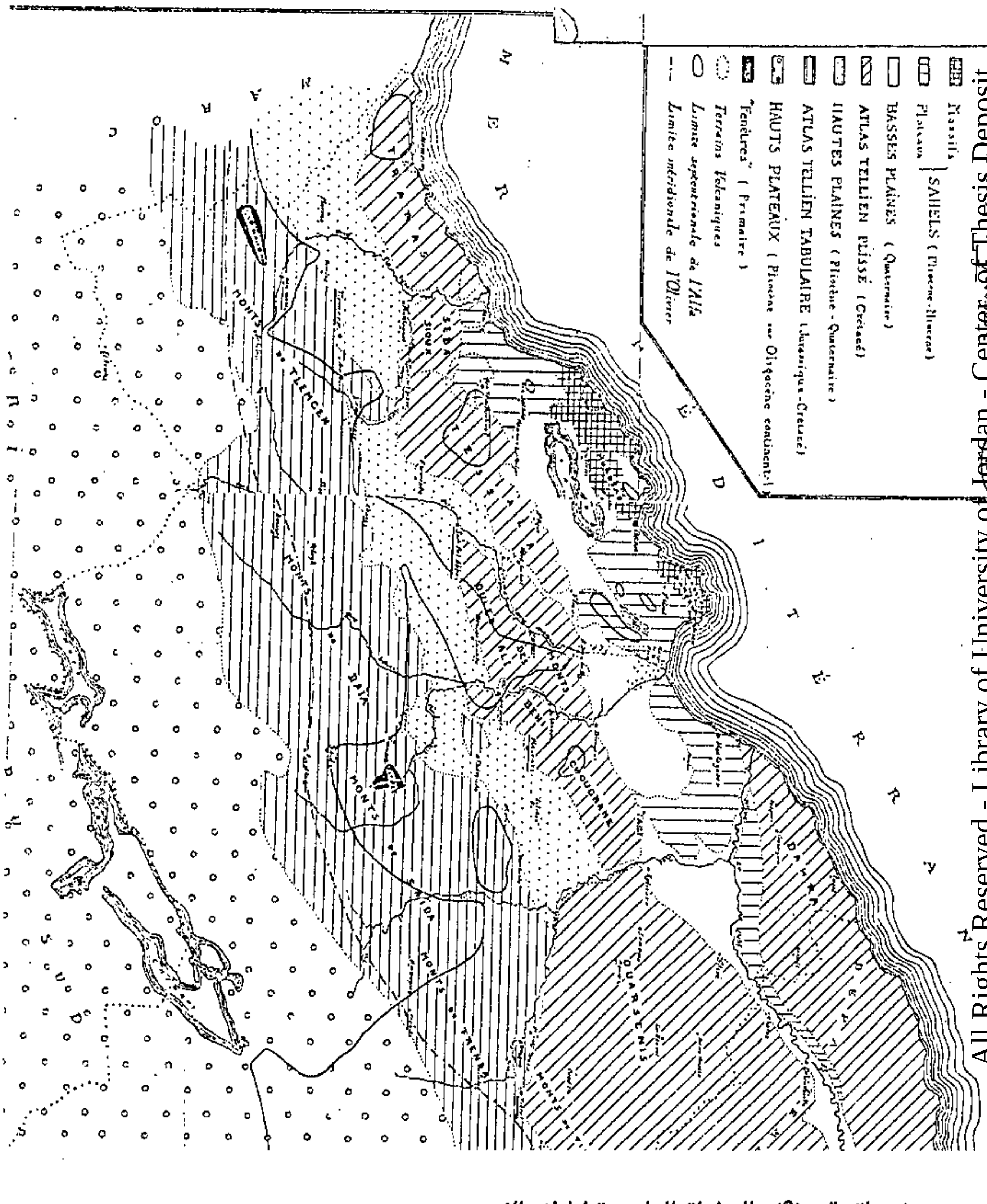
كما عرفت المشاريع العمرانية والثقافية والعلمية توسعا ودعمت بمؤسسات الأحباس والأوقاف وذلك من أجل ضمان الإستمرارية للحياة الثقافية وإعطاء هذه المؤسسات دورا حيويا ونشيطا.

من هنا يبدو لنا الربط جليا ما بين المجال الإقتصادي والإجتماعي والثقافي بالنمو العمراني، حيث أن النسيج الحضري يفسر لنا فترات الإزدهار والإنكماش، فالمدينة من خلال عمرانها تترجم وتعكس نوع من التمويل المالي، مستوى معين للحركة التجارية والنشاط الحرفي والبنية الإجتماعية والثقافة السائدة.

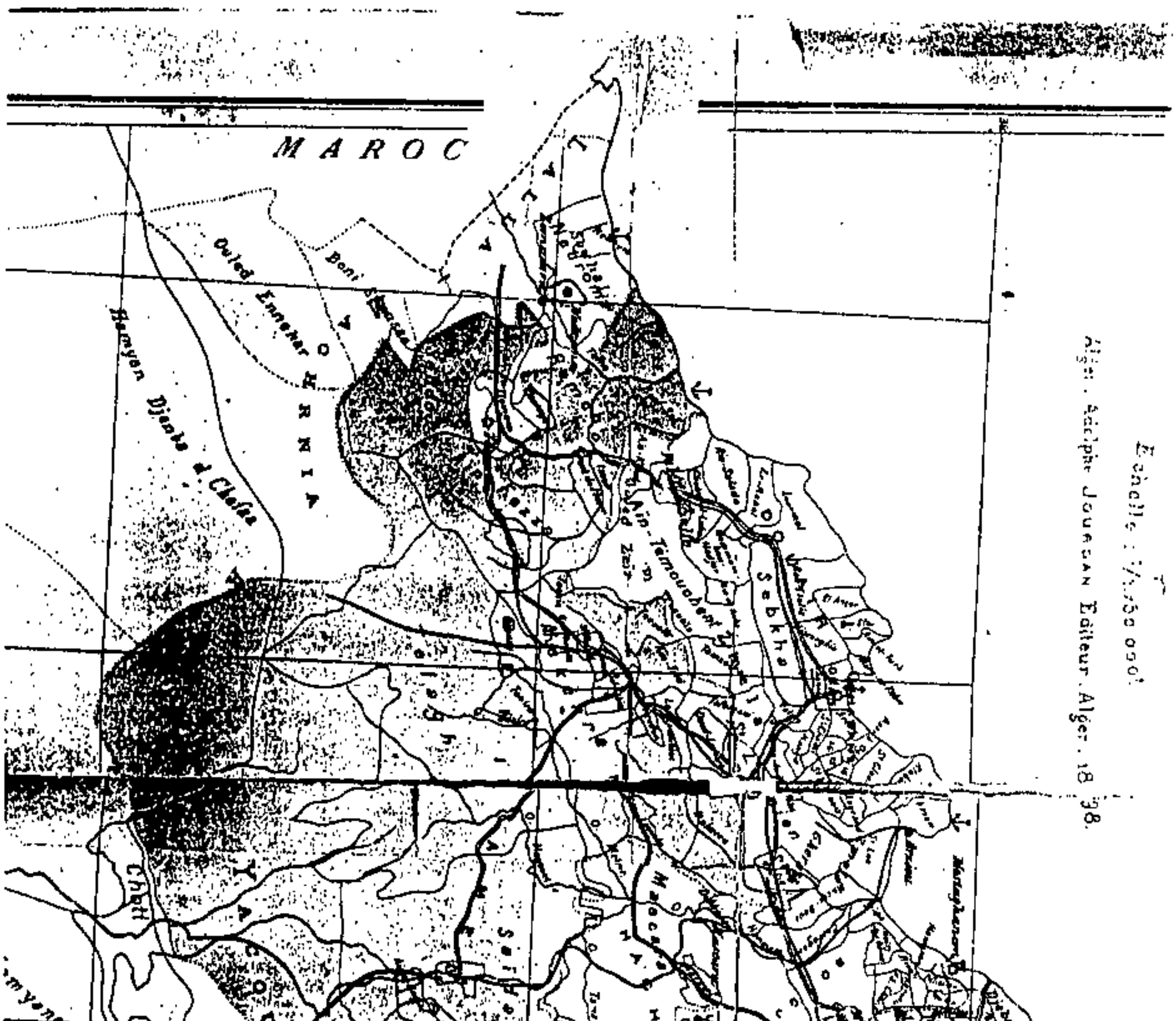
أخيرا فإن المحاولة التي سعينا من أجلها أصبحت ملموسة وتتجلى في الربط ما بين النسيج العمراني والوظائف الإقتصادية والتركيبة الإجتماعية وإبراز العلاقات التي تنجم عن هذه الثلاثية.



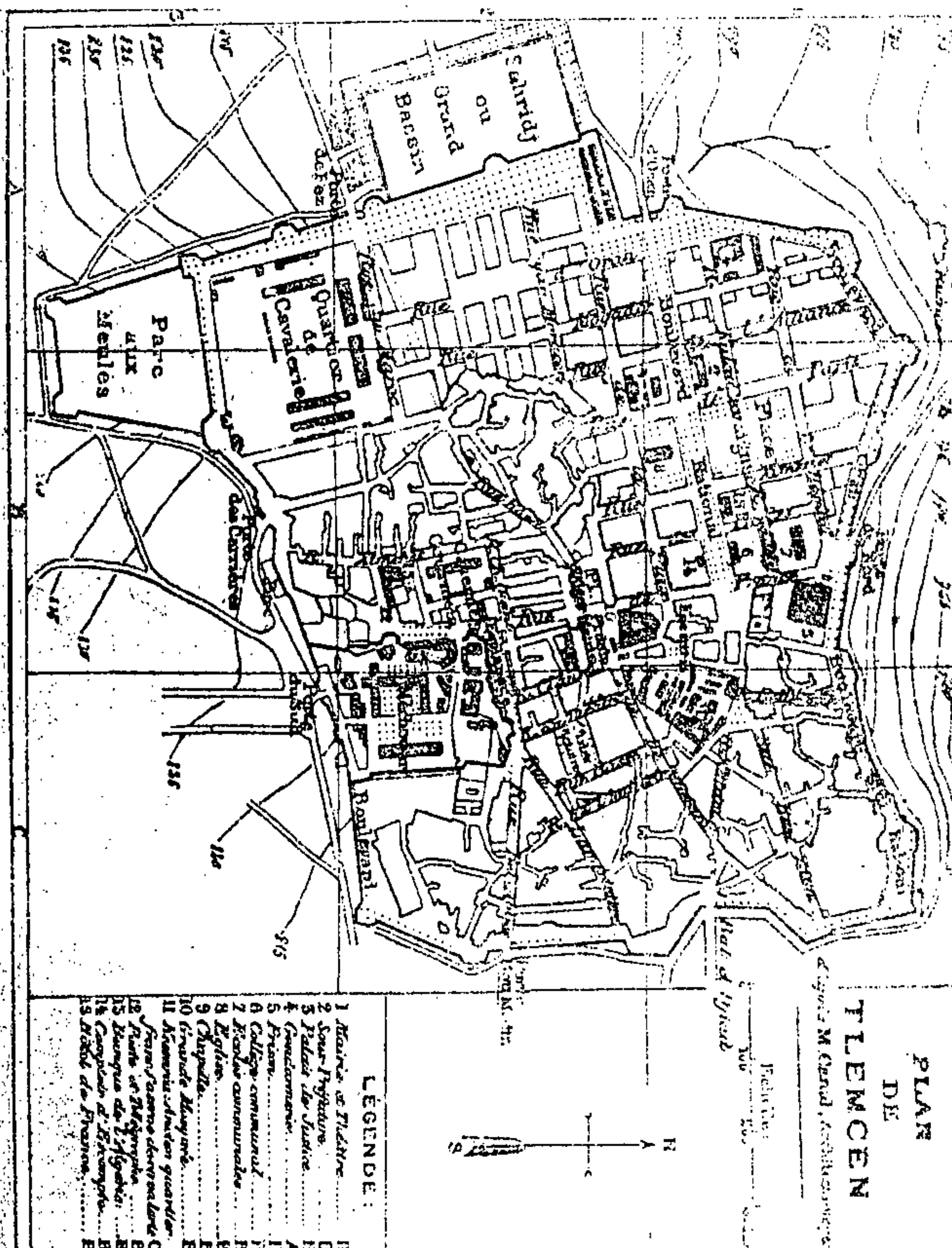
-خريطة رقم (1) – التقسيم الإداري وأهم مدن الإيالة



-خريطة رقم (2)- المناطق الطبيعية لبايلك الغرب



-خريطة رقم (3)- توزيع القبائل عبر بايلك الغرب

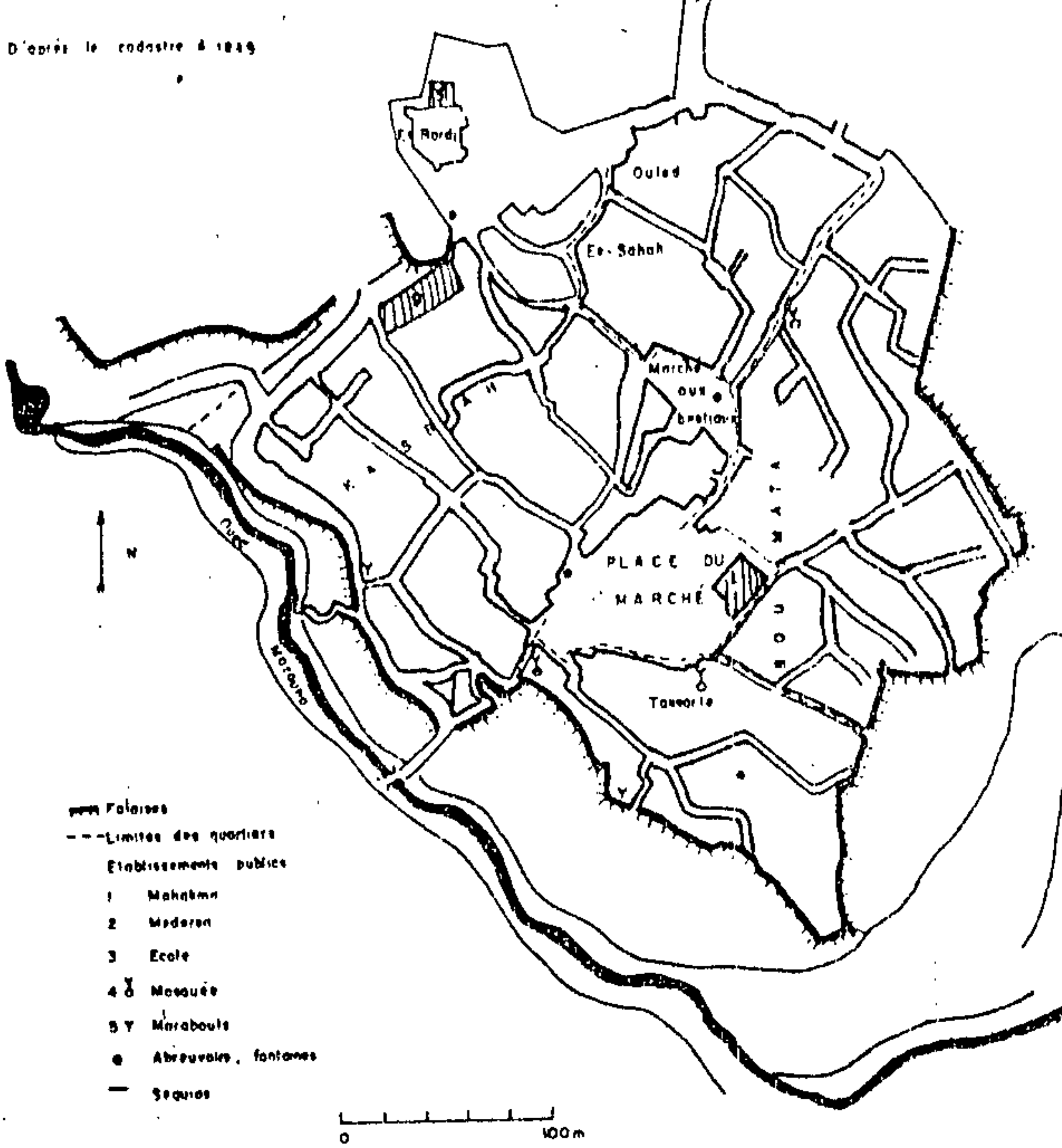


-تصميم (4)- النسيج العمراني لمدينة تلمسان



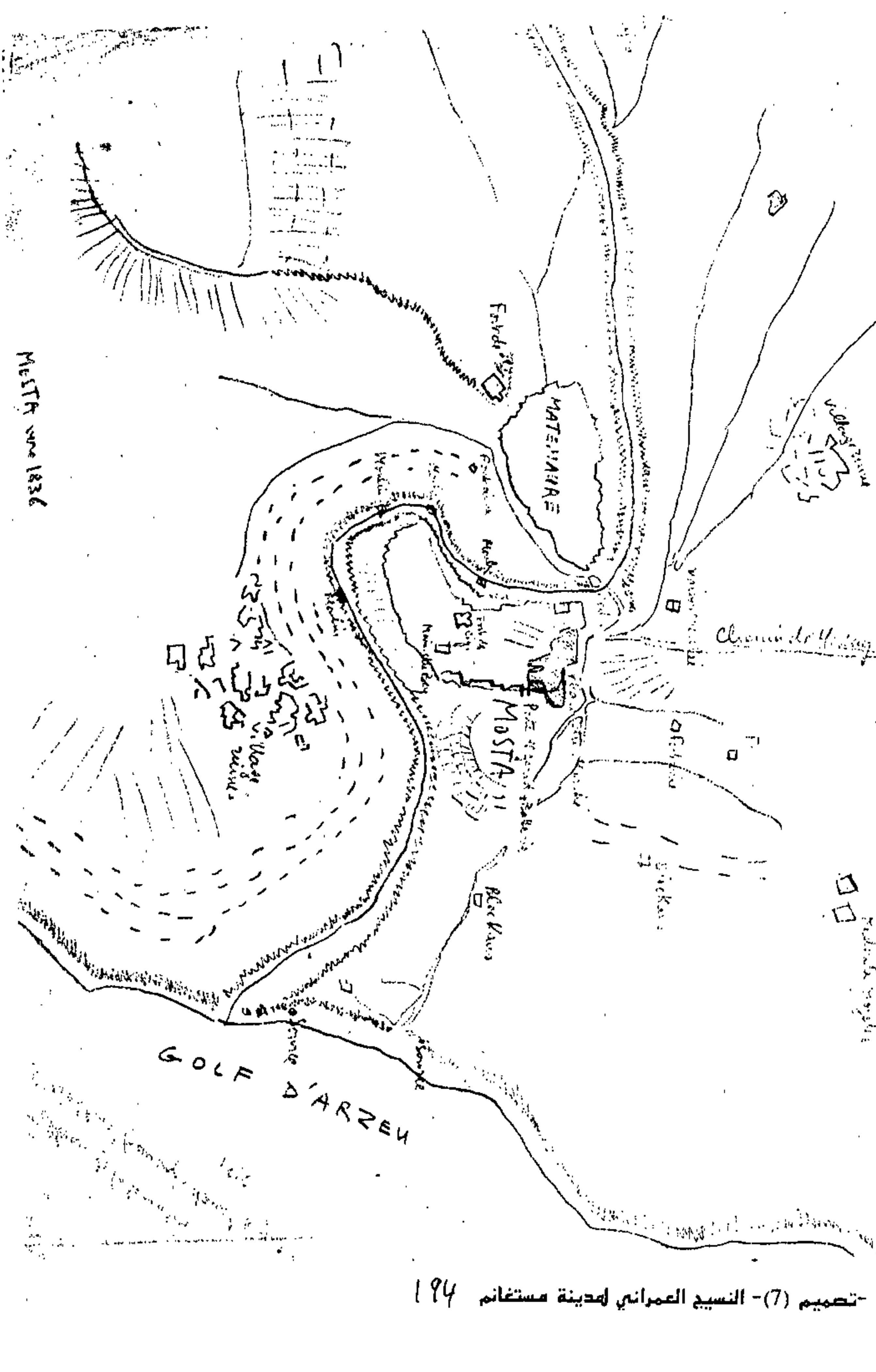
- خريطة رقم (5)- مدينة تلمسان وضواحيها واهم الطرق التي تربطها بالعالم الخارجي

Fig. 13
Plan de Mazouna en 1879

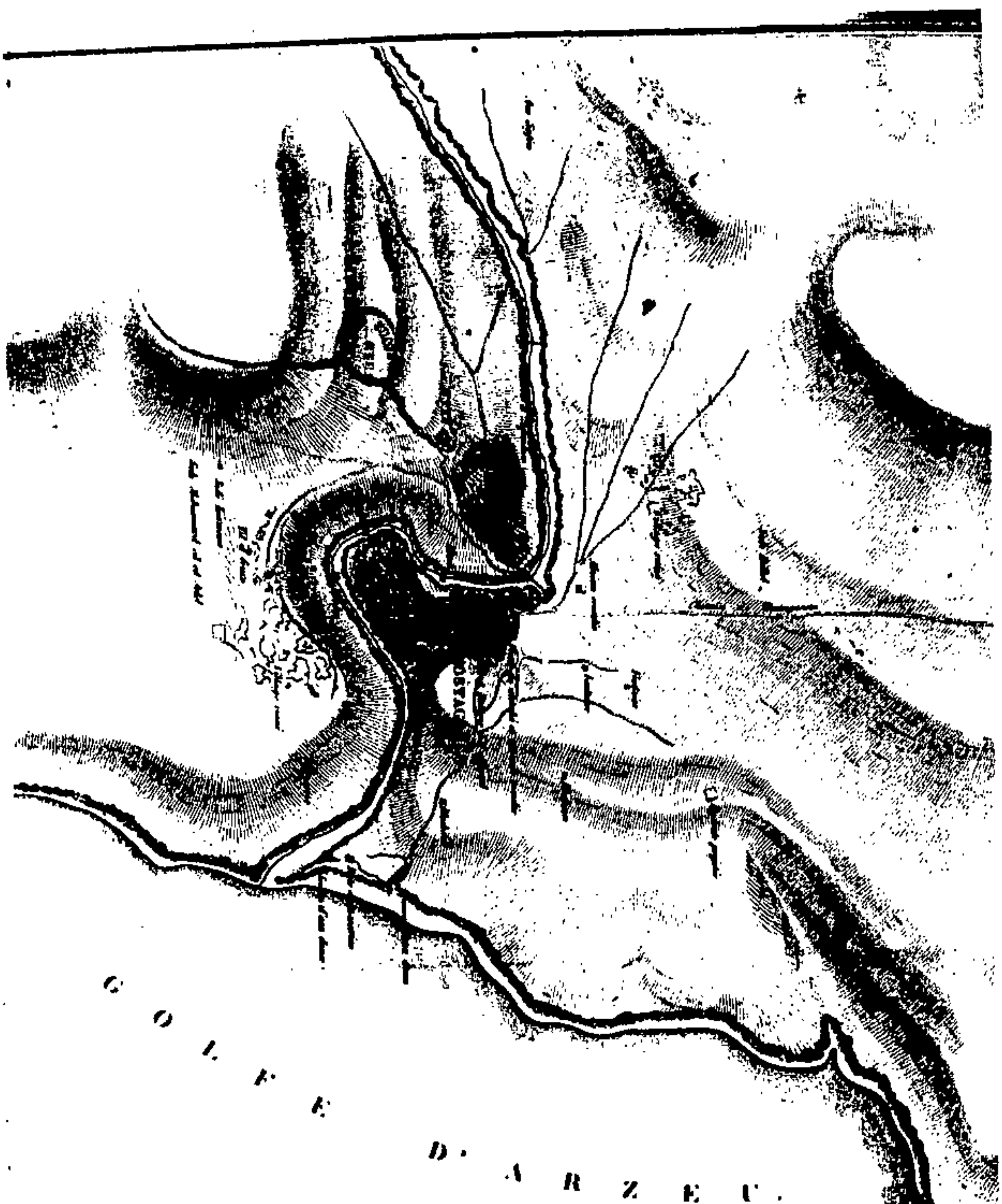


53

-تصميم (6)-النسيج العمراني لمدينة مازونة



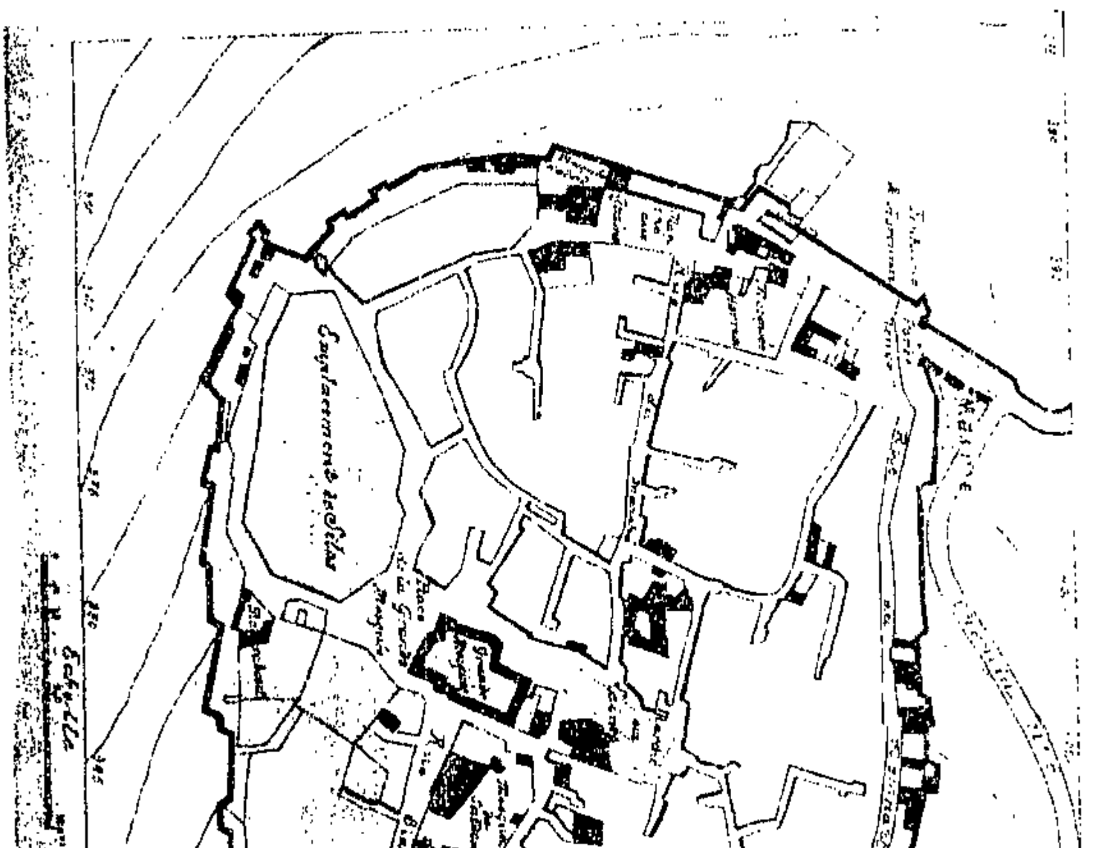
-تصميم (7)- النسيج العمراني لمدينة مستغانم 194



-خريطة رقم (8)- مدينة مستغانم وميناؤها ضمن خليج ارزيو



-خريطة رقم (9)- مدينة معسكر واحياؤها وأهم الطرق التي تربطها بالعالم الخارجي



-تصميم رقم (10)- النسيج العمراني لمدينة ندرومة

ببليوغرافية البحث

I المصادر والمراجع باللغة العربية

II المصادر والمراجع باللغة الأجنبية

I مصادر ومراجع باللغة العربية:

1- الأرشيف:

- الأرشيف الوطني:

أ- سجلات المحاكم الشرعية:

علبة 140: رقم الوثيقة 85-86، السنة 1765، رسم معارضة في أملاك محبسة لصالح الوقف بإشراف الموثق بتلمسان، الأملاك لصالح عائلة الباي محمد بن عثمان.

علبة 108-109: رقم الوثيقة 30-47، السنة 1832، رسم بيان أملاك محبسة لصالح فقراء الحرمين الشريفين المتمثلة على ديار وحوانيت وأجنة وأرض حدائق ورحي ومياه سايلة وراكدة، تحبيس السيد محمد باي وابنه عثمان باي وأخيه السيد محمد باي، في كل من وهران وتلمسان ومعسكر بإشراف القاضي الموثق بوهران.

ب- سجلات البايلك:

فهرس 23 ب: علبة 146، رقم السجل 233، الرقم القديم 146، السنة: (1701-1702-1704-1705). سجل يتضمن ذكر محصول البيوت والغرف والمخازن المحبسة في المدن الآتية: مستغانم، تلمسان، مازونة.

فهرس 28 ب: علبة 205-216، رقم السجل 311، الرقم القديم 216، السنة (1760-1765) و(1808-1809). سجل يتضمن ذكر الأوقاف عموما مفصلة حسب عدد من المدن الجزائرية: الجزائر، البليدة، المدية، مازونة، شرشال، التنس.

فهرس 29 ب: علبة 217- 245، رقم السجل 328، الرقم القديم 233، السنة: (1741-1742- 1784، 1785)، سجل يتضمن ذكر دخل الأوقاف في المدن الآتية: المدية، مليانة، شرشال، بجاية، مستغانم، مازونة.

علبة رقم 16: رقم السجل 74- 104، السنة (1009- 1175 هـ) رسوم ملكية للأماكن بداخل وخارج المدن الآتية: وهران، مازونة، مليانة.

علبة رقم 80- 85: رقم السجل 167، الرقم القديم 82، سجل يتضمن بيان رسوم للمحبسين بعد الإنقراض وهو إحصاء عام يرجع للأملاك الموقوفة على الحرمين الشريفين وفقرائهم بالمدن الآتية: مستغانم، معسكر، القلعة.

2- المخطوطات:

المازري، طلعة سعد السعود، المتحف الجهوي بمدينة وهران.

مجهول، أوامر تركية تحت اسم كتاب قانون بالجزائر على الأسواق وغيرها، مخطوط بالمكتبة الوطنية الجزائرية.

محمد المصطفى بن عبد الله المعروف بابن زرفة، «الرحلة القمرية في السيرة المحمدية، ج1 المكتبة الوطنية.

الناصري أبو راس، عجائب الأسفار ولطائف الأخبار، مخطوط بالمكتبة الوطنية.

3- الكتب المطبوعة:

ابن خلدون عبد الرحمن، المقدمة، جII، تونس، الدار التونسية لنشر، 1984.

الإدريسي الشريف و وصف افريقيا الشمالية والصحراوية مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق في أختراق الآفاق، الجزائر، (I. E. S. I. A)، 1957.

ابن سحنون الراشدي، أحمد بن محمد علي بن، الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، تحقيق وتقديم المهدي البوعبدلي، قسنطينة، منشورات وزارة التعليم الأصلي، 1973.

بن هطال أحمد التلمساني، رحلة محمد الكبير «باي الغرب الجزائري» الى الجنوب الصحراوي الجزائري، تحقيق وتقديم محمد بن عبد الكريم، القاهرة، عالم الكتب، 1969.

بلحميسي مولاي: الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، الجزائر، ش.و، ن، ت، 1979.

الزهار أحمد الشريف الحاج، نقيب أشراف الجزائر (1754 - 1830)، مذكرات، تحقيق أحمد توفيق المدني، الجزائر، ش،و، ن، ت، 1974.

الزياني محمد بن يوسف: دليل الحيران وأنيسي السهران في أخبار مدينة وهران، تقديم وتحقيق المهدي البوعبدلي، الجزائر، ش، و، ن، ت، 1978.

سعد الله أبو القاسم: تاريخ الجزائر الثقافي من القرن العاشر إلى الرابع عشر الهجري (16- 20 م) ج I و جII، الجزائر ش، و، ن، ت،1981.

سعيدوني ناصر الدين، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر، العهد العثماني الجزائر، ش،و، ن، ت، 1984.

سعيدوني ناصر الدين، النظام المالي للجزائر في أواخر العهد العثماني (1792 - 1830) ط2 الجزائر، ش، و، ن، ت، 1985.

قاضي محمد، الكنز المكنون في الشعر الملحون، الجزائر، المطبعة الثعالبية، 1938.

هاينريش فون مالتسان، ثلاث سنوات في شمال غربي افريقيا، الجزء الأول، ترجمة أبوالعيد دودو، الجزائر، ش، و،ن، ت، 1976.

نوهيض، عادل: معجم اعلام الجزائر، بيروت، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، 1971.

4- المقالات:

رؤوف عبد السلام، «الملامح الإجتماعية لنظام الأصناف في العراق ابان العهد العثماني»، «مركز الدراسات والبحوث عن الولايات العربية»، 1986، (ص 446، 460).

سعيدوني ناصر الدين، مخطوط «قانون أسواق مدينة الجزائر» مجلة «حوليات»، جامعة الجزائر، العدد 5، 1990 - 1991، (ص 117 - 126).

II مصادر و مراجع باللغة الأجنبية:

1- Archives Non Publiées.

Rapports:

A- A.M.G/ Serie H. Algérie.

H-1-226: Expédition à Mascara, par St Hypolite, Août 1835.

H-1- 228: Notice sur la ville de Mazouna, par st Hypolite, le 25 Mars 1871.

H - 374: Voyage dans la province d'Oran par le Capitaine du corps royal d'Etat major, G.Tatareau, Alger, Le 5 Septembre 1835.

B- A.W.O.

Notice historique et statistique de l'Arrondissement de Mascara, Mascara, 1877.

Situation, Etats et Tableaux périodique, statistiques de Mostaganem, Mostaganem, Le 16 Janvier 1834.

2- Sources antérieures à 1830.

ARAMBURU Don Joseph De. Oran et l'Ouest Algérien au 18° siècle, présentation et traduction de EL Korso et Epalza, Alger, Bibiothèque Nationale, 1978.

BEKRI Abou Obeid El, Description de l'Afrique Sptentrionale, Trad Mac Guckin de Slane, Paris, Maisonneuve, 1965.

HAEDO Diego - De, Topographie et histoire générale d'Alger, Trad par Berbrugger et Monnereau, Revue Africaine T.XIV et XV (1870 - 1871), Alger, Jourdan, 1968.

HAMDANE Khodja, Le Miroir Aperçu historique et statistique sur la régence d'ALger, Paris, Sindbad, 1985.

LAUGIER DE TASSY, Histoire du royaume d'Alger. Amsterdam, Henri du Sauzz, 1725.

LÉON L'AFRICAIN Jean, Description de l'Afrique, 2 Vol, Paris, Maisonneuve et Larose, 1981.

MARMOL Carvajal Louis, Description générale de l'Afrique et histoire de la guerre des Chrétiens contre les infidèles, Trad de Nicole Perrot d'Ablincour, Paris, Bilaine, 1667.

PEYSSONNEL ET DESFONTAINE, Voyage dans les régences de Tunis et d'Alger, présenté par Dureau de la Malle, 2 vol, Paris, Gide, 1858.

RAYNAL (G.T.D.E), Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des Européens dans l'Afrique Septentrionale, 2 Vol. Paris, Pierre Maunus, 1826.

SHALER William, Exquise de l'Etat d'Alger considéré sous les rapports historique et civil, Trad par Blanchi M-X, Paris, Ladvocat, 1830.

SHAW Thomas-Dr, Voyage dans la régence d'Alger, Trad J. Mac Carthy, Paris, Marlin, 1830.

VENTURE DE PARADIS, Tunis et Alger au XVIII Siècle, rassemblés et présen tés par Joseph Cocq, Paris, Sindbad, 1983.

3 Travaux -Etudes depuis 1830

AGUILA Luis Cara Del, Les Espagnoles en Afrique, relations politique et commerciales avec la régence d'Alger, de 1786 à 1830, Thèse de 3 cycle Bordeaux, univerxité de Bordeaux III, 1974.

Association Française, Pour l'avancement des sciences, congrès d'Oran, Oran et l'Algérie, 1887, T. I, Oran, Perrier, 1888.

BARGÈS (J.J. Abbé. L), Souvenirs d'un voyage à Tlemcen, Paris, Duprat, 1859.

BASSET René, Nédroma et les Traras, Paris, Leroux, 1901.

BAUDICOUR Louis - De, Histoire de la colonisation de l'Algérie, Paris, Challamel, 1880.

BEL ALFRED, Projet d'une enquête générale sur les industries traditionnelles des indigènes Nord-Africains (musulmans et Juifs), Alger, Carbonnel, 1926.

BEL ALFRED, Tlemcen et ses environs, Toulouse, Thiriat.

BEL (A) ET RICARD (P), Le Travail de la laine à Tlemcen, Alger, Jourdan, 1913.

BELHAMISSI Moulay, Histoire de Mostaganem, Alger, CNEH, 1976.

BELHAMISSI Moulay, Mazouna une petite ville, une longue histoire, Alger, SNED, 1982.

BENACHENHOU, Abdelatif, Formation du Sous développement en Algérie, Alger, SNED, 1978.

BERQUE Jaques, L'Interieur du Maghreb XV°-XIX Siècles, Paris, Gallimard, 1978.

BLISMON (R), Notice topographique sur le royaume de la ville d'Alger, Paris, Casteaux, 1830.

BRAUDEL Fernand, Civilisation matérielle, économie et capitalisme du XV au XVIII° Siècle, Collection: destin du monde, 3 Vol Paris, Armand Colin, 1967.

BRAUDEL Fernand, La Méditerranée et le monde méditerranéen à l'époque de Philippe II, 2 Vol, Paris, A.Colin, Ed de 1966.

BRAUDEL Fernand, Routes, Ports et Trafics, collection; Ports Routes et Trafics (1547 -1611), Paris, A. Colin, 1951.

BODIN Marcel, Traditions indigènes sur Mostaganem et Tidjditt, Oran, B.S.G.A.O, 1925.

BONTEMS Claude, "Manuel des institutions Algériennes de la domination Turque à l'independance, T.I la domination Turque et le régime militaire 1518 - 1830, Paris, Cujas, 1976.

BOUTIN (chef de bataillon), Reconaissance des villes Forts et batteriers d'Alger, Paris, Champion, 1927.

BOYER Pierre, La vie quotidienne à Alger à la veille de l'intervention Française, Paris, Hachette, 1963.

CAHIERS Du CERM, "Sur le féodalisme", Paris, ed. Sociales, 1971,
-"Sur les sociétés précapitalistes", Paris, ed Sociales, 1970.
-Sur le mode de production asiatique", Paris, ed sociales, 1974.

CARETTE Eugène, Du Commerce de l'Algérie avec l'Afrique centrale. Paris, Guyot, 1844.

CHABOT Georges, Les villes. Paris, A-Colin, 1948.

CAVAIGNAC-Eugène, De la régence d'Alger, Paris, 1839.

COCQ André -Le, Histoire de Tlemcen, ville Française, Tanger, Ed Internationales, 1940.

DENEVEU, Les Khouan, ordres religieux chez les musulman de l'Algérie, Paris, imp du Roi, 1845.

DESPOIS Jean, Géographique économique de l'Afrique du Nord, Alger, Faculté des lettres, 1961.

DESPOIS (J) et REYNAL (R), Géographique de l'Afrique du Nord Ouest, Paris, Payot, 1975.

EDRISSI (CH), Description de l'Afrique et de l'Espagne, Trad de R. Dozy et N.J de Goeje, Leiden, Brill, 1968.

EMERIT Marcel, L'Algérie à l'époque d'Abdelkader, Paris, Larose, 1951.

ESQUER Gabriel, Iconographie historique de l'Algérie. Paris, Plon.

FAURE -BIGUET (G), Histoire de l'Afrique Septentrionale sous la domination musulmane, Paris, Lavauzelle, 1905.

GARDET Louis, la Cité musulmane vie sociale et Politique, Paris, Vrin, 1961.

GARNIER-BEAUJEU Jacqueline, Géographie Urbaine, Paris, Armand Colin, 1980.

GASSER (N.J) Sénateur, Claude Petit (M.M) et ROUX Frée Ssimemg, Députés, Le livre d'or de l'Oranie, Ed Afrique du Nord ilustré, 1925.

GRAMMONT Henri-De, Histoire d'Alger sous la domination Turque. (1515 - 1830), Paris, Leroux, 1887.

GRAND-Guillaume Gilbert, Nédroma l'évolution d'une médina, Leyden, Brill, 1976.

GRANDET Denise, Architecture et urbanisme islamiques, Alger, OPU, 1986.

GOLVIN Louis, Aspects de l'artisanat en Afrique du Nord, Paris, PUF, 1957.

Histoire et Urbanisme" in," Annales E.S.C°, N spécial, N° 4, Juillet-Août 1970.

J.M.H.B, Itinéraire du royaume d'Alger, Toulon, Laurent, 1850.

KEHL Camile, Oran et L'Oranie avant L'occupation française, Oran, Fouqué, 1942.

LACOSTE (Y), NOUSCHI (A), PRENANT (A), L'Algérie passé et présent, Paris, ed Sociales, 1960.

LAPENE (M), Tableau historique de la province d'Oran, depuis le depart des espagnols en 1792 jusqu'a l'élévation d'AbdelKader en 1831, Metz, S. Lamort, 1842.

LEFEBRE Henri, Espace et société, le droit à la ville, Paris, Anthropos, 1970.

LESPES René, Oran: Etude de géographie et d'histoire urbaine, Paris, F.Alcan, 1936.

LOUKIL Youcef, Mazouna, Alger, Imp-Algérienne, 1912.

MARÇAIS Georges, l'Art musulman, Paris, P.U.F, 1981.

MASSIGNON Louis, Opéra Minora, 3.T, Paris, P.U.F, 1969.

MAUROY (M), Précis de l'histoire et du commerce de l'Afrique Septentrionale depuis les temps anciens jusqu'aux temps modernes, Paris, Palais Royal, 1852.

MERAD- BOUDIA (A), La formation sociale algérienne précoloniale: essai d'analyse théorique, Alger, OPU, 1981.

MERCIER Ernest, Histoire de l'Afrique septentrionale depuis les temps les plus reculée jusqu'a la conquête française, 3.T, Paris, Leroux, 1883.

Ministère de la Guerre, Tableau de la situation des établissements Française dans l'Algérie, 1838, 1839, 1840, 1844, 1845, Paris, Ed, Royal, 1839, 40, 41, 46.

MONFORD Louis, La cité à travers l'histoire, Paris, Seuil, 1969.

MONSONÉGO Janine, L'Activité économique de Mostaganem, de 1830 à nos jours, Paris, Larose, 1950.

MSEFER Jaoud, villes islamiques cités d'hiver et d'aujourd'hui, Tunis, Imp, La Plume, 1844.

NORBET Bel-Ange, Les juifs de Mostaganem, Paris, l'Harmattan, 1990.

PALLARY (P), Notices géographiques sur le Dahra Oranais, Association Française pour L'avancement des sciences, Congrès de Carthage, 1896, Paris, Secrétariat de L'association, 1896.

PELLISSIER (E), Annales Algériennes, 3 vol, Paris, Laguionie, 1836.

PIESSE Louis, Histoire de l'Algérie, Paris, Hachette, 1885.

PIESSE (L) et Canal (J), Les villes de l'Algérie, Tlemcen, Paris, Barbier, 1889.

PIMONDAN (Le Commandant De), Oran, Tlemcen, Sud Oranais (1899 - 1900), Paris, Honore-Champion, 1902.

PRIMAUDAIE F. Elie De-La, Histoire de l'occupation Espagnole en Afrique, (1506-1574), Alger, Jourdan, 1875.

PRIMAUDAIE F. ELIE DE LA, Le Commerce et la navigation de l'Algérie avant la conquête Française, Paris, Ch la Hure, 1861.

PRIOU Louis, Mostaganem et son arrondissement, Mostaganem, Imp de Mostaganem, 1892.

RAGON Michel, L'Homme et les villes, Paris, Berger- Levrault, 1985.

RAYMOND André, Artisans et commerçants au Caire au XVIII siècle, 2vol, Beyrouth, IFD, 1974.

RAYMOND André, Grandes villes arabes à l'epoque Ottomane, Paris, Sindbad, 1985.

RICARD-Pierre, La menuiserie mauresque dans les monuments arabe de Tlemcen, Alger, Jourdan, 1915.

RICARD-Pierre, Pour comprendre l'art musulman dans l'Afrique du Nord et en Espagne, Paris, Hachette, 1924.

RINN Louis, Le Royaume d'Alger sous le dernier dey, in "R.A", T.41-43, (1897-1899) Alger, Jourdan, (1897-1899).

RINN Louis, Marabouts et Khouan, Alger, Jourdan, 1884.

ROZET et CARETTE, L'Algerie, Tunis, Bouslama, 1980.

SARI Djilali, Les villes précoloniales de L'Algerie Occidentale, Nédroma, Mazouna, Kalaâ, Alger, SNED, 1970.

SAUVAGET Jean, Alep, 2 vol, Paris, Guetener, 1941.

TINTHOIN Robert, Colonisation et évolution des genres de vie dans la région Ouest d'Oran de 1830 à 1885, Oran, Fouqué, 1947.

TINTHOIN Robert, Les Aspects phisiques du Tell Oranais, Oran, Fouqué, 1948.

TINTHOIN Robert, L'Oranie sa géographie, son histoire, ses Centres vitaux, Oran, Fouqué, 1952.

THIREAU Louis, Mostaganem et ses environs, Mostaganem, Prin, 1912.

THOMASSY (R), Le Maroc et ses caravanes relation de la France avec cet empire, Paris, Firmindidot, 1845.

TOURNEAU Roger-Le, Fez avant le protectorat. étude économique et sociale d'une ville de l'Occident musulman, Rabat, I.H.E.M, 1949.

TOURNEAU Roger-Le, Les villes musulmanes de l'Afrique du Nord, Alger, Maison du livre, 1957.

VALENSI -Lucette, Le Maghreb avant la prise d'Alger, Paris, Flammarion, 1969.

VATIN Jean-Claude, L'Algérie politique, Histoire et société, Paris, A.Colin, 1974.

WALSIN Esterhazy, Domination Turque dans l'anciènne régence d'Alger, Paris, Charles-Gesselin, 1840.

WALSIN Esterhazy, Notice historique sur le Makhzen d'Oran, Oran, Perrier, 1849.

YACONO Xavier, La Colonisation des plaines du Chelif, 2.T, Alger, Imbert, 1955.

4- Articles de Revues

BARKAN Omer-Lutfi, "Quelques observations sur l'Organisation économique et sociale des villes Ottomanes du XVI et XVII siècles", in "La ville", T.2, Recueille de la société Jean Bodin VII, 1955, (pp 289-311).

BEL ALFRED, "Nédroma métropole musulmane des Traras", in "B.S.G.A.A", N°140, 1934, (pp. 503.525).

BERQUE Augustin, "Esquise d'une histoire de la seigneurie Algérienne", in "Revue de la méditerranée", T.7, N° 29 Jan-Fev 1949, (pp. 18-34) et N° 30 Mars - Avril, 1949, (pp. 168-180)

BERQUE Augustin, "La bourgeoisie Algérienne", in "R. Hesperis" T. XXXV, 1948, (pp. 01 - 29)

BERQUE Jacques, "En lisant les nawazil Mazouna", in "Studia Islamica", T. XXXII, 1970, (pp. 31-39).

BERQUE Jacques , "L'Algérie rurale au XV siècle d'après un manuscrit jurisprudentiel", in "Annales E.S.C" N°5, Sept-Oct 1970, (pp. 1325 - 1353).

BERQUE Jacques, "Médina villesneuves et bidonvilles", in "Cahiers de Tunisie", T.VI, N° 21, 1958.(pp 05-42).

BERQUE Jacques, "Retour à Mazouna" in "Annales E.S.C", N° I Jan- Fev 1972, (pp. 150 - 157)

BRAUDEL Fernand, "L'Economie de la méditerranée au XVII siècle", in "cahiers De Tunisie", T.IV, N°14, 1956, (pp 175-197).

BRAUDEL Fernand, "Monnaies et civilisation de l'or du Soudan à l'argent d'Amérique, un drame méditerranéen", in "Annales- E.S.C", Jan-Mars 1946, (pp 09-22).

BODIN Marcel, "La brève chronique du bey Hasan, Extrait et trad de la Taliat as sad is so'oud de Mazari", in "B.S.G.A.O", T.44, 1924, (pp. 23-61).

BOUHDIBA Abdelwahab, "Durée et changement dans la ville Arabe" in "La ville arabe dans l'islam, histoire et mutation", 1982, (pp. 17-26).

BOYER Pierre, "Contribution à l'etude de la politique religieuse des Turcs dans la régence d'Alger (XVI - XIX siècles)", in "Revue de l'Occident musulman de la méditerranée", N°I, 1966, (pp. 11-49).

BOYER Pierre, "Historique des Beni Amer", in "R.O.M.M", N° 24, 1977, (pp. 39-83).

BOYER Pierre, "Introduction à une histoire de la régence d'Alger", in "Revue Historique", N° 2, Avril-Juin, 1966, (pp. 297 - 316).

BOYER - Pierre, "Le problème Kouloughlis dans la régence d'Alger", in "R.O.M.M", N° spécial, 1970, (pp. 78-94).

CANAL Joseph, "Monographie de l'Arrondissement de Tlemcen, Nédroma et les Traras", in "B.S.G.A.O" , **T.VI**, 1886,(pp 03-22 et 90-111), (pp 164- 165 et 171- 202). -**T.VII**, 1887, (pp 01- 09 et 79- 102), (pp 159-178 et 300-319).-**T.VIII**, 1888, (pp49- 66 et 257- 269), (pp207-217): -**T.IX**, 1889, (pp 51- 72 et 157- 179). -**T.X**, 1890,(pp 59- 76 et 235-345).

CHENTOUF Tayeb, "Deux tentatives économique du Bey Mohamed El-Kebir à la fin du XVIII siècle" in, "Cahiers deTunisie", **T.XX.IX**, N° 117-118, 198?, (pp 159- 175).

CHEVALLIER Dominique, "La ville arabe, notre vision historique", in "L'Espace social et culturel de la ville arabe", 1979, (pp. 07-31).

CHEVALLIER Dominique, "Sang des villes, sang des peuples", in "La ville arabe dans l'Islam, histoire et mutation", 1982, (pp. 541 - 554).

CHOAY Françoise, "Histoire et la methode en urbanisme", in "Annales. E.S.C", N° 4, 1970, (pp. 1143-1154).

DARMON, "Origine et Constitution de la communauté Israélite de Tlemcen", in "Revue Africaine", T.14, 1870, (pp. 376 - 383).

DELPECH Adrien, "Le Soulèvement des Derkaoua de la province d'Oran, d'après la chronique d'El Mossellem Ben Mohamed, 1800 à 1813," in "**R.A**" T.18, 1874, (pp. 38-58).

DEVISE Jean, "Routes de commerce et échanges en Afrique Occidentale en relation avec la méditerranée, un essai sur le commerce Africain médieval du XI au XVI S", in "**Revue d'histoire économique et sociale**", No1 1972, (pp. 42- 73 et 357- 397)

DHOQUOIS Guy, "Les étapes de la formation Algérienne, proposition pour une recherche", in "**R.A.S.J.E.P**", volume V, N° 2, Juin 1968, (pp. 374 - 383).

DJAGHLOUL Abdelkader, "Essai de définition du mode de production de l'Algérie précoloniale", in "**La Pensée**", N° 185, Fev 1976, (pp. 61 - 81).

EISEMBETH (M); "Les juifs en Algérie et en Tunisie à L'époque Turque (1516-1830)", in "**R.A**", T 96, 1952, (pp. 134- 146)

EMERIT Marcel, "La situation économique de la régence D'Alger en 1830", in "**Information Historique**", 14 année, N° 2, 1952, (pp. 169 - 172).

EMERIT Marcel, "Les aventures de Thedenat exclave et ministre d'un bey d'Afrique, (XVIII siècle)", in "**R.A**", T. XCII, 1948, (pp. 143 - 184).

EMERIT Marcel, "Les liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au XVIII° et au début du XIX° siècle", extrait des "**Travaux de l'Institut de Recherche Sahariennes**", T. XI, 1954, (pp. 30 - 47).

EMERIT Marcel, "L'essai d'une marine marchande barbaresque au XVIII° siècle", in "**Les cahiers de Tunisie**", N° 11, 1955, (pp. 363 - 370).

EMERIT Marcel; "Les tribus privilégiées en Algérie dans la première moitié du XIX° siècle", in "**Annales, E.S.C**", N°I, Jan-Fev, 1966, (pp. 44 - 53).

EMERIT Marcel, "Mémoires de Thédenat" écrites à Zurich en 1785, in "**R.A**", T. XCII, 1948, (pp 157- 183, 331- 362).

ENCYCLOPEDIE DE L'ISLAM, T.3 et 4, Paris, Klincksiéck, 1934.

ESCALLIER Robert, "Le fait socio-special dans les villes du tiers monde, méditerrannée et Afrique Occidentale, élément de reflexion", in "C.M.M.C", N° 23, Dec 1981, (pp.129- 160).

FAURE BIGUET (G), "Notice sur le cheikh Abou-Ras en Nasiri", in "Journal Asiatique", T.14, 9 Année, Sept -Dec 1899, (pp. 388 - 420).

FIORI Herman, "Promenade sociologique, une medersa déchue", in "Revue Africaine", T. XCI, 1947, (pp305 309).

GALLISSOT René, Abd El Kader et la nationalité algérienne, interprétation de la chute de la régence d'Alger et des premières résistances à la conquête Française (1830 - 1839)", in "Revue Historique", T. 89, 1965, (pp. 339 - 368).

GALLISSOT René, "Essai de définition du monde de production de l'Algérie précoloniale", in "R.A.S.J.E.P", Vol V, N° 2, 1968, (pp. 385 - 412).

GALLISSOT René, "L'Algérie précoloniale", in "C.E.R.M", sur le féodalisme, 1971, (pp. 147 - 179).

GALLISSOT René, "Le Maghreb précolonial, mode de production archaïque ou mode de production féodal", in "La Pensée", N° 142, 1968, (pp. 57 - 73).

GALLISSOT René, "Les rapports ville-campagne", in "C.E.R.M", sur le féodalisme, 1971, (pp. 233-241).

GAZENAVE Jean, "Histoire d'Oran par le marquis de Tabalosos", in "B.S.G.A.O", T.51, 1930, (pp. 321 - 360), et T.52, 1931, (pp. 317 - 352).

GENIAUX Chartes, "Mazouna", in "Revue des deux mondes", 1921, (pp. 432 - 452).

GENIAUX Charles, "Nédroma", in "Revue des deux mondes", Fev 1922.

GRAND-GUILLAUME Gilbert, "Une Médina de l'Ouest Algérien, Nédroma", in "R.O.M.M", N° 10, 1971, (pp. 55 - 80).

GORGUOS (A), "Notice sur le bey d'Oran Mohamed El Kebir", in "Revue Africaine", T 1 - 2, 1856. 1857, (pp. 403 - 454) et (28 - 46 - et 223-241).

HEERS (J), "Le Sahara, et le commerce méditerranéen à la fin du moyen Age", in "Annales de l'Institut d'Etudes Orientales", T. XVI°, 1958, (pp. 247-255).

JANIER Emile, "Les Industries indigènes de la région des Traras", in "Revue Africaine", 1944, (pp. 43 - 66).

JANIER Emile, "Némoure et sa région", in "B.S.G.A.O", T. 72, 1949, T. 73, 1950, (PP 05- 20).

KEHL Camile, "Indigènes et musulmans en Algérie", in "B.S.G.A.O", T.58, Fasc 205, Mars 1937, (pp 61 - 88).

LESPINASSE (E), "Notice sur les Hachems de Mascara", in "Revue Africaine", T. 21, 1877, (pp. 141 - 151).

LE VIEUX MOSTAGANEM, in "Journal d'Economie politique régional", N° 7 - 13, Juillet - Août 1920.

LORRAL (E.DE), "Tlemcen", in "Revue le tour du monde", 1875, (pp. 305 - 368).

MANTRAN Robert, "Commerce maritime et économie dans l'empire Ottoman au XVIII° siècle", in "Economie et société dans l'empire Ottoman fin du XVIII° début du XIX°", 1983, (pp. 289-296).

MANTRAN Robert, "La description des côtes de l'Algérie dans le Kitab Bahriye de Piri Reis", in "R.O.M.M", N° Spécial, 1973, (pp. 159-195).

MARÇAIS Georges, "La conception des villes dans l'islam", in "**Revue d'Alger**", T. II, N° 10, 1945, (pp. 13 - 34).

MARÇAIS Georges, l'Urbanisme musulman, extrait du "V° congrès de la fédération des sociétées savantes de l'Afrique du Nord", Alger, Société historique, 1940, (pp. 13 - 34).

MARÇAIS Georgres, "Remarques sur l'esthetique musulmane", in "Annales de l'Institut d'Etudes Orientales", T-IX, 1938, (pp. 55 - 71).

MARTHELOT Pierre, "Agression demographique et développement urbain, variantes sur le thème villeneuves et médinas", in "R.O.M.M", N° spécial, 1970, (pp. 297 - 309).

MECHERFI Abdelkader El, "L'Agrément du lecteur, notice historique sur les arabes soumis aux espagnols pendant leurs occupations d'Oran" Trad de M. Bodin, in "B.S.G.A.O", T. 55, Oran, Fouqué, 1934.

MEROUCHE Lemnouar, "Les Berranis à l'époque Turque et au début de la période coloniale", in "Traveaux" , Alger, 1979.

MEROUCHE Lemnouar, "Les Premiers noyaux ouvriers en Algérie au milieu du XIX° siècle", in "Traveaux", 1979, (pp. 231-240)

MILSON (G), "Rechgoun port de guerre et port de commerce", in "B.S.G.A.A" Vol 3, 1898, (pp. 73 - 93).

NOUSCHI André, "Observations sur les villes dans le Maghreb précolonial", in "C.M.M.C", N° 23, Decembre 1981, (pp. 03-21).

OUMLIL Ali "Ibn Khaldoun et la société urbaine", in "La ville arabe dans l'Islam, histoire et mutation", 1982, (pp. 39 - 44).

PASCON Paul, "Situation politique du Hauz", in "Hérodote" N°11, 1978, (pp. 137 - 157).

PAUTY Edmond, "Villes spontanées et villes créés en islam", in "Annales de l'Institut d'Etudes Orientales", T.IX, 1951, (pp. 51 - 75).

PLANHOL Xavier-De, "Forces économiques et composantes cultuelles dans les structures commerciales des villes islamiques", in "La ville arabe dans l'Islam, histoire et mutation", 1982, (pp. 227-239).

PRENANT André, "La propriété foncière des citadins dans les régions de Tlemcen et Sidi-Bel-Abbès", in "Annales Algériennes de Géographie" N° 3, Jan-Juin, 1967, (pp 02- 94).

PRENANT André, "Le Rapport ville-campagne dans L'histoire du Maghreb", in"C.E.R.M", sur le féodalisme, 1971, (pp 218- 220).

PRENANT André, "Rapports ville-campagne dans le Maghreb: l'exemple de l'Algérie", in "Revue Tunisienne des Sciences Sociales", N°15 dec 1968, (pp. 191 - 216).

PRENANT- Thumelin Marie- Anne, " Nédroma 1954", in "A.A.G", no 4, Juil-Dec, 1967, (pp 21- 63).

PONCET Jean, "Remarque sur les rapports entre villes-campagnes dans l'ancien Maghreb", in "C.E.R.M", 1971, (pp. 211- 217).

RAOUL, "Notice historique sur El Bordj depuis la dernière période de l'occupation Turque jusqu'a nos jours", in "B.S.G.A.O" T.XX, 1900, (pp. 145 - 171).

RAYMOND André, "Deux familles de commerçants Fasi au Caire à la fin du XVIII Siècle", in "R.O.M.M" N° Spécial, 1973, (pp. 269 - 273).

RAYMOND André, "Signes urbains et étude de la populations des grandes villes arabes", in "Bulletin d'Etudes Orientales" N°,XXVII, 1975, (pp. 183 - 193).

RICARD Pierre, "L'Artisanat indigène en Oranie", in "B.S.G.A.O", T.61, Fasc 214, mars- juin 1940, (pp 97- 147).

RINN Louis, "Carte du royaume d'Alger sous le dernier Dey", in "Revue Africaine", T.43, 1899.

ROUCHE Isaac, "Un grand Rabbin à Tlemcen au XV° Siècle", in "B.S.G.A.O", T.57 Fasc 204, Sept-Dec 1936, (pp. 280 - 286).

STANBOULI Fredj, "Système social et staification urbaine au Maghreb" in "Revue Tunisienne des sciences sociales", N° 50 - 51, 1977, (pp. 69 - 106).

STANBOULI Fredj, et ZGHAL (A), "La vie urbaine dans le Maghreb précolonial" in "villes et sociétés au Maghreb" Aix en Provence, CRESM, 1973, Art paru, in "Annuaire de l'Afrique du Nord" T.XI, 1972, (pp. 191-213).

TINTHOIN Robert, "Les Paysages géographiques de l'Oranie", in "B.S.G.A.O" T.58, Fasc 208, Dec 1937, (pp. 203 - 234).

YACONO Xavier, "Peut- on évaluer la population de l'Algérie vers 1830" in "Revue Africaine", T. 98, 1954, (pp. 277 - 307).

WIRTH Eugène, "Villes islamiques, villes arabes, villes Orientales? Une problématique face au changement" in "La ville arabe dans l'Islam, histoire et mutation", 1982, (pp. 193 - 199).

الفهارس

فهرس الأعلام والقبائل والجماعات

فهرس الأماكن والبلدان

فهرس البحث

فهرس الأعلام والقبائل والجماعات*

أ

* فهرس الأعلام والقبائل والجماعات، لقد رتبنا بعض الأسماء وفق شهرتها.

ب

ت

ج

ز

س

ش

ط

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

فهرس الأماكن والبلدان*

أ

ب

* وركزناعلى الحواضر والبلدان، ولم نذكر بصفة عامة جل المناطق الواردة في البحث نتيجة تعددها.

-غالبا ما استعملنا كلمة الجزائر للدلالة على مدينة الجزائر والإيالة الجزائرية ولهذا لم نخصص للإيالة مكانا في الفهرس.

- لم نخصص مكانا ضمن الفهرس للتقسيمات الإدارية: كبايلك الواردة في البحث نتيجة تكرار هذه المصطلحات وللتركيز على الحواضر دون المقاطعات.

ت

ج

ح

ر

س

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

وجدة= 27- 34- 72- 73- 77- 81- 87- 89- 91

وادي الرهيو، مدينة= 38

وهران= 6- 8- 9- 17- 20- 21- 22- 23- 24- 25- 26- 27- 29- 30- 31- 32- 33- 34- 36- 46- 48- 49- 50- 73- 81- 82- 83- 85- 86- 88- 105- 149- 151- 153- 158- 175- 179- 185

فهرس البحث